

حتى..

لا تتساقط الأوراق

١. زقاق الطوال

٢. حوش التاجوري

غالب حمزة أبو الفرج

روايتان ١٤٢٢هـ

ح غالب حمزة أبو الفرج ، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو الفرج، غالب حمزة

حتى لا تتساقط الأوراق : زقاق الطوال: رواية/غالب حمزة أبو الفرج ،

جدة، ١٤٢٤هـ

٢٠٠ ص ـ ٢٤سم

ردمك: ٩ ـ ٩٨٧ ـ ٤٣ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القصص العربية ـ السعودية أ . العنوان

ديوي ٨١٣,٩٥٣١ ١٤٢٤/١٢٧٦

رقم الإيداع : ١٤٢٤/١٢٧٦

ردمك : ٩ ـ ٩٨٧ ـ ٤٣ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

طبع بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم) بجدة

ص . ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ جدة ت : ٦٧١٢١٠٠ المملكة العربية السعودية

تنفيذ: سيد عبد الفتاح علي

بسم الله الرحمن الرحيم

زقاق الطوال

غـالب حمـزة أبـو الفــرج

رواية

١٤٢٢هـ

الفصل الأول

أنسى في غمرة انشغالي بظروف الحياة كل تلك الأيام التي مرت بي منذ ذلك اليوم الذي تفتحت فيه عيناي على معالم هذا العالم، هناك على مقربة من بركة باب الشامي التي كان يقال بأن المحمل الشامي بحجّاجه الوافدين من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن كان يستقر حولها.

معالم المدينة المنورة القديمة تطل من بين تلافيف ذاكرتي التي لم تشخ وكأنها تتجسد أمام عيني في هذه اللحظة ربما لأن انعتاقي من أَسر الحياة وبُعدي عن مشكلاتها جعلني أستعيد الماضي بجلاله وجماله وروائه وكل شيء فيه، تلك سُنة الحياة ننسى الماضي ونتناساه فترة من الوقت حتى إذا ما غدونا بأقدامنا في خضم هذه الحياة عاد من حقنا أن نتوقف قليلاً للبحث عن الماضي، نتوقف للحظات تكون كافية لاسترداده بكل معطياته وذكرياته.

في باب الشامي كانت كرائم أُسر المدينة تختار بيوتها خارج سور المدينة الكبيرة وكأنها تود أن تنطلق من إسار ذلك السور الذي يلف المدينة كما يلف السوار معصم أمي، هكذا كان خيالي يراه في ذلك الوقت، أما البيت الذي ولدت فيه فقد كان أكبر من البيت؛ تلتقي جدرانه مع جدران البيوت الأربعة التي تعانقه وكأنها تحاول أن تخضع ظروف الحياة والأسرة والمجتمع الذي نعايش داخل هذه الجدران التي شمخت بسقوفها العالية ورواشينها الجميلة، لقد أبرزت يد الصانع الأصيل الماهر التي زرعت في كل ركن من أركان هذه البيوت الأربعة آثارًا لا يخفى جمالها؛ بل يدهش وكأن هذا الصانع قد تخرج من أكبر معاهد العمارة التي توجد بين ظهرانينا اليوم.

أمام بيوتنا كان هناك نخلتان أصيلتان من نخل المدينة المنورة تطل عليهما رواشين البيت في حب وكأنها تعانقهما ولطالما أظلتنا النخلتان ونحن نلهو ونلعب بل وساهمت في إسعادنا بما كانت

تجود به علينا من ثمراتها الطيبة التي كنا نلتهمها وكأننا لم نذق قط مثلها من قبل.

بجانب دارنا كان هناك دور كثيرة ومتعددة لا تختلف عن دارنا في طريقة البناء وإن كانت تختلف عنها في أسلوب التزيين والنجارة، تقول جدّتي: إن بيتنا في باب الشامي قد تم بناؤه خلال عشر سنوات أمضاها الصناع في عمل جاد وأن جدّي قد جلب له العديد من هؤلاء الصناع من تركيا ومصر وسوريا فكان نتاج ذلك هذه الرواشين الجميلة الأنيقة التي يتحلى بها بيتنا والذي له طابع مميز يلاحظه كل من تقع عيناه عليها.

لم يكن عهد الكهرباء قد جاء يوم ولدت ولكننا بعد أن انتقلنا إلى بيتنا الآخر في زقاق الطوال أصبح الأمر على غير ما كنا نعهد.

أكثر جيراننا في بيت الشامي انتقلوا هم الآخرون إلى زقاق الطوال لا أدري ما السبب وإن كانت جدتي تعزو الأمر إلى حرارة الشمس وانصراف بعض سكان المدينة الذين تركوها طلبًا للرزق بعيدًا عنها لسنوات مما جعل عدد السكان في طيبة الطيبة يتناقص باستمرار ولهذا أصبح من حقهم أن يعودوا إلى داخل سور المدينة.

ذاك عهد مضى وانقضى، لكن الكثيرين من شيوخ المدينة يذكرون تفاصيل الحياة على هذه الأرض إذ عندما شح كل شيء فيها هرب الكثيرون طلبًا للرزق والحياة وبالطبع هذه سُنة الحياة .كما يقولون. والكلام هنا أيضًا لجدتي.

عم أحمد السقا واحد من شخصيات ذلك العصر عايش الحياة في زقاق الطوال وعايشناه وملأ أزيارنا بالمياه العذبة الباردة.

والسيد أحمد يسلم أو دكة خالي هو الآخر كان واحدًا من سكان ذلك الزقاق، أتذكره يتمخطر بملابسه الأنيقة بكبرياء غير مفتعل، أما عم سعيد (حلا حلا) فقد كان بعض أبناء الزقاق ورواد الحكاوي والقصص يحكون قصصه الرائعة وحكاياه التي تحبس الأنفاس وتبهر العقول في كل مكان يتواجد فيه، وتتوالى الأسماء والذكريات ما بين همس وهدير في أعماق نفسي، الحاجّة مريم التكرونية، سعاد المغربية، خالة عيشة، استيته صالحة، نعيمة ونزيهة، وغيرهن كثيرات أذكرهن كلما أذكر خوجه هانم فقد تخرجن جميعًا من عندها في يوم من الأيام وقبعن في بيوتهن ينتظرن فتى الأحلام الذي جاء بالفعل للبعض ونسي البعض الآخر منهن.

لكن أكثر ما كان يثير في ذهني أعذب الذكريات ذلك الصوت الشجي الذي كان يرتفع بأحلى

أغنيات مصر والمغرب العربي، إنه صوت محمد أبو عزة الشاب الذي ولد على هذه الأرض لأصول مغربية، فقد كانت أسرته قد هربت من المغرب خوفًا وهلعًا من المستعمر الفرنسي، جاء جده وأبوه وأمه وعاشوا جميعًا في بيت كبير اشتراه أبوه على مقربة من بيتنا، أمام قبر سيدي عبدالله والد الرسول الحبيب - عليه الصلاة والسلام - وعلى مقربة من رباط الحسينية وأيضًا على مقربة من الرباط البيت الكبير لآل أسعد، ذلك البيت الجميل البناء ذو الرواشين المتميزة والحديقة المنسقة والتي امتلأت بأشجار النخيل.

أما الشيخ حامد الأفغاني بلحيته المهيبة وزوجاته الثلاث فقد كان يقطن مقابل دار أسعد الكبيرة، لا يعرف أحد شيئًا عن أسرته وزوجاته اللواتي لا يخرجن من البيت مطلقًا.

زقاق الطوال لا تنقطع الرِّجل عن ارتياده رغم أنه ككل أزقة المدينة لا يزيد عرضه عن الأربعة أمتار فالحجاج الذين يأتون لزيارة مسجد الرسول - عليه الصلاة والسلام - يهمهم أن يقفوا لقراءة الفاتحة على قبر والد الرسول سيدنا عبدالله.

عم سعيد الكاتب صاحب الكتاب الصغير المعروف باسمه يعيش منذ عرفته على مقربة من السقيفة عند آخر الزقاق من جهة شارع الساحة ومعه زوجته المصابة بالصرع وابناه وكذلك والدته، كلهم يعيشون في الدار الصغيرة، السقيفة في زقاق الطوال مخيفة في الليل، والدار التي في أعلى السقيفة كانت مهجورة وقد أشيع في ذلك الوقت أنه تنتشر الأشباح في جنباتها مما جعلها مصدر خوف لا ينتهي لنا نحن الصغار. بل ومصدر حكايات وقصص لا تنتهي وإزعاج يجعلنا نهاب التجول هناك بالليل.

في الصيف كان الناس يحملون أسرّتهم التي كانوا يختارونها ويشترونها من شارع القفاصة وينامون على أسطح المنازل وكانت فرصة للجميع فيها التجديد والتغيير وبالنسبة لي كانت فرصة أطالع النجوم التي يتلألأ نورها في السماء وأهيم بخيالي في أحداث الماضي وأحلام المستقبل، ولم يكن هذا حالي لوحدي، بل أكاد أجزم أن معظم الصغار بل الشباب والكبار كانوا يفعلون نفس الشيء، ربما كان الصغار أمثالي يفعلون ذلك بحماس أكبر كأن يحادثوا هذه النجوم بحب وشغف وينتظروا منها أن تتحدث هي الأخرى إليهم وتجيب على تساؤلاتهم الكثيرة البريئة ولكن بالطبع بلا جدوى.

كان بين كل سطح دار وسطح الدار المجاورة جدار صغير يحمي سكان هذه الدار أو تلك من

أعين الفضوليين، لكن سكان الزقاق الطوال كما كنت أظن وأنا صغير لم يكن بينهم أي فضولي سواي، لا أذكر لماذا!!، ربما لأن جدتي غرست في ذهني حكايا كثيرة كانت تلقيها على مسامعي طوال الفترات التي كنت أقضيها بجوارها وخصوصًا في ليالي الحَرّ، لربما يتساءل البعض أي فضولي كنت؟، لعلي لا أبالغ إذا قلت كنت الفضولي الذي يريد أن ينهل أكبر قدر من المعرفة والعلم، التعرف على ما حوله وما جرى قبله وما يمكن أن يجري بعده.

باختصار كانت المعرفة التي أتطلع إليها معرفة إنسان يطمع إلى تحقيق ذاته وكيانه في المستقبل القريب والبعيد، معرفة إنسان يريد أن يعرف ليتعلم، ويتعلم ليستفيد ويفيد ويكون إنسانًا له قيمة وله دوره في هذه الحياة، لا مجرد تكملة عدد ـ كما يقولون.

وكان الناس في دنيا زقاق الطوال بالنسبة لي أشبه بالكتاب الذي عليّ أن أقرأه، أتمعن في كل صفحاته وأتأمل كل حروفه لأفهم أدق معانيه وأعي كل ظروفه، ولطالما اختزنت صور ذلك الماضي الذي أراه يحاول أن يطل اليوم؛ لأنني في ذلك الماضي لم أكن قادرًا على الإفضاء بكل ما سمعت وعرفت ورأيت وقرأت لأي أحد، فظروف الحياة التي نعيشها تجعل في بعض مراحل حياتنا وقفات قد تكبر وقد تتضاءل وها أنا ذا أقف اليوم على كل تلك المراحل التي مضت لأرى نفسي وأقول لها: لَكَم كانت حياة حافلة بأحداث سعيدة وأخرى حزينة. لكن مع ذلك كانت حياة جميلة لبساطتها وطيبة كل من كان يشاركني فيها، فالحياة أخذ وعطاء، وما أجمل أن يكون ذلك الأخذ والعطاء بين أناس يحبون بعضهم بعضًا ويتمنون لبعضهم الخير والسعادة وصفاء العيش، تلك الحياة التي كنت أحياها في الماضي مع كل من حولي.

الذين يعرفون طَيْبة الطّيبة يتذكرون كيف كانت وكيف أصبحت، وتهدر الذكريات في أعماقي مدوية صارخة فأرى من خلالها كيف تغير كل شيء فيها، شوارعها وطرقها، أبنيتها، لفها العمران بثوب آخر جديد قضى على كل القديم فلم يبق شيء منه، ضاعت معالم الماضي وتاهت بين عيون الشباب والشيوخ الذين كتب لهم أن يعايشوا تلك الفترة يوم كان زقاق الطوال مدخلاً من مداخل الساحة وطريقًا ملتويًا من الطرق المؤدية إلى المسجد النبوي، البيوت القديمة، عرصات الأحوشة، باب المجيدي، جوه المدينة، زقاق الزرندي، سقيفة الرصاص، حارة الأغوات، كل تلك الأماكن التي يعرفها أمثالي أصبحت الآن جزءًا من التاريخ، هضمتها عمارة المسجد النبوي الذي أصبح في حلته الجديدة يرمق الفجر الذي سطع نوره ليضيء مرة ثانية بمعالمه على هذه الأرض

يضيف لرسالة الأجداد الذين بدؤوها في بداية القرن الأول الهجري حاملين مشاعل التعلم والإسلام إلى أرجاء هذه الدنيا الواسعة الشاسعة.

الحياة في المدينة المنورة نسيج يغاير كل الأنسجة التي نشاهدها في مدن العالم الأخرى، ظاهرة فريدة تميزت بأشياء كثيرة ربما لأن تقاليد أهلها كانت جزءًا من تاريخ طويل ساهم في إشاعة الخير على أديم الدنيا.

في دنيا الناس تختلط المشاعر وترتبط بظروف الحياة وتقترن بأحداث الماضي البعيد القريب معًا، ثم بعد ذلك كله نجدها تطفو وتظهر من خلال تصرفات الإنسان الذي يعيش على أرضه مشدودًا بقيمها وظروفها وتاريخها وما يمارس من أعمال وأفعال وما يتطلع إليه من أماني وأهداف، تلك سمة العصر، بل كل عصر، لكن عندما تختلط مظاهر الحياة وترتبط بتقاليد الأمس يصبح من الصعب على الإنسان أن يعيش الواقع دون أن يصل هذا الواقع بالماضي القريب والبعيد معًا.

في زقاق الطوال عاش إنسان هذه الأرض أخًا يرتبط بجاره القريب والبعيد رغم فوارق الناس، كل واحد من أبناء هذا الزقاق كان سترًا للآخر مهما تباعدت بهم ظروف الحياة وتطاولت مادياتها على أكثر من بيت، وعلى أكثر من أسرة، ربما لأن الناس في ذلك الزمن كانوا يؤمنون بالأخوة وحسن الجوار، يدفعهم إلى ذلك حب فطري غرسته تعاليم الدين الإسلامي ورسخته في نفوسهم فجاء الواحد منهم على صورة أقرب لصور الماضي يوم كان الأجداد يعيشون في هذه الدنيا ويحيون على هذه الأرض ويصدرون النور والمعرفة إلى العالم أجمع.

عم أمين بخاري الترزي العنيد الذي تقبع دكانه في شارع العينية على مقربة من بيته في زقاق الطوال، هذا الرجل الذي حرم نعمة أن تلد له امرأته طفلاً بينما يمتلئ حوش بيته بالعديد من الأطفال فقد كانت هوايته تربية الأيتام وتعليمهم وتزويج بعضهم لبعض ليمتلئ بيته فيما بعد بأطفالهم وقد علت البسمة وجوه الجميع وارتفعت ضحكاتهم معلنة السعادة التي يعيشونها ورغد العيش الذي يرفلون به.

في زقاق الطوال تعيش نماذج طيبة من البشر، صنع لها الحب عقودًا وردية فعاش جميع سكانه في ود متبادل وكأن كل واحد من سكانه أخ للآخر يحمل في جنبات قلبه همومه وآلامه ويشاركه طموحه وأحلامه.

ومضى هذا الزقاق، مضى هذا الزقاق الذي ظل مئات السنين يمنح سكانه شيئًا من الرقة والعذوبة والحب والوفاء، ذهب مع الريح، أكلته رياح التطور، وقذفت بكل سكانه إلى خارج منطقته وكأنه كان على موعد مع الرحيل إلى خارج الديار برضائه ودون أي قسوة، ولطالما هزمت الأعاصير جدران المدن وقوضت مبانيها، وكثيرًا ما اجتاح الطوفان الأودية والشوارع والمنازل والأسواق والمعالم التي قد تتميز بها غيرها في ذلك العصر والزمان، أما هذا الزقاق فكان نصيبه أن يختفي بأن يصبح جزءًا من المسجد النبوي الكريم.

ولئن ضاعت بعض معالم ماضي المدينة المنورة في عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف فقد كان ضياعًا محمودًا تلمح آثاره على هذه الجدران والأعمدة الكبيرة التي انزرعت هكذا فجأة بين رحاب المسجد الذي نُجِلّ ونَحترم ونأمل أن تظل عمارته على حسن اختيار الزمن لظروف الأرض والبيئة والمجتمع شعاعًا كبيرًا من الأمل في حياة جديدة صاحبت ضياع الزقاق ولا يزال هذا الشعاع تتطاول إلى رؤياه أعناق الناس كل الناس في بلاد الناس الطيبين في طيبة الطيبة.

وسيظل التاريخ يحكي صفحات من رؤياه الخالدة في طيبة الطيبة للأجيال القادمة، تلك الرؤيا التي لا يمكن أن تندثر حتى يأذن الله لشمس هذه الدنيا أن تغيب وأن تحتجب.

ويظل الناس في طريقهم تسير بهم أقدامهم في دنيا الخير رغمًا في كثير من الأحايين في هذه الأرض، إذ من هذه الأرض انبثق نور الشمس وأضاء معالم طريق الناس حتى إذا ما تجاوبت الأرض لدفئه انطلقت جحافل الخير تجوب أصقاع الدنيا تورثها أوراق الربيع الحاني وكأنها تريد أن تطهّر قلوبها من أضغان الشر الذي شاع فترة من الزمن، وآن للأمجاد الصامتة أن تتكلم، أن ترفع عقيرتها بالأناشيد في ظل ثروتها الكبيرة وإيمانها العظيم، فلا جديد تحت الشمس إلا هذا الجديد الذي نرمق ونتطلع إليه بقلوب واجفة، يمد غدها بالأمل ويمنحها الحنان روابي شامخة من قدرات الإنسان على العيش بين الأصالة والمعاصرة، وكأنه على موعد مع رياح التغيير التي يشاهد عظمتها تبدو في أناقة ظاهرة تستمد قواها من إدراك الإنسان الذي يعيش على هذه الأرض وملء قلبه شوق للماضي وللحاضر والمستقبل على السواء.

***

الفصل الثاني

جدّتي تتذكر الماضي وتتحسر، تعتقد أنها فقدت مع ذكرياتها جُل حياتها أو كادت، وهي تنظر إلي وإلى أختي ونحن نكبر وتقول: (من غدٍ ستنطلقان في هذه الدنيا وتريانها على حقيقتها، أما أنا فسوف أظل لوحدتي، أختك لا بد أن تتزوج أما أنت فتصنع بيتك بأسنانك، فأنا أعرفك جيدًا وأقرأ كل أحلامك في وجهك هذا الذي أحب)، أضحك من كلامها وأردده بيني وبين نفسي، أحاول أن أتناسى كل هذا الذي تقوله وأتساءل: (ترى ماذا تعني بأكثر ما تقول؟)، قد تختزن الذاكرة بعضًا من كلامها لكنه على أي حال ليس كلامها، فكلام جدتي كثير ومثير ومضحك ومحزن أيضًا!!.

جدتي امرأة تجاوزت الثمانين من العمر، قضت أكثرها في طيبة الطيبة وتعرفت على دروبها وشوارعها وأحواشها وهضابها ووديانها، لم تتركها إلى أي مكان في هذه الدنيا إلا لمكة المكرمة أدت خلالها الحج ثلاث مرات على الجمال ومرتين بالسيارة واحدة عندما كان الطريق مليئًا بالتعاريج والأتربة والثانية بعد أن عُبّدَ الطريق؛ طريق مكة ـ جدة ـ المدينة لأول مرة.

جدتي تجيد الحديث وتعرف أكثر سكان المدينة، وهي صديقة عزيزة لجميع سكان زقاق الطوال لكنها تدرك إدراكًا تامًّا أن أعز سكان الزقاق بالنسبة إليها أمي جميلة السنارية ووالدتها وأختها جارتنا اللواتي يكن في بيت مجاور لبيتنا الكبير.

هي تتذكر يوم ماتت أخت أمي جميلة السنارية فهذه السيدة السمراء اللون التي أجادت الغناء والعزف على العود ظلت أختًا وفية لأختها التي ماتت في عز الشباب، كان المصاب أكبر من أن تتحمله أو يتحمله عقلها فاهتزت أعصابها وبدت على صورة مغايرة لصورتها السابقة، طلّقت العزف والغناء وتناست أيامها ولياليها السابقة وبقيت لا تتذكر سوى شيئًا واحدًا هو أختها التي ماتت، وعلى الرغم من أن أمي جميلة كانت زوجة لرجل من رجال مكة الذين اختاروا البقاء في طيبة إلا أن هذا الرجل الذي لم تنجب منه رأى أن يطلقها في هدوء بعد أن اهتزت أعصابها وبدت

على تلك الصورة المغايرة للصورة التي عرف.

لم تكن أمي جميلة مؤذية في تصرفاتها لكن صحتها وحزنها أحال حياة البيت إلى موات بعد أن كان ينبض بالحيوية والعافية.

عاشت هذه السمراء التي جاءت من زنجبار مع والدتها سنوات طويلة في بيتها ترمق السماء وتنتظر عودة أختها إلى البيت بدون جدوى حتى إذا ما لحقتها أمها زادت الطين بِلّة فهجرت أمي جميلة بيتها واختارت السكن في بيت بعيد في أحد الأحواش في العنبرية.

هربت من كل الناس وبقيت وحيدة حتى عدت من دراستي في الخارج لتلتقي بي وألتقي بها هذه المرة ولأراها كما تركتها وتعلقت بها وأنا صغير وكأن السنوات التي مضت لم تغير فيها شيئًا، أمي جميلة كانت تعتبرني ابنًا لها فهي التي ربتني صغيرًا واعتنت بي لتلك الدرجة التي جعلتني أتعلّق بها وتتعلق بي وكانت أمي تحبها لمحبتها لي وكذلك جدتي وأنا.

في تلك الأيام لم تكن طيبة الطيبة ولا أبناؤها يعرفون هذا السيل المنهمر من أنواع الحلويات والشكولاته، يوم ذهبت إلى المدرسة منحتني جدتي شيئًا من حلوى الزنجبيل التي كانت تصنعها بيديها، وحلوى الزنجبيل هي مزيج من السكر والليمون والزنجبيل وشيئًا من الدقيق تقلبه جدتي على كانون النار حتى إذا ما نضج تركته يبرد قليلاً ثم تدير كفها في شيء من أجزائه ليصبح في النهاية شيئًا رائعًا من الحلوى التي أحب.

في الصيف كلنا ننتقل جميعًا من أعلى البيت إلى الطابق الأرضي حيث يقبع الديوان والقاعة فجو المدينة الحار يحتاج إلى هذا التنقل فقد كان أبناء المدينة يتبارون في تجميل وتكبير قاعاتهم وأروقتهم التي تمتد جدرانها حتى نهاية البيت لتستقبل الهواء الحار، ثم تحيله إلى هواء بارد بعض الشيء عن طريق الجلاء المغطى بستائر بيضاء أو ملونة.

أما النساء فلم يكنّ يعرفن أنواع الملابس المتوفرة اليوم في الأسواق، كان جلهن تمضي طوال النهار بالسروال والسديري الذي صنع من قماش مخطط كانت تنتجه القاهرة فسمّي باسمها، في شهر رمضان تنشط النساء لإعداد أنواع جديدة من الطعام والحلوى، فمن عادة العوائل تمضية الأمسيات كل ليلة في بيت من بيوت الأسرة بعد أن يبدأ بالأكبر والأكبر، لهذا كان الأطفال ينتظرون هذه المناسبات ليسعدوا بلقاء إخوانهم ليلاً، حيث كان السهر ممنوعًا على الأطفال، تتساعد نسوة الأسرة في إعداد الأنواع المختلفة من طعام رمضان، فالعدد الكبير يجعل من

الصعب على نساء البيت إعداد كل هذا الطعام كلٌّ بمفردها، ولهذا تجد أكثر بيوت المدينة وقد امتلأت بالأهل والأقارب يمضون لياليه وقد امتلأت قلوبهم بالحب والود، حتى أولئك الذين باعدت بينهم المشكلات والخلافات نسوها مع مطلع فجر هذا الشهر الكريم تلك أيام مضت، ولا أقول هنا ضاعت مع التطور الذي شمل أكثر مدن المملكة وقراها.

في زقاق الطوال يجد الإنسان نفسه صديقًا لكل سكانه تلك هي سُنة الحياة على هذه الأرض الطيبة، وهذا هو أسلوب سكان هذا الزقاق العتيق.

جدتي تقول هذا وتؤكده وتتحدث عن زواج بنات الأسرة وتتذكر كيف هب سكان الزقاق لمشاركة والدي يوم زواج أختي الكبيرة.

أربعون ليلة دامت أفراح الأسرة. وهذا في نظرنا نحن الذين نمارس حياتنا الجديدة شيئًا غير مألوف. لكنني أستمع لكلمات الجدة بكثير من الحرص؛ فهي تعرف كيف تغلف كلماتها بكثير من الرواء والتحسر، لدرجة تجعلني أفكر في هذا الماضي وأتحسر على الأيام التي ذهبت ولن تعود، وذلك في نظري شيء يجيده الكبار، فكل إنسان ترتبط دنياه بذكريات معيّنة عاشها في صباه أو شبابه أو حتى طفولته، ولهذا نراه وكأنه يحاول استعادتها. في حياته المستقبلية على الأقل. ما دام غير قادر على تجسيدها كما كانت.

جدتي امرأة سوداء جاءت من أقصى جنوب السودان، قدمت مع مجموعة من أبناء قريتها الصغيرة لأداء الفريضة مشيًا على الأقدام حتى إذا ما استقر بها المقام باعها أحدهم لجدي يوم كان يباع الإنسان، هكذا يبيع القويُّ الضعيف. لكنها ما لبثت أن تعودت على دارنا بعدما رأت معالم التكريم لشخصها الضعيف. حتى أصبح يهابها الكبير ويحبها الصغير.

في ليالي الصيف عندما كانت المدن تعيش على الفوانيس والأتاريك قبل عهد الكهرباء، في تلك الليالي كان يحلو السمر للأسرة الصغيرة والكبيرة معًا على أسطح المنازل والسماء تمتلئ بالنجوم التي كانت تدخل البهجة إلى قلوبنا نحن الأطفال، لدرجة تجعلنا نمضي في تعدادها، جدتي كانت تحول بيننا وبين أن نقوم بتعداد هذه النجوم خوفًا من أن تمتلئ أجسادنا بالحسنات - أو الزوائد اللحمية التي عرفها الطب بهذا الاسم وعرفناه بعد أن كبرنا.

كنا نضحك ملء قلوبنا من كلامها لكننا خوفًا من غضبها كنا نميل إلى الاستماع لقصصها دون أن نؤمن بأن ما تقوله هو الصحيح.

الأستاذ أحمد سليم أو دكة خالي كان مضرب الأمثال بيننا نحن أطفال زقاق الطوال لكن صيته ووقاره ومنظره العابس والمتزمت كان يحول بيننا وبين أن ننبسط معه، حتى ذلك اليوم الذي قام فيه أشقى أطفال الساحة سعيد سلامة بزيارة صديقنا محمد كما. كان كل يوم جمعة، والأطفال في ذروة لعبهم عندما نادى سعيد سلامة على دكة خالي راجيًا منه قتل العقرب الذي يعيث فسادًا في دهليز بيت أسعد الكبير.

شمر الأستاذ أحمد سليم عن ساعده ودخل الدهليز ليرى العقرب ويقتله فما كان من سعيد إلا أن وضع قفلاً على الباب اختاره لهذه المهمة وترك الرجل ينادي على الأطفال دون جدوى.

عمي كان في طريقه إلى المسجد سمع استغاثة الرجل وأخرجه بعد وقت وهو يرغي ويزبد بينما كان عمي يضحك في كمه.

عندما عاد عمي إلى البيت سألني عن الموضوع فأخبرته بالحكاية، لكنه لم يكتف بذلك وإنما سألني مرة ثانية عما إذا كنت قد اشتركت معهم في هذه الجريمة، لكنني أجبت بالنفي فانفرجت أساريره وقال: تلك لعبة صبيانية شقية لا يمكن أن يفعلها عاقل. أمّنت على قوله وإن كنت لا أزال أذكر غضب الأستاذ أحمد سليم الذي طالعني وجهه وهو يخرج من دهليز بيت أسعد مرغيًا مزبدًا.

الأستاذ أحمد سليم لم يدع الموضوع يمر دون أن يعاقب المشتركين فأخبر والد سعيد بالأمر فنال الطفل من أبيه علقة كبيرة بدت آثارها على يديه التي كنا نراها معلقة إلى عنقه فيزيد ضحكنا وعبثنا معه، يوم تزوج الأستاذ أحمد سليم ابنة جارنا الشيخ إبراهيم كنا نظن بأننا سنفرح ونمرح في ليلة العرس، لكن الأستاذ أحمد سليم حرمنا من هذه النعمة فتزوج في صمت يليق بسنّه التي كبرت.

يقولون إن تسمية الأستاذ أحمد سليم بدكة خالي جاءت من أنه أراد أن يبعد مجموعة من الذين يريدون أداء الفريضة عن دكة شيخ الحرم الذي هو خاله، حاول ذلك فلم يقدر ومنذ ذلك التاريخ التصقت به هذه الكنية.

الحاج حامد التكروني العتيق الذي أمضى طفولته وشبابه وكهولته في بيتنا. اختار له والدي البقاء في بستاننا في قباء ليكون مشرفًا على الزراعة فيه، يأتينا كل يوم وهو يحمل من أطيب ما في البستان من خضروات ولبن وبيض وعلى وجهه ابتسامة تظلل عينيه الواسعتين. جدتي تحب

زوجة هذا الرجل وتمنحها مما لديها من ملابس وأكل وشرب، وتطالبه دائمًا بأن تأتي إلى بيتنا لزيارتها فقد كانت زوجته سندًا لزوجها، وكما يقولن عندما تخرّج حامد ابن هذا الرجل أرسله والدي إلى مدرسة تحضير البعثات يتلقى العلم، ومن ثم إلى مصر ليعود طبيبًا جرّاحًا، فرحت به أمه وفرح به أبوه، وفرحت به الأسرة جميعها.

عندما عاد حامد إلى المدينة أقام له والدي حفل تكريم كبير حضره العديد من زملائه ومن سكان الزقاق العتيق. حامد يتحدث لي عن رحلته مع العلم فأحس بفرحة تبدو على وجهه.

يومها قال لي: نحن الفقراء رأس مالنا في هذه الحياة هذا العلم الذي نتسلح به في هذه الدنيا.

أم حامد وجدتي تحاولان أن تزوجاه لتفرحا به وهو يرفض، عندما كبرت عرفت السبب فلقد ارتبط حامد بفتاة مصرية عاد بها بعد إحدى إجازاته التي كان يقضيها في مصر.

كانت فتاة بيضاء جميلة وأنيقة، سألت يومها جدتي كيف رضيت هذه الفتاة البيضاء بأن تتزوج حامد الأسود، فقالت لي في حزم وهي عابسة: لقد تزوجت هناء من حامد الطيب وليس حامد الأسود. كما تنعته.

أخذت أفكر وأفكر وأتساءل بيني وبين نفسي: لماذا لا ترضى الفتيات في المدينة الزواج من أسود؟! لم أعي الجواب لكنني عندما كبرت عرفت حقًّا جوابًا لهذا التساؤل الذي كان يثير في نفسي أشياء كثيرة ولا يزال.

***



الفصل الثالث

عم سعيد الكاتب مات، ودبت الأرجل في الزقاق الهادئ، يومها عندما كنت عائدًا من المدرسة تناهى إلى سمعي أصوات البكاء من أول الزقاق حتى آخره. سألت عم أحمد السمكري عن الأمر فقال لي وهو يجهش بالبكاء: عم سعيد الكاتب مات.

مات عم سعيد ولم يترك لأسرته شيئًا حتى مبنى كُتّابه في سيدي مالك لم يكن ملكًا له، كانت أسرته مكونة من فتاتين صغيرتين وأمه وزوجته ووالدتها. شعر كل من بالزقاق بواجبه تجاه هذه الأسرة فأقبل على البيت الصغير يشُدّ أَزْرَ الأسرة التي فقدت عائلها.

بعد أيام قال أبي لأمي بعد أن دفع إليها مبلغًا من المال: خذي هذا واذهبي إلى أسرة الفقيد فقد تكون أسرته في حاجة إلى العون، وواجبنا يقضي أن نقدم لها بعض ما نستطيع.

لم يكن أبي هو الوحيد الذي قام بأداء هذا الواجب فقد عادت والدتي وقالت له بأن أكثر من جاء فعل ما فعلت فابتسم وواصل حديثه معي.

في أوائل كل شهر أصبحت أقوم بهذه المهمة بدلاً من أمي، كان أبي يقول لي دائمًا: أسألهن إذا كان ما أقدمه يكفي لهن أم لا.

قمت أنا بدوري بالمهمة على أكمل وجه، وأخذت عيون الفتاتين تلاحقني وأنا أتحدث إلى أمهما. واستمتعت إلى تساؤلهما فيما إذا كان أبي قريب لهن من بعيد، ابتسمت الأم وقالت: قد يكون الشيخ حمزة أقرب لنا من كل الأقرباء لأنه جارنا منذ سنوات كثيرة. عرفت ساعتها معنى الجيرة وحقوقها، وعدت إلى بيتنا، ولا تزال عيون الفتاتين تلاحقني بنظراتهما إليّ أحسست بهما وكأنهما يردنني أن أبقى بعضًا من الوقت معهما.

سهى إحدى بنات سعيد الكاتب كبرت ونضجت وأصبحت (خوجه هانم) تعلم البنات وتثقفهن

وكأنها تواصل مسيرة أبيها الذي مضى ولكن بأسلوب آخر.

بجانب المحكمة الكبرى التي تقع على مقربة من حوش الجمال كان هناك زوجها الذي اقترنت به يقبع على كرسيه وأمامه منضدة من الخشب يكتب عليها دعاوى المتشاكين، كان شاباً أسمر اللون يرتدي جبة سوداء على ثوبه الأبيض الناصع ويتدلى من بين أذنيه قلمه الذي اختار له مكانه بعناية يردد شيئًا مع أحد المتشاكين في صبر أعجبني وأنا أطالع وجهه في طريقي إلى المدرسة الثانوية.

أحد أصدقائي الذي كان يسير بجانبي لاحظ إعجابي بالشاب فقال لي في تهكم: أَوَتريد أن تصبح في مكان هذا الرجل عندما تكبر؟! نظرت إليه وقلت بلا وعي: لا.

ولكنني مع هذا لا أرى في الأمر شيئًا يستحق السخرية فهو يبحث عن لقمة العيش بجد وبالطريقة التي يجيدها، نسيت أن أقول بأن أم الفتاتين أبت أن تستمر في تسلم الإعانة التي كان يبعث لها أبي إليهم قائلة في أدب: لقد أصبح لنا من يعولنا يا بني فلأبيك مني الشكر ومن الله الثواب.

صفة من صفات أبناء الزقاق أذكرها بإعجاب؛ عندما يأتي الشتاء يصبح جو المدينة المنورة قارص البرودة ومع هذا كنا نستمتع بأوقاتنا في هذا الفصل البارد، بقضاء بعضٍ من الوقت عند الحاج أحمد دندرمه الذي يقع دكانه الصغير من دكان لبيع الدندرمه (الآيسكريم) إلى قاعة صغيرة لشرب السحلب، هذا الرجل الذي امتاز بالنظافة ترك المدينة بعد هدم شارع العينية وسافر إلى بلاده وأصبح علمًا بالنهاية في صنع الدندرمه. في مدينة أزمير التي زرتها وزرته عندما كبرت برفقة بعض زملاء الدراسة. إلى جانب الحاج أحمد دندرمه كان هناك فرن للتميز يعمل فيه عدد من البخاريين الذي استوطنوا المدينة. جل أهل طيبة يحبون لإفطارهم أن يكون من (تميز) هذا الرجل الذي تفنن في إعداده.

شارع العينية يعج بالناس وكل واحد من أصحاب هذه الدكاكين التي تقع على ناحيته اختار مهنته بجدارة فهم يشكلون مجموعة من أصحاب الحرف اليدوية التي لا غنى لأي بيت أو أسرة عنها، لكن أهمها الدكانين اللذين يقعان على يمين القادم من المسجد ففي الدكانين المذكورين كانت

تجمع وتحرر وتطبع مواد جريدة المدينة التي كانت تدار باليد ويتناوب على إدارتها عدد من الزملاء أصبحوا بعد حين من الزمن يمسكون بمقاليد العمل في جهاز الدولة.

صدور الجريدة كان من الأيام المشهودة في طيبة الطيبة، امتلأت الدكاكين بكبار الأدباء والأساتذة الذي شاركوا في صدورها.

وابتدأ الباعة ينادون على الجريدة بأصواتهم وامتدت الأيدي الصغيرة لشراء الجريدة، وهي تدفع بالقروش المعدودة في أيديهم، كانت الأغلبية لأبناء المدارس الذي ابتاعوا الجريدة في جمهرة، أحسست بالفرحة وهي تكاد تبرز على وجوههم. لكن الأمر لم يدم طويلاً. فرغم حاجة الشباب لما كان ينشر في هذه الجريدة، لكنها لم تكن تلبي طموحاتهم، ربما لأن ظروف الحياة وظروف المشرفين عليها لم تكن على ذلك المستوى الذي يريده الشباب، أما الكبار فقد كانوا على غير ذلك، كانت تجربة منحتهم الشجاعة للاستمرار والعمل وهذا ما كانوا يرغبون فيه.

توالى صدور الجريدة وتوالى من بعدها صدور مجلة المنهل التي منحت الساحة الأدبية شيئًا كنا في أمس الحاجة إليه. لكن الحياة لم تمضِ على تلك الوتيرة، ابتدأ دبيب الأقدام إلى مصر كنانة الله وأصبح كل من يقضي بضعة أيام فيها بعد سفر طويل يعود ليتحدث عن الذي رآه بالكثير والكثير. ومضت أيام الزقاق على موالها الذي تعرف، بين القلوب الشابة الصغيرة الواصفة وقلوب الكبار الذين استمرأوا الحياة على وتيرتها وعاشوها وعاشوا فيها.

في حلقات الدروس بالمسجد النبوي كان بعض أبناء الزقاق يحلقون حول الشيخ الطيب الأنصاري والسيد عمر والشيخ صالح التونسي والشيخ حسن الشاعر وغيرهم يتلقون العلم على أيديهم بعد أن ينهوا دراساتهم في مدارسهم الصباحية كما كانوا يستمعون إلى قراءة القرآن من الأستاذ أمين قرشي ومعاذ التكروني ومن بعض الحجاج المصريين من الدارسين في الأزهر والوافدين لأداء الحج والعمرة.

وكان مجانين المدينة أكثر من أن يعدوا فهناك عبدالرحمن الطيارة الذي افتتن بالطائرة التي وصلت من القاهرة تحمل أول وفد من بنك مصر وسيدي عاكف وكامل والسيدة عزيزة ومريم التكرونية التي كان يوم وفاتها من الأيام المشهورة فقد وجد في غرفة نومها الصغيرة في خرابة بيت المدني مجموعة من التنك، تنك القاز وقد امتلأت عن آخرها بالنقود بعد أن وزعتها بعناية

ساعدت رجال بيت المال على عدها. فهذه المسكينة التي حرمت نفسها من أطايب الطعام منحت بيت المال مبلغاً لا بأس به من المال.

نماذج كثيرة من البشر عايشتها زمنًا هنا فعاشت داخل أعماقي سنوات طويلة حتى في سنوات الغربة كنت أراها تتجسد أمام ناظري بصورها المختلفة وكأني لا أزال أعيش على تلك الأرض التي احتفت بيوم مولدي يوم جئت في الزمن القديم حين كان الناس يمنحون الخير حُبًّا في الخير، حيث لا أحد يدفعهم لأن يصنعونه، حتى أصبح سكان تلك المدينة صورة يتغنى بها البشر، وإن خَبَت تلك الصورة إلا أنها لا تزال تبرز بين الفينة والفينة في قلوب البعض ونفوسهم بحب، لطالما وقعت الأسواق الشاهقة التي أحاطت بطيبة الطيبة كالسوار، رمقتها وأنا أغدو وأروح من كل باب من أبوابها المختلفة حتى إذا ما شاخت تلك الصور وكبرت وضاعت في زحام التغير أصبحت أحن إلى رؤيتها.

لم أكن أعرف الرسم فحاولت أن أتعلمه لأجسّد معالم الجمال في أرض الجمال الطيبة، صور بريئة أشبه بملابس فتاة قروية أطلت على العالم الجديد وهي غير مبهورة بهذا العالم لكنني أحب تلك الصور وأعتقد أنها تتوارى عندما أجد في طريقي إلى رؤيتها في بيتنا الجديد في سلطانة.

جدتي قضت نحبها بعد أن أمضت سنواتها تبحث عن معالم افتقدتها في دنياها الجديدة، كانت تتحدث عن الماضي بحب وحرية وترمق التطور بشيء من الفضول يشوبه بعض الدهشة لكنه ليس كل الدهشة، فهي تعتقد أن وسائل الحضارة التي اكتسبناها بالتطور قد لا تمنح الإنسان الراحة لكنها لا تمنحه حق التحرك إلا في دائرة ضيقة ترفضها بشدة ولا تستنكرها، كانت ترانا دومًا ورغم مرور الزمن أطفالاً كما عهدت وتخاف علينا خوفها على أطفالها الذين تحبهم، وتستنكر قسوتهم عندما يغيبون عن ناظريها بالسفر للراحة أو حتى العمل أو طلب العلم.

يوم أخذناها في رحلة إلى مصر كرهت الخروج من الفندق فهي ترفض رؤية تلك الفتيات اللواتي يمشين في الطريق على حل شعورهن. كما كانت تقول. إلا أنها كانت ترحب عندما نأخذها إلى أحد مساجد القاهرة، وتجد راحتها في جوار المسجد.

قالت لي يومها إنها تريد أن تشتري نظارة سوداء سألتها عن السبب وأنا أعرف ضعف بصرها فقالت وهي تبتسم: حتى لا أرى ما أراه وأنا في طريق العودة من مسجد الحسين إلى الفندق.

ابتسمت ولبّيت رغبتها ففرحت وكأنها طفلة تجد لعبتها المفضلة في حوزتها أخيرًا.

أيام قليلة قضتها جدتي خارج مدينتها المفضلة ويوم قلت لها: ألا تودين أن تَرَيْ مسقط رأسك في جنوب السودان؟.

ضحكت جدتي وقالت: لا إنما أريد أن أعود إلى مسقط رأسك أنت يا حبيبي الصغير. فطيبة الطيبة بلدي وأرضي ومسقط رأسي ومثواي عندما أموت.

***





الفصل الرابع

أبواب المدينة وأسوارها ضاعت فجأة، فلم يفتقدها أحد من شباب هذه المدينة، أما شيبها فقد كانوا ينظرون إليها باعتبارها الماضي يحيون ذكرياتهم التي لم ينسوها بعد، ومع فقدان أبواب المدينة وسورها أخذت الكهرباء طريقها إلى البيوت القديمة والجديدة معًا. وأصبح من حقّنا نحن الطلبة أن نشعر بالراحة فقد كانت جل ذكرياتنا يوم لم تكن الكهرباء متوفرة إلا في المسجد النبوي الذي يقفل أبوابه بعد انتهاء صلاة العشاء بوقت قصير.

الذين يعرفون مدارس المدينة وقتذاك يتذكرون مدرسة دار الأيتام التي كانت تعلم خريجيها مهنة يستطيعون من خلالها العيش بكرامة.

قبل هدم السور الذي كان الناس عندما يريدون النزهة في بساتين المدينة يستقلون عربات الخيل الخشبية المصنوعة في المدينة. وكانت المناخة تعج ببعض هذه العربات التي صنعت بأسلوب بدائي لكنها كانت تغني الكبار والنساء عن المشي على الأقدام.

تجار المدينة الذين تقع مغازاتهم خارج باب المصري على مقربة من مبنى البلدية القديم يتناولون الغداء يوميًا في أحد البساتين القريبة، يغلقون مغازاتهم ويمضون سويًّا بعد صلاة الظهر إلى العمرانية أو الصافية نسبة لأصحابها أو غيرها من بساتين المدينة القريبة يتناولون الغداء ويمضون أوقاتهم سويًّا ثم يعودون إلى بيوتهم بعد صلاة العشاء.

لا هَمّ لهم في هذه الدنيا، فأولادهم بين المدرسة وحلقات التدريس، وبيوتهم آمنة مطمئنة وزوجاتهم يرقبن عودتهم بتلهف.

أحواش المدينة المتعددة تزهو بسكانها كما يزهو زقاق الطوال بسكانه وإن اختلفت أساليب الزهو بين حوش وآخر، ربما لأن طراز البيوت وإن كان من نوع واحد إلا أن بعض البيوت الكبيرة برواشينها الخشبية أجمل من الأخرى، صنع خشبها صانع ما هو لم يستخدم المسامير في عمله كما يستخدم النجار هذه المسامير اليوم.

لأول مرة يتخرج الطلبة من أول مدرسة ثانوية بالمدينة كان يوم التخرج هو الآخر من الأيام المشهورة وبعد أن كان الطلاب يبتعثون إلى مكة المكرمة إلى مدرسة تحضير البعثات والمعهد العلمي السعودي ومن ثم إلى جامعة الملك سعود بالرياض، وهكذا عرف الطلاب طريقهم إلى الرياض.

وارتفعت أعدادهم وابتدأ التعليم النسوي يأخذ طريقه في كل مدينة بعد أن كان تعليم الفتاة قاصرًا على كتاتيب معدودة تقرئ الطفلة القرآن وتتعلم بعض دروس الفقه والتوحيد وأنشئت أول مدرسة ابتدائية وثانية عسكرية، وأصبح للتعليم العسكري أسسه وقواعده، وامتد العمران في طيبة الطيبة، وبنى الناس بيوتهم خارج السور.

عند باب المصري وعلى دكة صغيرة بجوار قسم الشرطة كان العم إبراهيم الحسيبي يجلس وإلى جواره عدد من أصدقائه فالعم إبراهيم معروف بين أهالي المدينة وزوارها بوجهه الأبيض الأنيق وقامته الفارعة وابتسامته الدائمة. كان الحديث يدور ولأول مرة بينه وبين أصدقائه عن أول صفقة أرض اشتراها أحدهم من خارج المدينة من العم عبدالرحمن، تجاوزت الصفقة المليونين تندر الناس بهذه الصفقة ووصف بعضهم الشاري بأنه مجنون وصمت بعضهم، لكن الدنيا تغيرت، فالعم إبراهيم كان يقول: إن العاقل هو الشاري لا البائع لأنه سيبيعها بأضعاف أضعاف ثمنها. ضحك الذين كانوا يتحلقون حوله يحتسون الشاي الأخضر بالنعناع إلا أنه لم يضحك أحدهم حيث شرد بذهنه وأخذ يفكر في كلام العم إبراهيم الذي قال بأن التطور والتقدم في المدينة وغيرها من مدن المملكة سيجعل أسعار الأراضي في ارتفاع مستمر.

قال أحدهم: ولماذا لا تبدأ في الشراء أنت ما دمت تعرف كل هذه الحقائق. ضحك من كل قلبه وقال: لو كان لدي ما يزيد عن عملي من أموال لما تأخرت.

تقدم الأستاذ مصطفى بعد أن دامت صحبته طويلاً وقال للعم إبراهيم: لديَّ مبلغ من المال ستشتري لي به أرضًا نتقاسم ربحها معًا.

وفي الغد جاء الأستاذ مصطفى بما يحمل من أموال سلمها للعم إبراهيم الذي شمر عن ساعده واستطاع أن يشتري قطعة أرض قريبة من شارع أبي ذر كانوا يسمونها في ذلك الوقت باب التمار ومضت الأيام باع بعدها الأستاذ مصطفى أرضه بأضعاف أضعاف ما اشترى حتى إذا جاء بنصف ما ربح للعم إبراهيم رفض العم إبراهيم أن يأخذ شيئًا من هذا الربح واكتفى بأن

يقيم الأستاذ مصطفى حفل غداء كبير في بستان الربعي حضره كل أصدقاء الطرفين.

أطفال العم أحمد الخياط الذين رباهم كبروا وأصبح بعضهم يملك أكبر دكان لبيع الذهب الذي ارتفعت أسعاره هو الآخر، وودّع العم أحمد الخياط الحياة بعد أن ترك زوجته لدى أطفاله الذين اختاروا سكنهم في قباء في فيلا أنيقة وجديدة.

في المدينة كانت عيناي تتوقف أمام وجوه من الناس وأعني جلالهم وهو يقبعون داخل دكاكينهم فالتصقت صورهم بذاكرتي، فلم أنسها أو أتناساها طوال سنوات حياتي.

كان هناك الشيخ أمين خشيم صاحب دكان العطور بوجهه الأبيض وقامته المديدة يلتف حوله أخوه ومجموعة من أصدقائه.

وكان هناك دكان الشيخ عبدالله بشاوري بائع الحناء الشهير، وكان هناك السيد محمد الصائغ صاحب اليد الذهبية التي تعرف كيف تصوغ الأقراط والأساور وكل ما تحتاجه المرأة، وكان هناك دكان أحمد مقلية فاسوخة السوق، والرجل الذي لا يعرف في هذه الدنيا سوى الابتسام، هكذا كانوا يقولون عنه، أما أبناؤه فيختلفون مع أصحاب السوق في هذه التسمية ويقولون بأن أبيهم لا يعرف في البيت الابتسام.

وفي المدينة كان هناك خان البغدادي المملوء بأنواع البضائع المختلفة وهو أشبه بسوق متكاملة يديره بنفسه ولا يرضى أن يشاركه في البيع والشراء أحد، يوم توفي هذا الرجل بقي أكثر من يومين داخل بيته الصغير لا يدري عنه أحد، حتى إذا ما شعر جيرانه بغيابه أبلغوا الشرطة التي قامت بزيارة بيته لتجده قد فارق الحياة دون أن يكون بجانبه أحد، جميع أسرته كانوا في جدة، لكنهم فور وفاته جاءوا إلى المدينة لتسليم ثروة الرجل التي ضاع أكثرها هنا وهناك.

لم تكن المرأة في طيبة الطيبة على ما هي عليه اليوم؛ فهي وإن كانت أفضل من غيرها لتواجد الكتاتيب ولقدرة أكثر بنات المدينة على التعليم فيها، لكن هذا الأمر لا يعني أنها قادرة على تحريك حياتها بالأسلوب الذي تحرك به المرأة اليوم حياتها، فقد كانت دائمًا وأبدًا تحت جناح أسرتها؛ أبيها وإخوتها وزوجها عندما يقدر لها أن تتزوج.

كانت المرأة في زقاق الطوال سيدة بيتها، فهي تجيد أنواعًا كثيرة من الطبخ، ولهذا كان مطبخ الأسرة في المدينة غنيًّا بأنواع كثيرة من المأكولات التي تجيدها. وهي دائمًا تجوب غرفة بيتها

تؤدي واجبها للأسرة في حب وصمت، وهي بالإضافة إلى إتقانها للطبخ تجيد الحياكة وأشغال الإبرة وصنع الحلويات وتعرف كيف تضيف إلى بيتها لمسات أنثوية عرف بها البيت في المدينة المنورة.

والمرأة في طيبة الطيبة بيضاء ناصعة البياض أو حنطية اللون تحب أن تربي شعرها وتزينه بأسلوبها وزهورها، وهي أيضًا جميلة تقاطيع الوجه والجسد، دائمة الحركة والبسمة على شفتيها دون أي جهد.

يوم سافرت أول بعثة لدراسة الطيران في إنجلترا كان أكثر أعضائها من طلاب المدينة المنورة كما كان الحال في تلك التي سبقتها بأكثر من عشرين عامًا وإن كانت آنذاك إلى إيطاليا.

بعد أن عاد الطيارون السعوديون إلى جدة من إيطاليا أنشأوا أول نادٍ من نوعه، كنا نتغنى نحن الطلاب باسمه فقد اختاروا له اسم نادي (الحمير) لأول مرة!.

وعندما هاجرت جريدة المدينة ومجلة المنهل من طيبة الطيبة إلى جدة قال بعض الأصدقاء: ربما كانت جدة في حاجة إلى هذه المجلة والجريدة أكثر من طيبة الطيبة، وإن كان أكثر سكان طيبة يواصلون قراءة الجريدة بكثير من الشوق بعد أن استقر بها المقام في الثغر الجميل (جدة).

أما أنا فلا أنسى الجريدة بعد ما صدرت وفي صدر عناوينها عنوان لا يزال يشغل فكري فأنا أذكر كيف خرجنا نحن طلاب المدارس نهتف وننادي بسقوط اليهود بتقسيم فلسطين، لم نكن نعي أي أهمية لهذا الذي نقوله لكن لفظ فلسطين ظل يكبر مع الأيام في نفسي ونفوس جل زملائي الذين عرفت، كبرنا وكبرت هذه الكلمة، وعرفنا معناها ومعنى لا نريد تقسيم فلسطين، وبدأت حروف الكلمة تزهو بكل المعاني التي عشقناها.

لم نكن نظن أننا غير قادرين على الوصول إلى هذه الأرض إلا إذا عرفت أقدامنا طريقة الحب، الحب الذي ورثناه نحن أبناء هذا العالم المسلم لكن تشابك القضية واستغلال البعض لها، جعلنا ندرك مع الزمن أننا نشارك في ضياع هذا الجزء من أرضنا، كنا وجدنا نعمل في صمت من أجل أرضنا، من أجل التاريخ الذي أحببناه، لكن هذا الأمر لم يعطنا الفرصة لأن نصل إلى ما نريد، وتشابكت مصالح الدول في زحزحة بعض المعاني الجميلة التي عشقناها، وسارت أيامنا مع الغضب الذي لا يجدي، حتى إذا ما عاود العقل طريقه في صمت انبرت له أصوات الذي أفادوا من رفع هذا الشعار ورأوا في استمراره وبقائه بقائهم ووجودهم.

أيام تمضي وأيام تجيء، وعالمنا يكبر عالم طيبة الطيبة يكبر ويكبر، والمدينة هي الأخرى تكبر ونفوسنا وعقولنا هي الأخرى تكبر، والزمن لا يمكن أن يتوقف ما دامت عقارب الساعة تمضي في طريقها كالمعتاد، تلك هي سُنة الحياة على هذه الأرض التي أدركت نصيبها من الجهاد والكفاح من أجل المثل العليا التي يؤمن بها اليوم أكثر من ألف ومائتي مليون مسلم يعيشون في أرجاء هذه الدنيا الواسعة الشاسعة الأرجاء لكن الأنظار تظل دائمًا ترنو نحو هذه الأرض نحو أول عاصمة إسلامية في التاريخ. منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا مضت يوم لم يكن الإسلام قد شاع وذاع، وعرف معانيه السامية الناس في كل أرض وتحت كل سماء.

***

الفصل الخامس

في بيتنا فرح، عمرت أضواء الزقاق وامتدت آثاره حتى الساحة، ابنة عمي ستزف إلى عريسها السيد محمد الذي كان يتطلع إلى هذا الزقاق منذ فترة. أبو العريس وأبي صديقان وعمي لا يمكن أن يخيب رجاء أخيه فعندما خطب والد السيد محمد البنت خطبها من أبي فأجابه لرغبته ولم يحرك عمّي ساكنًا حيال هذا الأمر.

لأول مرة أشاهد عقد القران في المدينة. امتلأ الزقاق بروّاده وامتلأت قاعة بيتنا وديوانه بالرجال الذين جاءوا من كل مكان في المدينة.

عندما جاء العريس جاء معه المنشد الذي أخذ يطلق صوته بالغناء إشادة بعائلة العروس والعريس حتى إذا ما استقر المقام بأهل العريس انبرى أحدهم يقرأ في ورقة طويلة كلمة الخطبة التي شعرت بأنني أفهم كل كلمة فيها، حتى إذا ما انتهى قام أبي يرد على الخطيب في كلمات قليلة، شعرت بعدها بأن أبي خطيبٌ لا أدري عنه شيئًا شعرت بحبي يزداد لهذا الرجل، ونظرت إلى وجهه لألتقي بعينه التي كانت تبحث عني، وكأنها تأمل أن ترى زفافي.

شعرت ساعتها بأن أبي يتمنى أن يرى اليوم الذي يعقد فيه قراني على من يختارها هو لا التي أختارها أنا، أليس هو كبير العائلة؟!

سألت نفسي فيما إذا كنت سأرفض اختيار أبي أم أنني سأقبل؟ وأجبت على هذا السؤال بهزة رأس وكأنني أود أن لا أعطي الجواب الصريح. ففي أعماقي أرى الرفض يطفو ويطفو، لكني أحسست بشيء من الخوف يتسلل إلى قلبي بعدما وصلت إلى التفكير، أيمكن أن أرفض لهذا الأب طلبًا.

وفي المدينة المنورة كبير العائلة كلامه نافذ لا يمكن أن يرفضه أحد، هكذا نشأت الأسرة في طيبة وهكذا ظلت، حتى أخذ التعليم ينتشر وبدأ التململ يبدو واضحًا على وجوه أولئك الذي تعلموا وظنوا أن في هذا ظلم فادح لهم.

عندما عاد هاشم من دراسته في القاهرة بزوجته المصرية، حدث له ولزوجته الكثير من المشكلات، لكنه صمم على رأيه واختار لسكناه بيتًا قرب بيت الأسرة حتى قام أبي بمصالحة بينه وبين والده، استغربت أن يقوم أبي بهذه المصالحة لكنني فرحت لأنها دليل على أن أبي ليس كأولئك الآباء الذين تحجرت عقولهم وقلوبهم.

سمعت أبي يتحدث إلى أمي ويقول لها: لقد تغير الزمن وأصبح من حقه علينا أن نتغير نحن الآخرين. كان حديثه هذا وهو يشرح لها ما حصل وكأنه شيئًا جديدًا مما يضيف إلى قلبي الكثير من الاطمئنان.

تلك هي المرة الأولى التي رأيت فيها أبي يفضي برأي إلى أمي، وكان في السابق لا يأخذ رأي أحد. بل يبرم كل ما يراه، حتى أمي كانت تستمع لحديثه وهي مستغربة.

عندما جاء عمي الأصغر يطلب منه أن يسكن في المناخة بمفرده، تحدث إليه بحب وقال له: لا، لكنها لم تكن لا التي أعرفها عن أبي دائمًا. أفهم عمي بأنه لا يريد أن يخرج من البيت إلا بعد وفاته. فوافق عمي على البقاء.

عانق أبي أخاه ورأيت عمي يبكي فلم أفهم السبب، لكنني بعد ذلك اليوم أصبح عمي يمارس حياته مع زوجته وأبنائه بأسلوبه، وأبي راض لا ينطق بكلمة، ينظر إلى الأمر وكأنه لا يعنيه.

كانت المرأة في بيتنا عندما ترغب في الذهاب إلى بيت أبويها تستأذن أبي باعتباره الأكبر، زوجة عمي غيّرت الوضع وأصبحت تخرج بإذن عمي هذه المرة وأبي صامت وراضٍ أيضًا.

يهمه فقط أن يبقى أخوه معه في كنفه كبقية الإخوة فالبيت كبير، وهو قادر على أداء نفقات هذا البيت كما كان أبوه يفعل.

تقاليد توارثها الأبناء عن الآباء فيها الطيب وفيها الرديء. لكن وللحقيقة والتاريخ أكثرها طيب.

أبي يحب الموسيقى ويستمع إليها من فوتوغراف قديم، ويوم دخل الراديو بيتنا كان يوم عيد تجمع أصحاب أبي في الديوان الكبير ليلاً ليستمعوا إلى إذاعة الحلفاء والمحور، بعضهم مع الحلفاء وبعضهم مع المحور، والحلفاء في نظرهم هم الإنجليز، العم شفيق زوج عمتي مع الحلفاء، ويوم كسب الحلفاء الحرب أقام حفلاً كبيرًا في بستان الربعي في قباء. في زمن الحرب العالمية الثانية كان كل شيء متوفر في المدينة لكن الشيء الجديد هذا السكر الأحمر الذي كان يرفض

شراءه الكثيرون، هكذا قالت لي جدتي عن تلك الفترة، وجدتي تكره الإنجليز والألمان وكل هؤلاء الذين لم يُسلِموا.

ونحمد الله على أن جميع سكان بلادنا من المسلمين وهي تعرف عبدالله فيلبي رأته بعد أن أسلم وتعرف أيضًا رجلاً آخر قالت إن اسمه هند ربول وهي تشك في حقيقة إسلامهما ولكنها ترفض أن لا تقبلهما كمسلمين فلها الظاهر، هكذا عرفت الأمر، ثم قالت: تلك نصيحتي لك يا بني، فلنا كما يقولون الظاهر، فنحن بشر لا يمكن لنا أن نتغلغل في قلوب الناس.

عندما كبرنا تذكرنا كم كان أهل المدينة يتحدثون عن قدرة الشيخ سعود دشيشة على مجابهة الأمور ومساعدة الناس، والتوفيق بينهم رغم أن الرجل كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه أصبح يمثل طيبة الطيبة في مجلس الشورى الذي أقامه الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله.

قال بعض الأصدقاء قد تكون ميزة الرجل أو أهم مزاياه أنه أُميٌّ.

نظرت إليهم وتساءلت: أو يمكن أن تكون الأمية ميزة في عصرنا الحاضر؟!

ضحك أحدهم وقال: لو تعلم لوزن الأمور بميزان بعض المثقفين الذين يجرون وراء مصالحهم ولانزوى الرجل بعيدًا عن كل محبيه ومريديه.

ضحكت واستغربت هذا القول فقال صديقي إبراهيم: أو لم تقرأ كتاب (أفيون المثقفين) المترجم عن الفرنسية، قلت: نعم ولكن ذاك شأن وهذا شأن آخر.

قال: لا عندما يتعلم الإنسان ينظر المتعلم إلى الأمور بميزان دقيق يتوخى فيه مصلحته فيداهم قلبه الخوف من الخوض في أي من أمور لا تتفق ومصلحته.

سكتُّ على مضض وانتظرت أن يأتي اليوم الذي أستطيع أن أفهم معنى ما يقال، وقد فهمت بعد قراءة متأنية للكتاب مرات ومرات جل ما كان يقصده هؤلاء الأصدقاء.

أبي يحتسي أقداح الشاي ويلقي بتعليماته إلى أمي فالليلة ليلة جمعة وكوكب الشرق أم كلثوم تغني كل أول شهر أكثر من أغنيتين طويلتين يعيش على سماعها ألوف الناس في طيبة وغيرها من مدن المملكة بعد أن انتشر جهاز الراديو وأصبح السماع إلى الموسيقى أمرًا مسموحًا.

عشرات الأصدقاء تؤم بيتنا الليلة يتناولون طعام العشاء الذي يقدم قبل بداية الحفلة والذي تجيد أمي وجدتي وباقي أفراد العائلة طهيه لدرجة أصبح يتندر به أصدقاء والدي ويطلبونه بلا أدنى خجل حتى أصبحت أمي تعايش المطبخ لا عن رغبة وإنما إرضاء لوالدي الذي تحبه، أولا

يكفيه أنهم يطلبون طعامه ويصرون عليه، وهذا ما كان يدخل السعادة على قلبها وقلبه، لأول مرة أدعو أنا الآخر عددًا من زملائي لتناول طعام العشاء مع ضيوف أبي، ولأول مرة نتناول نحن الصغار طعامنا مع موائد الكبار، شعرنا ليلتها أننا كبرنا فكنا نتيه ونفخر ونحلم برؤية كوكب الشرق عندما يقدر لنا زيارة مصر في يوم من الأيام. فأحلامنا التي كانت تسبق خيالنا كانت نسيجًا جديدًا لا ندري كنهه، لكنه على أية حال كان نتيجة ما قرأناه وسمعناه عن هذا العالم الذي بدا لنا ونحن في طيبة الطيبة عالمًا جديدًا.

بيتنا يزخر بالمعرفة التي نشتاق للقائها في حب، ذاك شأننا ونحن لم نبلغ الحلم. وكأننا نعايش كل هذا الخيال الذي نريد له أن يتجسد أمام ناظرينا طفولتنا رائعة، فأكمامنا التي تفتحت على روابي قباء والعوالي وقربان والقبلتين كانت ولم تزل أصيلة تعرف كيف تمنح الحب في أرض الطهر بلا زيف ولا خنوع، وكأننا قد تعاهدنا على أن نقيم حول أنفسنا سياجًا من الجمال صنعته الأيام التي قضيناها في كل تلك الربوع نأخذ من الحياة نصيبها الوافر، في دنيا تعشق القيم والمثل والتراث، يقولون إن الإنسان هو الذي يزرع الخير وهو الذي يزرع الشر وأنه وحده القادر على إشاعة الحب متى أراد وكيفما أراد.

بين زوايا الأمس نجد صورة الماضي تطل في أصالتها، وكأنها تنطلق من وراء الأزهار التي تطل بحسنها على أديم الأرض التي عرفت قباها وتكحلت أعيننا بمرآها ونحن صغار ونحن نكبر، لا شيء يثير في النفس إحساسات الملل والقرف.

ربما لأننا من نسيج لم تطغ المدنيّة على أصوله وجذوره وحتى فروعه حتى إذا ما فقدت ريحه وذهب صداه ونحن نحبو حول الأرض في رحلة العلم الصغيرة بدا لنا الماضي شيئًا جميلاً لا يمكن لنا أن نختار برغباتنا بديلاً عنه.

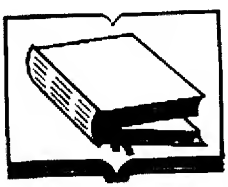
لكن العالم من حولنا يطالبنا بأن نتغير فهل تغيرت كل تلك الأصول والفروع أم أن جذوة الحب التي تعشش في أعماق القلب لا تزال تظلنا بظلها الوارف الكبير؟!.

وكما للحياة بدايات صغيرة تكون لها أيضًا تلك النهاية التي نريدها أو حتى التي لا نريدها، فالحياة بظروفها وواقعها وجمالها وروائها، وحلوها ومرها لا يمكن أن تظل على حالها التي نريد.

في مجتمع زقاق الطوال كان الحب وظل الحب يرفرف على سكانه، ربما لأننا لم نمتلك بعد تلك القوة الرهيبة التي توصلنا بمجتمعات أخرى وربما لأن الحياة في ذلك العهد لا تتحمل أن تكون على نحو ما هي عليه الآن، ولكن.. ما هو الجديد الذي أحببناه وما هو الجديد الذي نرفضه.

فالتطور سُنة الحياة وناموسها، وبدون هذا التطور لا يمكن لنا أن نسير. وكما يقولون كما تدخل الشمس إلى البيوت الهانئة تدخل العاصفة في بعض الأحيان، وشتان ما بين الشمس والعاصفة.

***





الفصل السادس

لا تظنوا بي الظنون وتعتقدوا أنني مع القديم الذي بلى أو حتى مع الجديد الذي بدا، لا.. أقولها كلمة حق صريحة، فحياة الإنسان لا يمكن أن يعيش فيها على وتيرة واحدة. ولهذا جاء التطور لا ليجرف القديم وإنما ليجدد بعضً من مظاهره ويمنح بعضه الآخر مزيدًا من القوة والقدرة على الانطلاق، القديم الجيد يمنح الجديد الطيب قوة نراها تبدو على ملامح أرضنا بصورة واقعية، لكننا ونحن نسير بخطى ثابتة نحو هذا التطور نجد أنفسنا أحيانًا نتلفت قليلاً إلى الوراء نبحث عن الماضي لنستدرك جماله وقوته ونستفيد من كل قيمه التي توارثناها، وطيبة الطيبة نموذج جيد لهذا التطور الذي نلمس آثاره في كل زوايا هذه الأرض الطيبة.

في هذا الجو الذي أخذ يخيم على سماء هذه الأرض بدت مظاهر الحياة الجديدة تأخذ طريقها لأهدافها على أمل أن تصل إلى كل ما ترجو وتريد.

ولكن أَوَيكفي أن أكتب كل هذا الذي كتبت؟، بعضهم عندما يتحدث عن الطيب بأسلوبه يجد علامات استفهام تبدو أمام ناظريه وهي تستوي على أشدها أَوَلَم يكن بعض سكان الزقاق أشرارًا؟!

سؤال أثرته بيني وبين نفسي، لكني ورغم كل الذي بحثت فيه وعنه ونقبت لم أجد ذلك النموذج الذي يمكن أن يقال بأنه شر كله، ولهذا خلت كلماتي عن تلك الصور، لولا عودة إلى النفس حاولت أن أغلف كل ذلك بأسلوبي بعيدًا عن تصورات الحاضر. فالشر في ذلك الزمان القديم يقف على قدم المساواة مع كل أولئك الرافضين لعمل الخير وإن كانوا لا يعرفون الشر لأبناء بلدتهم. وفجأة طفت على السطح صورة ذلك الإنسان الذي عرفت، ربما لأن صور الشر كانت مغموسة بصور أخرى ولهذا تغلفت بعيدًا عن أن تراها العين وإن سمعت بها الآذان.

عندما أتذكر السيد محمد علي السمكري وما يحاط بهذا الرجل من شوائب، أجتهد رغم صغر سني أن أطالع صفحة وجهه في تمعن لكنني لا أجد في هذا الرجل أية صورة من صور الشر التي

أسمعها عنه، ربما لأني أراه وهو يهب من دكانه الصغير لمساندة عجوز عمياء ضلت طريقها ليدلها على الطريق، أو مساعدة فقير بما يملك من نقود حتى وهو ينطلق داخل الزقاق وخارجه لا تبدو على وجهه علائم هذا الذي يقولون عنه.

عندما سألت أبي عن ذلك قال لي: لا تحكم بما يقوله الناس، يا بُنيّ الشر في قلوبنا جميعًا لكنه يتباين بأشكال بين إنسان وإنسان، وهذا الرجل في رأيي مظلوم، لقد التصقت به أشياء كان يمارسها عندما كان صغيرًا، فلما كبر وعرف أنها مؤذية نسيها وإن لم ينسها الناس له؛ ربما لأن الإنسان في مجتمعنا الصغير كصحن الصيني لا يمكن أن تلتئم كسوره عندما يسقط على الرصيف.

تعلمت من كلمات أبي أشياء خالطت نفسي ثم نسيتها بعد أن غدت بي أقدامي في طريق الحياة التي يحبها الناس، وأكذب إذا لم أقل بأنني أنا الآخر أحبها أيضًا.

على مقربة من باب الرحمة كانت هناك أكثر من مكتبة يتعدد كتب بعضها ويزيد أو ينقص، لكننا كنا نُجمِع دائمًا على أن أقرب المكتبات إلى قلوبنا مكتبة الأستاذ عبدالحميد عنبر؛ ففي هذه المكتبة قرأت الكثير من الكتب وانتظمنا في حلقات لدراسة اللغة الإنجليزية، التي كنا بدأنا نتعلم كلماتها في مدرستنا الابتدائية على يد الأستاذ منشي كرامة.

يختلف معدن الأستاذ العنبر عن الأستاذ منشي؛ ففي الوقت الذي كنا نضحك على نطق الثاني كنا نعجب بأسلوب الأول لا لأنه قادر على امتلاك ناصية اللغة الإنجليزية، فلم يكن لنا القدرة على التعرف على هذا الأمر، وإنما لأن أسلوب الرجل كان يجعلنا نحب هذه اللغة.

عندما سألته: أين تعلمتها؟

قال: ماذا؟ قلت: الإنجليزية؟!

قال: في الهند. ونظر إليّ نظرة من يستهين بما تعلم. وتابع القول: لا تظن أنني أفضل من هؤلاء الآخرين. فلو وجد الآخرون مثلي الفرصة لتعلموا ما تعلمت، أَوَتدري أن أكثر رجالات السوق يجيدون أكثر من لغة؟. قلت: كيف؟!

قال: الأوردية والإندونيسية والسواحلية والتركية والفارسية جميعها لغات اكتسبها أهل السوق بالممارسة، وبرع بعضهم في فهم معانيها كما فعل الأستاذ الشاعر عبدالرحمن رفه الذي أجاد الفارسية إجادة تامة مكّنته من ترجمة أشعار الخيام.

هزني حديث الرجل وتواضعه، وأصبحت أحس بأنه أقرب إلى نفسي من بعض أساتذتي وإن لم يعن ذلك الذي كنا نجمع نحن الطلبة على حبه، وأعني به الأستاذ أحمد بوشناق، كان هذا الرجل نسيجًا مغايرًا لكل من عرفنا، ربما لأنه جاء منذ فترة قصيرة بعد أن أكمل دراسته في القاهرة. وربما لأنه عرف كيف يصل إلى عقول طلابه من خلال إلمامه وفهمه برسالة التعليم التي عشقها وأحبها من كل قلبه.

أمور كثيرة أخذت تبدو لناظري بعد أن شببت عن الطوق، أحسست أن الزقاق ومن في الزقاق وإن كنت أميل لهم لكنهم لا يمثلون طموحاتي بعد أن عرفت أقدامي طريق المعرفة عن قراءة متأنية لبواطن الكتب التي أحببتها.

نسيت أن أقول بأن جدي لأمي واحد من كبار العلماء الذين ساهموا في حلقات الدرس في مسجد رسول الله ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ مات الرجل وترك كمًّا هائلاً من الكتب بقي زمانًا طويلاً في إحدى الغرف حتى شاء الله لي أن أعرف طريق القراءة فمسحت عن أكثره التراب وحملته إلى غرفتي لتمتلئ الرفوف بمجموعة نادرة المنال في أيامنا هذه.

لم تكن حياتنا خالية من الهوايات فالفروسية والسباحة والتزمير والكبت ومصارعة الأيدي وكرة القدم الشراب كنا نمارسها في هدوء بعيدًا عن الطرقات في بساتين الأسرة.

ذاك قدرنا عندما كنا صغارًا نعايش الأمل ونرقب التفتح ونبحث عن النضج في أسلوب ممارستنا للحياة في مجتمعنا الذي بدأت تتسلل إليه أساليب جديدة كسبناها بالسفر والترحال.

ولكم أحسست بالإحباط وأنا أتخطى الثانية عشرة من العمر لأجد بيوت الزقاق والأهل والرفاق مقفولة أمام تحركاتنا، فتيات الأسرة الصغار وأخوات الأصدقاء ممن عرفت أصبحن يهربن من أمام وجهي عندما أزور بيوتهن.

عندما سألت إحداهن السبب قالت: لم تكبر أنت وحدك وإنما كبرنا نحن وأصبح من الواجب علينا أن نختفي عن عيون الشباب، وضحكت.

قلت لها: ولكننا لم نصل بعد إلى سن الزواج والقدرة على اختيار الرفيقة، قالت وهي تضحك: ربما لأنهم يريدون أن يزوجوك برغبتهم دون أن ترى رفيقة دربك أو تعرفها وابتسمت في أعماقي وعرفت أنها تحاول أن تسخر بإجابتها من سؤالي وتدرك بأنني أعرف أسباب هذا الأمر وأحاول أن أتجاهله.

منذ ذلك اليوم بدأت أفكر في سهى، لا أدري إن كنت أفتقدها أم أتمنى رفضها، حاولت أن أتعرف على ما يريده هذا الخافق، لدرجة جعلني كثيرًا أفكر فيها وأنا أراجع دروسي وبدأت أدبج

رسائل لا أبعث بها لمن أحب، أكتبها وأقرأها ولا أمزقها وإنما احتفظ بها بين كتبي.

حتى ذلك اليوم الذي وجدت فيه أختي تطالعني بابتسامتها وهي تقول كشفت سرك، وضعت يدي على فمها وطلبت منها أن تصمت لكنها لم تصمت وقالت: أعرف أنك لا تريد أن يعرف بهذا السر أحد، لكن الظروف جعلتني أقرأ رسالتك التي نسيتها في المنضدة، وثق تمامًا بأن أحدًا لم يدرِ بما قرأت.

شكرتها من كل قلبي وطلبت منها وأنا أؤكد عليها كل ما قلته مرة ثانية، أرجوك يا ناجية دعي ما قرأت بيني وبينك.

هزت رأسها بالإيجاب وخرجت من الغرفة لا تلوي على شيء وبدأت أمعن النظر في كلامها وكلامي، وأجد في كلماتها حروفًا مضيئة تنير طريقي أليست هي أختي.

وفجأة وأنا أفكر في هذا الأمر طرأت لي فكرة، ترى ماذا سيجري لو قالت أختي لسهى عن هذا الذي قرأت، أَوَلَيست صديقتها هي الأخرى. بدأت صلة جديدة تضاف إلى صِلاتي فأختي ناجية التي أحسست أنها جادّة في عدم الإفشاء بسري، أصبحنا نتحدث كثيرًا عن سهى وأتعرف عن طريقها أخبارها وماذا تصنع، عرفت أنها نجحت في دراستها الابتدائية وانتقلت إلى مدرسة جديدة تواصل من خلالها تحصيلها العلمي، سررت للخطوة التي اتخذتها سهى، فقط كنت أود في قرارة نفسي أن تواصل رحلتها التعليمية.

وتمضي رحلة الحياة بين شد وجَزْرْ فأبي الذي أحبه أصبح ينظر إليّ على أن أكون بجانبه بعد أن أُنهي دراستي الثانوية، وأنا لا أدري ماذا أفعل وقد عقدت العزم على إنهاء تعليمي الجامعي، كنت أتطلع لأن أصبح علمًا من أعلام الطب الذين قرأت عنهم في كتب التاريخ.

ربما لأن إحساسي بمعاني أن أصبح طبيبًا في مدينة كمدينتي رأيت فيها كيف يحترم الناس الطبيب ويحبونه جعلني أصمم على رأيي وأمضي في عزمي ويومها قالت لي أختي: أتدري من تزورنا اليوم؟ قلت لها: من؟!

قالت: سهى، جاءت وهي تصر على أن تتحدث معك.

قلت: كيف؟.

قالت: ستغادر أمّنا البيت وستظل هي برفقتي وقتًا تستطيع أن تتحدث فيه إليك.

وأطرقت برأسي إلى الأرض قليلاً وخيال سهى يملأ ناظريّ، بينما ذهبت أختي من عندي وهي تضحك.

مرت الدقائق كالساعات وأخيرًا قدر لأمي أن تغادر البيت فجاءتني أختي قائلة: إنها خلف بابك تنتظر أن نبدأ الحديث، قلت: وما يخيفها أن تدخل.

قالت: لا ترضى بأن تفعل أمرًا يرفضه أبوها. ولهذا فستكتفي بأن تسمع صوتك.

طال صمتي فجاء صوتها هامسًا كنسيم الفجر ساطعًا كنور الشمس يتسلل إلى أذني.

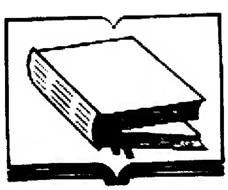
قالت: وددت أن أرجوك بأن لا تضعف فأنا... وأحسست بأنها تحاول أن تسترجع كلماتها التي باحت بها.

قالت مستدركة: مدينتك في حاجة لك كطبيب فلا تضعف وامض لما قررت. فقد عرفت في البيت بكل الذي دار بينك وبين أبيك.

قلت: وأنت، هل تنتظرينني؟.

قالت: سأنتظر إذا قدّر لي ذلك ومضت لا تلوي على شيء، أما أنا فقد أخذت أسترجع ذكريات طفولتي وجل أحاديثي مع أختي عنها، وبدأت أغرق في حديث طويل مع نفسي هذه المرة. لكن حديثي هذا لم يكن عن سفري إلى مصر لدراسة الطب وإنما عنها، عن سهى هذه الطفلة الحلوة التي أخفوا وجهها عني بعد كل هذه السنوات الطويلة لماذا؟! لا أدري.

***





الفصل السابع

ضمن الظروف التي يعايشها أمثالي تبدو في الأفق معالم صمت كبيرة أحس بها وهي تزلزل كياني وهي تمنح الأجوبة التي تثار حول المجتمع والتي تزيد كثيرًا من علامات الاستفهام التي تتوارى كحالة من التأرجح بين الذات وما يريده الآخرون منها.

وأنا أعايش قلقي بسهولة رغم أنه قلق محزن يملأ نفسي باستفسارات عدة أكاد أحاول أن أجد لها الجواب ضمن إطار المعرفة التي توصلت إليها، تلك المعرفة التي هي رغم حقائقها الواقعة تظل تواصل مسيرتها في شرايين العمر الدقيقة كموصل كهربائي عرف طريقه في هذه الحياة ببساطة.

يقولون إن المجتمعات تغير جلودها دائمًا بين الفينة والفينة ضمن تجارب اختارها إنسان هذه الحياة والظروف أيضًا، لكن فلسفة التغير هذا لا تأتي فجأة، دائمًا تدفع بها قدرة إنسان هذه الأرض على التخطيط والمحاكاة والبذل والعطاء.

في ظل هذه الظروف بدأت أفكر في سهى وأنا مشفق عليها من التجربة، ستقولون إنني نسيت هذه الفتاة وأقول: أبدًا بل كانت دائمًا وأبدًا في خيالي ووجداني، ولقد كنت أحدث نفسي دائمًا وأقول لها: أَوَتَستطيع هذه الصغيرة أن تقف بالمرصاد لكل المؤثرات التي تبدو وتظهر في طريقها، وهل ستظل صامدة قادرة على الانكفاء حول أفكار أوحت بها إلي عن بُعد؟.

لا أدري وإن كنت أثق في قدرة الإنسان على اجتياز ما يريده وما لا يريده إذا عرف كيف ينقي الأشواك من طريقه.

سنوات العلم التي تبعدني عنها ستصبح بلا شك طويلة مضنية خصوصًا عندما نعاود الاتصال بأوضاع الحياة التي يمارسها مجتمعنا على الفتيات. فالفتاة في بلدي - في تلك الآونة بالذات - لا يمكن لها أن تقف أمام ظروف أسرتها، وما تريده هذه الأسرة وتدخلاتها في أهم شؤون حياتها، ربما لأننا جُبِلنا على أن نقتنع بكل ما يريده الآخرون لنا، وربما لأن هؤلاء الآخرين

يعرفون أفضل مما نعرف من حيث ما يصلح لنا، لكننا مع كل هذا الجديد الذي يتسرب إلى أعماق أعماقنا تبدو تكل الطاقة القديمة وقد سدّت بعض أجزائها برقّة. لهذا أجدني وقد امتلأت نفسي خوفًا بعد أن استقر بي المقام في مدينة القاهرة الكبيرة التي سرعان ما أحببتها بعد أن عرفت أقدامي طريقها فيها، كل هذه المعرفة يصاحبها في بعض الأحيان إحباط يملأ النفس مرارة وألمًا لبعض ما أقرأ على صفحات الصحف أو حتى بين الكتب التي أُولِيها كثيرًا من الحرص على اقتنائها رغم بعدها عن نوع الدراسة التي انتقيتها لنفسي.

قد تقولون بأن الفارق كبير بين مجتمع طيبة ومجتمع القاهرة، وأنا بدوري أوافقكم على هذا الرأي. وأمل في الوقت نفسه أن تتاح الفرصة لسهى لأن تجد طريقها إلى العلم كما وجدته فتاة القاهرة حتى إذا ما تحقق ذلك بعد عودتي الطويلة إلى طيبة وجدت الفتاة التي تعيش على أرض بلدي قادرة على التمتع بهذا العلم ودون أي تبجح، وذلك في نظري صفة عظيمة أوليتها بعضًا من الدراسة فترة من الوقت، لكن الأقدار التي شاءت أن تربط ذكرياتي بذكريات سهى وقفت سدًّا منيعًا في أن أصل إلى غايتي وغايتها وإلى ما نريد. فلقد تزوجت سهى وانقطعت صلتي بها، تزوجت من ابن عمها، وأصبحت بالنسبة لي مجرد طيف كبير يراودني في أحلامي ويعطيني بعضًا من النصح والإرشاد، ويدفعني لأن أمنح نفسي مزيدًا من التأمل في تصاريف هذا المجتمع الذي أحب حتى إذا ما اتخذت طريقتي في الحياة تناسيت الأمر، لكنني في الوقت نفسه لم أنسَ مجتمعي الذي عرفت.

قد تتشابه وجوه النساء رغم بُعد مساقط رؤوسهن آلاف الأميال عن بعض، ويظهرن وكأنهن قد جئن من رحم واحد، وأب واحد، لكنهن رغم كل هذا التشابه الواضح تبدو الفوارق أضخم من أن تعد، في الكلام والإيماء والفكرة والابتسامة، تلك هي حقيقة الحياة نجيد تذوقها وهضمها حينًا، ونفقد طعمها الرائق حينًا آخر.

في القاهرة لم تضل أقدامي الطريق لأنني كنت أنظر إلى الحياة من جانبها الطيب فأنأى بنفسي عن أن تمسك بيدي تلابيب الشر، رغم مغريات الحياة وما يجري على بعض أرضها، ولقد انطوت نفسي على أماني جمة كنت إخالها بعيدة عنى، لكنني عندما تعرفت على بعض من تعرفت عرفت أن الإنسان هو الذي يمكن أن يصنع نفسه ويحقق أمانيه وآماله، وهو قادر على صنع أحلامه بكفاءة، على مدارج الدرس، التقت قلوبنا على الأمل الذي أخذ يتطاول في عقولنا كشجرة

لبلاب ضخمة من تلك الأشجار التي تطل على ضفاف نهر النيل الكبير.

كنت أظن أنني سأضيق كثيرًا بنوعية الحياة في مجتمعي الجديد، لكن طول العِشرة نفضت عن نفسي شوائب الإحساس بالحرج وأصبحت الألفة طريقنا الجديد نحو حياتنا الجديدة.

في قاعة بورت بالجامعة الأمريكية التي أخذت أعتاد زيارتها لاكتساب مزيد من الثقافة ووضوح الرؤيا عرفتها، فقد كان اسمها هي الأخرى سهى وإن اختلف المظهر ومكان الولادة فهذه الإسكندرانية الرائعة التي جاءت من سِيدي بِشر على بساط الريح جعلتني أحس بشيء من الوله تجاه وجهها الذي هو صورة من وجه تلك التي تزوَّجَت.

فقد تكون سهى الجديدة أقدر على مقارعتي الحجج والحديث من تلك التي مضت، لكن صوتها يحملني إلى آفاق بعيدة أحس خلالها بجمال روابي قبا والعوالي وقربان وشاطئ سيدي بشر والأنفوشي وسيدي جابر.

مزيج من الجمال والحرية يتلاقيان معًا في حديث هادئ وصريح.

وكانت كل هذه الأحاديث تعود إلى زقاق الطوال وسكان هذا الزقاق الذي تعدى دوره ولم يصبح في ذمة التاريخ.

في القاهرة، كان لي لقاء مع أولئك الذي جاءوا من كل مكان من أرض بلادي في رحلة العلم يعودون بعدها كل واحد منهم لموقعه.

الناس في القاهرة يملأون الشوارع يسدّون الطرقات بمناكبهم يتحركون في شيء من العصبية المحببة. ربما لأن حياتهم وحياة مجتمعهم لا تمنحهم القدرة على الراحة بين ضجيج المدينة التي أخذت تضرب على أجساد النساء بحرية، ومع هذا يجد المرء من المتناقضات ما لا يستطيع أن يدرك كنهه.

فلقد حاول الغرب أن يضرب بجناحيه بقسوة على معاصم النساء اللواتي أصبح لا هم لهن إلا الجري وراء الموضة، أما الأخريات فقد عشن حياتهن في القرية، فلا تزال ظروف ملابسهن تتميز بالبساطة والسواد أيضًا، فعلى الرغم من أن الشعب المصري شعب يحب الحياة والتنكيت على الحياة. إلا أنه مرتبط بإحساسه وشعوره بالحزن الذي تبدو معالمه على أكثر ملابس أهل الريف.

يقولون إن من الأسباب التي جعلت المرأة في الريف متمسكة بهذا اللون قضية الثأر التي أفسدت في بعض من الزمن حياة الكثيرين من سكان القرى، ثم جاء التعليم ليفرغ من عقول

الكثيرين معالم هذه النظرية، لكنها مع ذلك تظل بين مد وجَزْرٍ، وكأنها تحاول في كثير من الأحيان إخراج لسانها لما يمنحه العلم للإنسان من معرفة.

تلك الأيام التي خلت كنت خلالها أعيش الحياة عن كثب حتى إذا ما اصطدمت تقاليد الزقاق بتقاليد القاهرة تغلّب الجديد على القديم وأضحت أيامي مزيجًا تحتدم آثارها في نفسي بلا اضطراب.

كنا أكثر من ثلاثة ربطت بين قلوبنا صداقة متينة زاد في عُراها الغربة وجعلها أقوى وأشد وأمتن، لكنها على كل ما هي عليه من قوة كانت تصطدم في بعض الأحيان بإحساسات يحتدم أوارها في النفوس الصغيرة التي شبت عن الطوق فجأة وبلا استئذان.

لكننا ما زلنا نثابر على الرفض لمستجدات الحياة بشيء من الخجل، وكأننا نحاول أن نتشبث بالقديم الذي تركناه وراء ظهورنا فأخذت آثاره تتجسد في نفوسنا تلك التي ما زالت غضة الإهاب.

لطالما عشقت نفوسنا أجواء القاهرة وتفتحت أعيننا على مفاتن النيل الذي امتلأت جوانبه بكواكب كثيرة من الفتيات يرحن ويجئن في ثيابهن الملتصقة وحول أعناقهن سلاسل ذهبية يزداد بريقها في عيوننا ونحن نلتمس الطريق إلى مقياس النيل في الروضة.. حتى جاءتنا رجاء التي كنا نلتقي بها عند باب عمارتنا الأربعين عند محطة الهلباوي في المنيل، كانت الأخرى هناك تستنشق عبير الأصيل في إحساس الأنثى المنتشية بجمالها الأسمر الرقيق، وخصرها الناعم الدقيق، وخصلات شعرها السوداء التي تلاعبها نسمات الهواء وهو يشد ملابسها الضيقة على جسدها الرقيق ليبرز مفاتن ذلك الجسد الذي كنا نتلمس النظر إليه في شيء من الخفر والعذرية.

لكن صديقة لرجاء جعلتنا نقبل على مجلس الفتاتين نتجاذب أطراف الحديث في عفوية من لا يدري من كان البادئ بالحديث مع الآخر، حتى إذا ما غربت الشمس عن أحداقها وتوارت ضمن غلالتها البنفسجية ومضت تقبل أحداقها مياه النيل، ارتسمت على وجه رجاء ابتسامة حائرة وهي تستأذن رفيقها العودة وتطالبنا على استحياء بأن لا نمضي إلى شقتنا خلفها خوفًا من أن يرانا أحد من أهلها، ونحن نتابع خطواتها في هدوء شعرت ساعتها بأنها واحدة من بنات الزقاق وليس القاهرة.

واسترقت النظر إلى وجه صديقة رجاء التي طلبت من زميليّ في إصرار أن يقوما بتوصيلها إلى بيتها في مصر القديمة بعد أن رفضت أن أقوم معها بمثل هذا الأمر لا خوفًا من رجاء وإنما

إحساسًا مني بأنني لا أزال ذلك الكائن الحي الصغير الذي عايش زقاق الطوال وعرف أهله وسكانه ومُثُلَهم وقيمهم فلم يرض أن يفرط في هذه القيم حتى ولو أنه يعيش بعيدًا عن الزقاق آلاف الأميال.

وانتظرت فترة من الوقت خلتها بالنسبة لي طويلة جدًّا، ثم تابعت طريقي إلى مسكني وشتى الأفكار تتوالد داخل رأسي الصغير تعلن عن أشياء أراها وأريدها وأتمنى أن أصفها ولكنني أخاف أن أواصل طريقي في اقتناصها، لأنها جديدة علَيَّ، جديدة على كل ما أحلم وأحمل من عادات لا أدري هل يطول بها الزمن فتظل لصيقة بي أم أنني سأنساها أنا الآخر بعد فترة. حتى إذا ما وصلت إلى العمارة رأيت رجاء هذه المرة وكأنها تنتظر مقدمي بفرحة ومضت إلى المصعد أمسكت بيدي وأدخلتني فيه ليحملني وإياها كل إلى طابقه، نظرت في وجهها هذه المرة ولم أنطق بكلمة فأحسست بابتسامتها تهوي على وجهي وكأنها تستثير رجولتي بأن أنأى بها من أن تهاب الحديث مع امرأة في هذا الصندوق العجيب الذي أحببته لأول مرة والذي نسميه أنا وصديقاي بصندوق الدنيا، وانتهى المطاف لأن يمضي كل واحد منا إلى غايته، لكنه في هذه المرة لم يكن وحيدًا وإنما هو بعقله وخياله برفقة من يظن أنها قادرة على منحه مزيدًا من القوة للسير قُدُمًا في طريق الحياة التي لم نخترها لأنفسنا بمقدار ما إنها جاءت هكذا نتيجة لتوالد الظروف حول هذه الأرض، الأرض التي عاشت زمان النهضة، فالمرأة في القاهرة، هي تلك التي استطاعت أن تستهدف الماضي عبر سنوات الرخاء والشدة، الفرح والحزن معًا.

***



الفصل الثامن

ألفت عيناي ترف القاهرة ومفاتنها الكثيرة، وأصبح من جملة همومي أن أعتني بملابسي وأناقتها فظروفي المادية لا تسمح لي بأن أهتم بهذه الأناقة التي أصبحت مضرب الأمثال بين زملائي وزميلاتي، ومضت أيامي بين الدراسة وارتياد أماكن اللهو بالتساوي أشبه بذلك الذي يعرف كيف يسير على أرضه الجديدة، وامتلأت نفسي غبطة وأنا أرى الأصدقاء والصديقات من حولي في الجامعة يشيدون بنجاحي في الكلية التي اخترتها (الطب) ومن سطح فندق سميراميس حيث تلتقي أفراد الطبقة الراقية من رجالات مصر ونسائها وصالات شبرد والكونتننتال وأخيرًا فندق النيل هيلتون الذي بدأت أرتاده هو الآخر مع نادي الجزيرة الكبير.

كان جل همي أن أنجح في دراستي أتفوق فتفوقت، وكان يطربني أن أسمع صيحات الإعجاب بأناقتي، وبدأت أتردد لأول مرة بعد أن ظفرت بكل ما أردت إلى (دار الكتب المصرية) بباب اللوق أنهل من كتبها، وأضيف إلى ثقافتي ثقافات كثيرة حققتها لي زياراتي المتكررة وقراءاتي المستمرة لكتب التراث والتاريخ والعلوم الحديثة.

وهناك على مقاعد الدار القديمة التقيت بها لأول مرة، فتاة في عمر الزهور يملأ وجهها الأبيض الأنيق علامات حزن رقيقة تحاول أن تقتلعها من جذور قلبها بلا جدوى.

في عيونها حلاوة البحر وعمقه وصخب أمواجه، وعلى شفيتها ابتسامة فجر رقيقة تمنح وجهها ظلالاً من الأمل رغم رقة نظراتها، وعلى صدر جبهتها يسكن إصرار عجيب ورغبة أكيدة على التفوق. طالعتها عيناي بعد أن لمحها قلبي لأول مرة وهي تخطو بين دهاليز الكتب برشاقة.

كانت سهاد تمضي الساعات تلتهم صفحات ما تختاره من كتب، ثم تمضي في هدوء ودون صخب وكأنها تحاول أن تتسلل من بين أعماق عيوني التي كانت تتلمس محاسن الشباب في الوجه الأبيض الوقور، ولكم شعرت بالخيبة عندما كنت آتي إلى الدار فلا أجدها، لكنها لم تكن

تطيل غيابها عنها، بل تفعل ذلك لماماً حتى ذلك اليوم الذي التقيتها فيه وهي على أبواب الدار تهم بالدخول وقدمت إليها التحية على وجل، خفت أن تنفر من تحيتي ولكنها ردتها بأحسن منها، وهكذا مضيت خلفها وقد استمديت العون من طراوة إجابتها المقتضبة وصوتها الملائكي الحنون.

وتصادقنا وأدركت أنني التقيت بمن أستطيع من خلاله أن أؤكد ثقافتي بأسلوب جديد بعد أن عرفت إجادتها لأكثر من لغة.

وتبادلنا الحديث باقتضاب، وكان المدخل لصداقة أحسست بأنني فقدتها بعد أن تركت الدار ومضت لشأنها.

واختلفت نظرتي للفتاة المصرية بعد أن عرفت سهاد التي كانت تكبرني بثلاثة أعوام، عرفت ذلك بعد أن استمرأت حديثي معها وأحببت حديثها معي وشعرت يومها بأن أبواب السعادة قد تفتحت لي بعد ذلك الحديث الطويل الذي عرفت فيه كل شيء عني، ولم أعرف من شأنها سوى القليل، ربما لأنها خافت من أن تبوح بأسرار حياتها لغريب! وربما ارتأت أن تترك ذلك للأيام القادمة فقد تستطيع هذه الأيام أن تؤكد لها طيب أصلي ومعدني.

ولم ألحّ وتركَت الفتاة التي أحببتها باب الدار تمتطي سيارتها الأنيقة في طريقها إلى بيتها دون أن تتفضل بإيصالي معها إلى بيتي وهي في الطريق إليه، ولكن من يدريني أن كان بيتها في طريقي أم لا؟! ذاك أمر أحسبني غير واثق منه.

وتمر الأيام وتزداد الثقة بيني وبين الفتاة التي حسبتها لم تتزوج بعد، لكن ما عرفته منها جعلني أفقد كثيراً من أمور هذا العالم الذي نعيش فيه، فلقد أذهلني أن تقترن هذه الفتاة بزميل دراستها ثم تطلّق منه ولم يمضِ على زفافها منه سوى شهور بسيطة.

لقد أمضت المسكينة سنوات الخطبة الأربع في حبها الوردي الذي انقشع فجأة وظهرت حقيقة الحياة واضحة أمام عينيها وهي تمضي في دراستها الجادة للماجستير في علم النفس بعد أن هَيّضَ جناحَها الطلاق المفاجئ، وهي بالفعل لا تؤاخذ فتاها على ما فعل وتلقي اللوم على نفسها؛ فشلت في دراسة أول حالة نفس تصادفها في حياتها.

ولكم أسعدني قولها بأنها لا تفكر في الزواج بعد هذه التجربة. فلقد خفت أن أنجرف في حب هذه الفتاة، لكن حديثها هذا جعلني أستعيد ماضي حياتي في طيبة الطيبة. وفي الزقاق بصورة حادة.

ولقد قالت لي بأنها تود الحصول على الدكتوراه في علم النفس الذي أحبّته، وأنها وهي تمضي في إعداد رسالتها للماجستير تضع نصب عينها هذه الحقيقة.

فترات الراحة التي أمضيتها بين الكتب وبين حديثي مع هذه الفتاة جعلتني أحس بقيمة ومعاني الثقافة بالنسبة للإنسان.

لكن السؤال المباغت لي في ذلك اليوم عقب اختياري لكتاب من كتب علم الاجتماع. جعلني أفكر فعلاً في قولها، فأنا طالب طب وكان الأولى بي أن أضيع كل دقيقة في دراسة كتب الطب، لكنني مع هذا أجبتها بأن قدراتي على هضم العلوم ورغبتي بأن أكون طبيبًا مثقفًا تدفعني إلى قراءة ما أحب من أنواع الكتب. ولكم سعدت بزيارة بيت الفتاة ورؤية أمّها التي لا يزال يحمل وجهها آثار جَمال غابر، لكن أكثر ما أثلج صدري أن أمّها طبيبة أطفال ماهرة وأستاذة محنكة لهذا العلم.

ولقد هالني أن أجد والد أم الفتاة من مدينة ينبع اختار الإسماعيلية مركزًا لتجارته يوم كانت هناك تجارة اللحوم والفحم بين المدينتين حتى إذا ما استمرأ الحياة وجاءت ابنته إلى الحياة انتقل بتجارته إلى القاهرة، ولكم أحسست بطيبة ماما فايزة التي عَرَفت أنني من مدينة رسول الله. عليه أفضل الصلاة والسلام. مدينة النور والإسلام فمضت تعاملني بحب وكأنني ابنًا من أبنائها، ولقد سألتني بعد أن ازدادت الألفة بيني وبينها عما أريد أن أصنعه بعد تعرفي على ابنتها وهل أنوي الاقتران بها؟!

فقلت في حزم. لا أدري من أين جئت به: (لا)، وشعرت بوجه المرأة وقد تلوّن وبدت آثار الغضب في وجهها وهي تقول لي بهمس: إذن فعليك أن تختفي من حياتنا ما دمت لا تنوي ذلك فأنا أخاف على ابنتي من أن تتعلق بك. فتصدم وأنت تعرف أنها صدمت قبلاً.

وقلت لها كل ما عرفته من ابنتها، فضحكت وقالت: هكذا نحن النساء نغلف رغباتنا بأوراق من السلوفان حتى لا تبدو ظاهرة بوضوح للآخرين، ولم تكمل ولكني أكملت أنا، وتركت البيت في ذلك اليوم الذي جئت فيه قبل أن تجيء الفتاة وصوت ماما فايزة يشد أذني كلها وهي تقول: لا تغضب فأنا أم تجري في عروقها دماء حجازية يا ولدي، ولهذا فإني أطالبك بأن تختفي من حياة ابنتي ما دمت لا تريدها.

وغبت عن البيت وعن دار الكتب أكثر من أسبوعين، خلتها شهورًا حتى ذلك اليوم الذي رأيت

فيه الفتاة تدق باب شقتي لأول مرة ومعها أمها. التي جاءت تسائلني عن أسباب عدم الزيارة، فكرت في الأمر سريعًا وادّعيت بأن إصابتي بالأنفلونزا كانت السبب وشربنا القهوة وتركتني الأم وفتاتها بعد أن وعدتهما باستعادة موقعي في قلبيهما، أنا الغريب الذي يبحث عن الحنان في أي مكان في هذه القاهرة، المدينة الكبيرة الصاخبة التي أحب.

وأخذت أفكر في زيارة الأم لي هذه المرة ولم أعرف السبب وإن كنت عَزَوْتُه لفرط حبها لابنتها الوحيدة ورغبتها بأن تظل سعيدة بأسلوبها - أي الفتاة - وليس أسلوب أمها، لكنها لقصر الوقت الذي قضته في شقتي لم تمنحني فهم المقصود من هذه الزيارة.

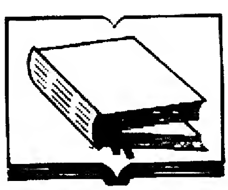
وجاءتني كلمات سهاد هذه المرة عبر التلفون وهي تضحك قائلة: كم كنت سخيفًا وأنت تكذب كَفَتىً صغير، أود أن تصارحني بكل ما قالته لك ماما لأعيد على مسامعك أنا الأخرى كل ما قلته لها.

وأضافت بمرح: تكفيني صداقتك ويوم أجد العريس المناسب ثق بأنني سآخذ رأيك أنت الآخر كأخي الذي لم تلده أمي.

وأمضيت ليلة هادئة، ونمت نومًا عميقًا تخللته أحلام كثيرة ضاعت مني بعد أن أفقت لكنني شعرت بأن في الإمكان أن تكون الصداقة بين الرجل والمرأة على الأقل كمجتمع القاهرة وليس كمجتمع الزقاق مثلاً.

لكن كل هذا لم يقنعني وأخذت أتحدث إلى نفسي حديثًا طويلاً لم أصل في نهايته إلى رأي سوى أن أواصل صداقتي لهذه الأنثى التي أعجبتني. وأعجبني فهمها لمعنى الصداقة.

***



الفصل التاسع

عاصم بن سعيد طبيب مصري أقام سنوات عمره في كندا مع والده وأمه التي ماتت وَتَمُتُّ بِصِلة القرابة من بعيد لوالدة سهاد التي تناولت جريدة الأهرام الصفحة الثقافية رسالتها للدكتوراه في أصول علم النفس عند الرواد العرب بكثير من الإشادة والفخر قرأ الخبر قريبها في المهجر.

فاتصل بها تلفونيًا بعد أن استقى كافة المعلومات عنها من سفارة مصر في كندا وجاء هذه المرة وقد تكون هي المرة الأولى ليحرمني من سهاد الصديقة وأمها دفعة واحدة، ومع هذا ورغم غيابها عني فلقد أحسست بشيء من الفرحة لخطبة سهاد. وإن لم أستسغ بالفعل خطبة الأم للأستاذ حمدان الكيميائي والذي قضى جل سنوات حياته في القرية بلا زواج بعد وفاة زوجته.

ربما كان لتأثير الزقاق الكثير من نظرات الاستغراب التي واجهت بها أم سهاد وأنا أزورها بعد أن عرفت بنبأ الخطبة للأم والابنة دفعة واحدة. ولقد ازدادت حيرتي عندما قدمتني الأم للأستاذ عاصم على أنني قريب لوالدها من بعيد. استغربت أن تكذب الأم هكذا دون أن تستأذنني أنا الذي ألصقت به شرف القرابة، وشعرت ساعتها بهذه الكذبة، وعرفت بأن المجتمع المصري هو الآخر كمجتمع الزقاق لا يرى معنى للصداقة التي تربط بين الرجل والمرأة إن لم يكن من أهلها أو قريبًا من أقربائها.

سهاد هي الأخرى لم تستسغ الكذبة وإن لم تتحدث بصراحة، لكنني شعرت في كل مرة أراها فيها بأنها غير راضية عن الشرف الذي ألصقته بي أمها يومئذ، وقلت لنفسي: ربما كان جيل اليوم أقدر على الصدق والصراحة من الجيل الذي لا ينتمي لا للقديم ولا للجديد.

في آخر يوم قابلت فيه سهاد قبل ليلة زفافها سألتها: أو يمكن للمرأة أن تجري وراء الرجل لتتزوج وتنأى بنفسها عن بيتها الأصلي وأرضها ومجتمعها. ضحكت سهاد وقالت لأول مرة: بيت المرأة هو كتف الرجل تسكن إليه وتضع رأسها عليه، إذا كانت مطمئنة، وأردفت: لنفرض أنك الذي طلبتني للزواج، فهل معنى قبولي لطلبك أن أبقى وأطلب منك أن تبقى أنت في بلادي أم

أن المنطق يقول غير هذا؟. نظرت في وجهها وقلت بصراحة: أَوَكُنتِ تنتظرين مني أن أفعل؟ قالت: ربما لا أكون صادقة إذا قلت إنني لم أنتظر منك أن تفعل ورغم كلامي عن معاني الصداقة بين الرجل والمرأة. فالمرأة يا صديقي تظل دائمًا رغم ثقافتها تنتظر وليفها الذي تقتنصه.

نظرت إلي نظرة حانية وطبلت مني أن أصمت، لكنني لم أفعل ومضيت أثرثر هنا وهناك. وأقول: لا سأنتظرك وزوجك وأولادك في بلدي عندما تقررين زيادة البلاد المقدسة للحج أو العمرة.

ولمحت دمعة صغيرة تنحدر على وجنتيها وهي تترك مقعدها في صالة بيتها عندما وصلت أمها إلى الغرفة.

قالت لي أمها: أَوَأَزعجتَها بشيء لا أعرفه فهي تبكي؟ نظرت إلى وجهها وقلت: صدقيني لم أقل شيئًا يضايقها. فصمتت وعادت سهاد إلى الغرفة وهي ترسم بسمة صغيرة على وجهها وكأن شيئًا لم يكن، فحمدت لها هذا المعروف وأمضيت معهما ليلة باردة ثقيلة على النفس وخرجت على أثرها وأكثر من هاجس يداعب نفسي التي لم تعد تستقر على أمر من الأمور تلك الليلة. قلت لنفسي: ترى هل ظلمت الفتاة أم ظلمت نفسي بهذه الصداقة التي فرضتها.

وعندما لم أجد الإجابة لكل تساؤلاتي تركت الأمر يترسب في أعماقي في صوره الصغيرة والمتعددة، ولكن هل كان عاصم بن حمدان الطبيب المصري على حق عندما ترك بنات كندا ليقترن بفتاة من أرضه وبلاده؟!!

تلك قصة أخرى لا أزال أحاول أن أعرف أسبابها وملابساتها عند كثير من الناس الذين تنقلهم الغربة بعيدًا عن أجواء أرضهم فتراهم يسعون إلى جو هذه الأرض التي ولدوا عليها حتى ولو كان ذلك على شكل مصغر بسيط لا يخرج من دائرة ومحيط البيت الذي يقضي الإنسان أكثر من نصف حياته بين جدرانه.

ولقد أمضيت ليالي حائرًا أبحث عن نفسي من خلال المجتمع الذي أعايشه حتى ذلك اليوم الذي تخلى فيه أحد أفراد شلّتنا نحن الثلاثة عنا واستقل بحياته؛ فقد سرقت فتاة مصرية فريدًا صديقي الطيب الذي يعرف مباهج الطعام وأشكاله ويجيد طهيه فافتقدنا بفقده كثيرًا من أطباقنا

التي تعوّدنا عليها في بلادنا، لم نكن نعرف كيف استطاعت فتاة كماجدة ـ أو ماجي كما يلقبونها ـ اختطاف هذا الصديق فقد كانت واحدة من الفتيات اللواتي يدرسن معه في جامعة القاهرة بكلية الهندسة، حضر بعضنا وقضينا حفل الزفاف الذي تميز بالجديد والبعيد عن عاداتنا بلا شذوذ وامتلأ سطح العمارة الذي سيج بأقمشة براقة من أقمشة الخيام وشارك في الاحتفال بالزفاف عدد من المغنين والمغنيات اللواتي تزخر بهن مثل أمثال هذه الحفلات، ولقد قضى على السهر وقضى على كل آثار الفرحة في نفسي تذكري لابنة عم فريد، تلك التي كان يتحدث عنها لنا بإسهاب وعن أمله بأن يعود ليزف إليها. هو الذي أحبها منذ أن كان صغيرًا.

ترى ماذا تقول ابنة عمه صفاء عندما يعود إليها برفقة عروسه وأكثر من طفل، وماذا سيقول لأبيه ولأمه؟ فقد عرفت بأنهما لا يدريان شيئًا عن كل هذا الذي دبره بليل هذا الصديق.

ثم كيف يمكن لأية أسرة أن تقبل أن تزف ابنتها إلى رجل لا يشارك زفافه أحد من أسرته؟. ولقد قابلت فريدًا بعد أيام وتحدثنا سويًا عن هذا الأمر فوجدته إنسانًا مغايرًا لذلك الذي أعرف. أصبح يخطط لأن يعيش في القاهرة بعد أن يتخرج وبعد أن يعود إلى بلده ويرى كيف يمكن له أن يحقق هذه الرغبة، وعندما سألته عما إذا كان سيأخذ زوجته معه عند العودة؟ قال: لا، وأضاف: لقد اتفقت معها على كل شيء سأعود وأعمل وأكسب وعندما يحين الوقت سأبلغ أبي وأمي بما حدث! وقال أيضًا: سأدع الأيام تضمد جراح تلك التي أحببتها في طيبة ونسيتها في القاهرة.

لم أقل شيئًا فقد كانت تلك المرة الوحيدة التي لم أجد كلامًا يمكن أن أقوله لهذا المستهتر. هكذا وصفته بيني وبين نفسي، وإن لم أكن أجرؤ على أن أقولها في وجهه، ولكن لقد كان الذي ليس منه بد وأصبح فريدًا زوجًا وصاحب بيت، نالنا من طيبات مأكله الشيء الكثير.

ولقد حاولت زوجة فريد أن تضع في طريقي ابنة خالتها هناء التي كانت في حقيقة الأمر فتاة مثالية شديدة الذكاء جميلة إلى حد كبير، لكنني استطعت أن أصمد أمام مفاتن هذه الفتاة، وأن أمضي في طريقي بعيدًا عن كل رغبة يمكن أن تخامر نفسي بأن أتزوج منها أو من غيرها.

إلا أنني في حقيقة الأمر كنت أطرب عندما أراها في بيت فريد وأمضي معها ومع فريد

وزوجته أوقاتًا سعيدة جعلت فريدًا يخاطبني بشأنها أكثر من مرة.

وفي إحدى المرات قال لي فريد: أَوَتَدري أن هناء تحبك؟! لقد باحت بسرها لي ولزوجتي وطلبت منا أن لا ننقله إليك.

أحسست ساعتها بأنني قد أجرمت في حق الفتاة فجعلتها تحبني أنا الذي أرفض الزواج بأية أجنبية من غير بلدي ووطني، ومع ذلك فقد قلت له: أرجو أن تبلغها إعجابي بها وبأخلاقها وجمالها. وأرجو أن تطلب منها أن تكف عن محبتي إذا كانت تريد أن تتزوج.

ضحك فريد ولم يَعِ كلمتي أو معناها فظن أنني أوافق على حبها لي على أن لا تطمع بالزواج مني فقال: تريد أن تتسلى إذاً؟!

قلت: لا، وأفهمته ما أعنيه، لكن هناء مضت تواصل ملاحقتي بأحاديثها التليفونية وكلماتها الدافئة من ذلك اليوم الذي التقيتها فيه في فناء الكلية فقد كانت تدرس الطب هي الأخرى وكان حديثي معها واضحًا وصريحًا انتهى بأن تطلب مني أن نظل أصدقاء إذا كان هذا يناسبني.

شعرت في تلك اللحظة كم هي قادرة المرأة على أن تغلف رغبتها وإرادتها بأساليب شتى حتى إذا ما استطاعت أن تصل إلى غرضها انقضّت بكلها وكليلها على قلب الرجل، ومع هذا أجبتها. وفي هدوء: لا شك أنني سأكون ممتنًا وسعيدًا بصداقتك يا عزيزتي وثقي بأنك عندما تختارين عريسك فلا تتأخري واطلبي مني كأخ أن أقدم لك مشورتي فيه إذا كنت أعرفه.

نظرت إليّ نظرة باسمة لكنني شعرت بأنها تعتقد أن هناك الكثير من الوقت. الوقت في صالحها، ولهذا فهي لا تفقد الأمل في اصطيادي، ومنذ ذلك اليوم أصبحت هناء لا تفارقني في كافيتريا الكلية، بل تفرض وجودها عليّ حتى وأنا أتحدث إلى أية فتاة غيرها، وكأنها تحاول أن تفهم الأخريات أنها خطيبتي.

وفي يوم تسلمي شهادة البكالوريوس دعتني وفريدًا وزوجته إلى دارها، ودعت شلة كبيرة من الأصدقاء والصديقات، لكنني في حقيقة الأمر وجدت حرجًا كبيرًا وأنا بين هذا العدد من فتيات أسرتها اللواتي كن يتفحصن وجهي بإمعان.

وكأنني أشبه بجارية في سوق الرقيق، يحاول من يشتريها أن يتعرف إلى جوانب وجودها على أرض هذه الدنيا.

مضت تلك الليلة وأنا في دوامة من التفكير أزعجني، وعندما عدت إلى بيتي قررت بيني وبين نفسي أن أقطع صلاتي بهذه الفتاة التي تظن أنها قادرة على امتلاك قلبي بأسلوبها وطريقتها، ومما زاد في ألمي تليفونها الذي جاء في وقت متأخر من الليل، وكأنها تطالبني بأن أكشف لها عن نفسي وأسباب انزعاجي الملموس والظاهر على وجهي تلك الليلة، حاولت أن أفهمها بأن لا شيء من كل هذا الذي تقوله حقيقة، لكنها تابعت قولها: أَوَتَدري بأن كل صديقاتي من أفراد الأسرة يحسدنني على صداقتي لك ولا سيما بارعة، وبارعة هذه فتاة رأيتها في بيتها أكثر من مرة.

لقد بدوت أمام أعينهن أشبه بفارس عربي نزل عن صهوة جواده ليواجه عيون كل هذه الزهرات اليانعات، ولقد أفضت لي بارعة برغبتها في التعرف عليك بدعوتك إلى بيتها ودعوتي وصمتت بعضًا من الوقت ثم جاء صوتها مكملاً الحديث وهي تقول: أَوَتَدري أنها بمفردها في شقتها فزوجها في أمريكا يكمل دراسته هناك. وهي لا ولد لديها ولا ابنة...

وبحزم قلت لها. وأنا أعرف ما تريد أن تدعوني إليه: إنني أرفض أن أدخل بيت رجل لا يوجد فيه، وقفلت السماعة وكأنني أنهي هذه المحادثة بقسوة افتعلتها، وهكذا عاودتني مُثُل الزقاق وأهل الزقاق دفعة واحدة.

لكنها عادت إلى محادثتي وهي تقول: ربما انقطع خط التليفون، فأنا وأنت لم نكمل حديثنا بعد.

وبصوت حاولت أن أظهر فيه بعض الضيق والحنق قلت لها: وهل بقي بعد كل الذي قلناه حديث.

ومع كل هذا الذي قلت مضت تثرثر ببضع كلمات حاولت أن أسايرها فيها، حتى إذا ما ضقت بكل هذا الكلام الذي لا طائل معه أشرت إليها بشيء من الهدوء قائلاً: أنسيت أن غدًا أول أيام الامتياز؟ فقد جرت العادة أن يمضي الأطباء الجدد عامًا كاملاً يتمرنون خلاله في المستشفى ليضيفوا إلى معلوماتهم شيئًا جديدًا ويشاركون أساتذتهم ومدرسيهم العمل في المستشفى، وودّعتها وأنا حائر في أمر هذه الفتاة وقدرتها العجيبة على الالتفاف حول ما تريد، وصبرها وعنادها لأن تصل إلى ما تريد، وإن كنت أعتقد بأنني لست بذلك الصيد السهل الذي يمكن اقتناصه، ومضيت إلى فراشي لتلتقط ذاكرتي جزءًا كبيرًا من حياتنا في الزقاق في شبه رؤيا حمدت الله لأنني رأيت ما رأيت.

ولملمت نفسي وأنا في طريقي إلى القصر العيني حيث أتدرب، وقد نسيت كل شيء ولم أعد أذكر إلا أنني طبيب ولأول مرة.

***



الفصل العاشر

يرتبط الماضي بالحاضر برباط وثيق أكاد أحسه يتأوه على شفتَيّ المرهقتين، فنحن في حياتنا نعاصر الحاضر بأسلوب سريع الخطو والإيقاع يشد عزيمتنا في كثير من الأحيان ككائنٍ بعضنا يراه، وقد أدركته سرعة الإيقاع فلم يقدر على مواكبتها في مسيرته الطويلة، ربما لأن الناس ليس كلهم على شاكلة واحدة من القدرة على التكيف مع واقع الحياة واكتساب عناصر القوة فيها كما نرغب.

في القاهرة كنت أرمق الفجر الذي أطل بعد أن استطعت القفز على حواجز الحياة واخترت مهنتي بأصالة لكن الشيء الذي أسعدني أنني وفي هذه السن الشابة استطعت تحليل نفسيتي وسبر أغوارها ومعرفة معاني الوعي الباطن الذي يمنحني صورًا جميلة أكاد أراها في يقظتي قبل المنام، فالعالم على سعته أصبح شيئًا صغيرًا نستطيع أن نصل إلى كل مكان فيه إذا رغبنا وبأسرع ما يمكن، ولقد منح صغر العالم على امتداد أرضه وبحاره وجباله الناسَ القدرة على فهم أنواع الحياة التي يعيشها الإنسان حتى في مجاهل سيبيريا، هذه المعرفة حققتها له وسائل الاتصالات السريعة التي غدت سمة بارزة من سمات عصرنا الذي نعيش فيه.

قد يكون البون شاسعًا بين من نعرفهم ومن لا نعرفهم، ومن نلقاهم في الطريق أيضًا، لكن هذا البون الشاسع يبدو واضح المعالم في المدن الكبيرة التي أصبح الإنسان فيها مجرد رقم صغير يضاف إلى الأرقام الكبيرة، القاهرة بمعالمها وناسها أشبه بكرنفال كبير تبدو من خلاله صيحات الموضة وأقدم الملابس فالجلباب الأسود الفضفاض يثير الحزن الذي يبدو على وجوه السمراء الضاحكة التي جبلت على عجن الحزن بحياة السخرية، السخرية الهادئة واللاذعة والهادفة أيضًا.

وأنا في طريقي للقاء صديق جاء على غفلة ويود أن يتركنا على غفلة لولا المصادفة والنيل؛ هذا

الشريان الحيوي تكاد جوانبه تنبض، تتحدث لبعض هؤلاء الرائحين والغادين بجلابيبهم وبنطلوناتهم ووجوههم المغايرة لأولئك الناس الذي سكنوا الزقاق يوم كان الزقاق يعج بالناس، لدرجة كنا نعتبره أكبر الأزقة في العالم، ونحن عشناه وعايشناه حتى إذا ما التقينا بكل هذه الملايين الزاحفة تضاءل المنظر ولم تضِع آثاره على نفوسنا.

في فندق النيل هيلتون التقيت بصديق من أيام الدراسة فرقت بيننا الأيام جئت إلى القاهرة وسافر هو إلى الرياض حيث إنتقلت أسرته إليها، ثم شاء حظه أن يغادر إلى أمريكا في رحلة علم طويلة، نظرت إلى وجهه فهالني أن كل شيء في ذلك الوجه الذي أعرف قد تغير، لم يعد هشام ذلك الذي أعرفه، بصم الزمن على وجهه وجسده بصمات كثيرة غيرت معالمه، وإن لم تتغير ضحكته التي عرفت والتي واجهني بها وهو يلقي بنفسه على صدري، يضم أخًا قديمًا حالت سنوات الحياة دون أن يلتقيا، ومضيت أدردش معه كثيرًا وإن كان حديثي قد انصبَّ أكثره على أمريكا التي بدأت أحلم كثيرًا برؤيتها بعد أن أنهي تدريبي في الامتياز بالقصر العيني.

ولقد أمضيت مع هشام يومًا كاملاً التقيت في نهايته بزوجته الأمريكية التي جاءت من بوسطن بعد أن اعتنقت الإسلام عن رغبة، كان لاعتناقها هذا الدين قصة طويلة تحدث هشام لي عنها بكثير من الحب والإدراك لمشاعر أولئك الذي التقوا مع الإسلام وجهًا لوجه.

كريستين. هذا هو اسمها قبل أن تصبح هدى. من والد ينتمي إلى جدود ألمانية وأم ترجع جذورها إلى مدينة مام في القارة الهندية. يدينان بدين ظهرت آثاره في أمريكا. وأصبحت لهذه الفئة من الناس (المورمن) جامعة كبيرة من جامعاتها اسمها جامعة يوتا.

زارت مع أسرتها في سن الخامسة عشرة المغرب والتقت بفتاه سمراء صادقتها وأحبتها وتعرفت إلى أشياء كثيرة عن حياتها وأسرتها، حتى إذا ما التقت بها مرة ثانية وهي تأتي إلى أمريكا للدراسة أخذت تطلعها بشكل أفضل عما عرفته عن الإسلام يوم كانت صغيرة، وأصبحت بعد هذه المعرفة تحاول الاطّلاع على الكتب القليلة التي توفرت لها في أمريكا، وعندما قدر لها أن تطّلع على ترجمة معاني القرآن اطّلاعًا عميقًا ذهبت مع صديقتها إلى واشنطن تعلن عن إسلامها في المركز الإسلامي هناك وفي جامعة بوسطن تعرفت على هشام وأحبّته ومن ثَم تزوجته.

قصة صغيرة تصلح لأن تكون فيلمًا سينمائيًّا، هكذا قالها هشام، لكني لم أُجِب وإنما مضيت أفكر وأفكر.

ترى لو عاد هشام بزوجته الأمريكية هذه يوم كان الزقاق وأهل الزقاق وناس الزقاق على سابق عهدهم فهل سيقبلونه؟! لا أدري لكنني فضلت أن أتناسى الموضوع لفترة، وإن كان يشغلني في بعض الأوقات التفكير فيما أصبح عليه حال الشباب في بلادي بعد كل مظاهر التطور الملموس.

العمل في القصر العيني مليء بالأحداث المفاجئة، لكنني كنت أجد الكثير من الراحة عندما أمضي في عملي أؤديه في حب. وأرمق زملائي من أطباء الامتياز الذين كانوا يهربون إلى حياة الليل في القاهرة ويفضلونها على أي عمل يقومون به، ما عدا ازدهار؛ هذه الطبيبة العراقية التي تعرفت عليها وهي تواصل تخصصها في هذا المعهد الطبي الكبير، كانت نموذجًا آخر من المرأة التي وهبت نفسها لأداء الواجب تفضله على أي شيء آخر، يوم سألتها عن الأسباب التي جعلت منها هذه الفتاة التي أراها من جد ومثابرة فابتسمت وقالت: لذلك قصة وودت أن أجد الوقت لأقولها لك عندما تحين الفرصة.

لكن فرصة لقائي بها لم تكن تسمح بأن تفضي لي بقصتها، حتى ذلك اليوم الذي عرفت فيه منها بأنها وُلِدت في نفس اليوم الذي توفيت فيه أمها، لأن أباها لم يكن قادرًا على حملها إلى المستشفى الذي يبعد عن القرية أكثر من أربع ساعات طوال خشي عليها من الموت فأدركها الموت فور ولادتها. وعندما كبرت ازدهار رأت كيف يحصد الموت الأطفال فور ولادتهم فكانت تعجب لكونها هي التي عاشت وماتت أمها، ولقد ظل أبوها على حبه لأمها فلم يتزوج حتى أصبح مضرب الأمثال بين شباب القرية وفتياتها اللواتي تعرفت عليهن بعد ما كبرت، ويوم التحقت بكلية الطب ببغداد ترك أبوها القرية وجاء معها إلى المدينة يرقب نموها في حب. لكن فرحته بها لم تدم فقد توفي هو الآخر بعد نيلها البكالوريوس بقليل.

ومضت رحلة عمرها في دأب أغناها أن تفكر أو تحلم بالزواج رغم كثرة عشاق العمل الذين كانوا يلفون حولها دون جدوى، واستقر بها المقام في رحلة علم للتخصص جاءت خلالها إلى القاهرة لتنهل العلم من جامعتها ـ كما كانت تقول ـ سألتها وهي واقفة على مقربة من غرفة الأشعة العميقة ترمق وجه طفلة صغيرة جاءت أمها للعلاج من خلف زجاج الغرفة السميك المشبع بمواد عازلة كثيرة، أو لا تحنّين لأن يكون لك أسرة أنت التي فقدت الأسرة؟ قالت وهي تحملق في وجهي وكأنها تحاول أن تسبر غور سؤالي الذي وجهت: ومن قال لك إنني لا أحن؟!!!! لكن حنيني كما

ترى يضيع بين أقدام الحياة ويتوه في شوارعها وممراتها القديمة، نحن الحرائر قد يشغلنا عن فعل هذا الأمر حلم علمي نريد تحقيقه حتى إذا ما تاهت أقدامنا بعيدًا عن إحساساتنا كفتيات وجدنا أنفسنا وقد أضافت الأيام لوجوهنا بصمات حقيقية أفقدته الرونق والبهاء وعندها لا يحفل بنا كل أولئك الذي رأوننا بالأمس القريب أو البعيد معًا.

ضريبة العلم يا صديقي تدفعها المرأة وهي راضية؛ لأن الحياة يجب أن تستمر ولأن العلم يجب أن يغطي على ساحات الحياة ودروبها وشوارعها.

(لكنك لا تزالين قادرة على اجتذاب رفيق العمر لو أردت) قلت لها.

كررت نظراتها لوجهي ثم قالت ـ وكأنها قد عرفت ما أعني: وهل ترضى أن تتزوج امرأة بلا أسرة؟.

***

الفصل الحادي عشر

كثيرًا ما تتجاذبني أحلام اليقظة هنا وهناك، فأحس بنفسي تتأرجح داخل كل هذه الشرايين الصغيرة التي تحيط بهذا الجسد الذي أصبحت أحس بمعنى كل صغيرة وكبيرة فيه. فالإنسان هذا الذي يجري على الأرض يرهب الموت ويخاف المرض ويخشى الأحزان، لكنه مع هذا كله عرضة للمرض والخوف والحزن والموت.

ولقد عرفت أشياء كثيرة عن هذه القاهرة التي عشنا فيها ردحًا من السنين إخالها وقد منحتني الفرصة لأن أعرف الطيب فيها والرديء وأمنح نفسي بعضًا من الهدوء رغم الكثير من المنغصات التي أراها في كل مكان تدب فيه قدماي، فلقد فرقت الأسباب بيني وبين الأصدقاء، وعاد أكثرهم إلى الديار محفوفًا بالأماني حتى إذا ما حطت بهم الطائرة في جوف الماضي مرة ثانية نسوا أو تناسوا أيام الدراسة وزملاء الأمس، فترة من الزمن ثم عادوا تذكرهم للحاضر الذي عاشوه بدقائقه وتفاصيله، يقول أخي في رسائله بأننا أصبحنا في وضع مالي نحسد عليه، ولقد أحسست بالفعل بمعاني كل كلمة قالها في رسائله التي يرسلها إليّ وبهذه المبالغ السخية التي يبعث بها إليّ رغم أنني في غير حاجة لها.

فأخي بعد كل هذا الخير يرى أن أمضي في رحلة العلم حتى أصل إلى أكبر درجات العلم ثم أعود، وهي حقيقة صادفت هوى كبيرًا في نفسي، فأنا أيضًا أرغب في هذا أو كثر من هذا لكن ما يؤرقني أنه يرغب أن أتزوج بعد أن أعود إلى الديار وأن ترافقني زوجتي إلى أمريكا إذا كنت راغبًا لأن أصل إلى ما أريد وما يريده هو أيضًا أن أصل إليه.

أشياء كثيرة أفضى بها أخي إليّ لكنها لم تكن جديدة عليّ، فأنا أعلم من كل ما أقرأ وأشاهد مظاهر التطور التي تسود أرضنا وبلادنا لدرجة أصبح هذا ليس ملكًا لأحد بمفرده وإنما هو لكل هؤلاء الذين يعيشون على أرض تلك الجزيرة الحرة، ولكم سعدت عندما رأيت تعداد البعثات في تناقص مستمر نتيجة تواجد فرص العلم في بلادنا بشكل جيد ومتميز، وسألت نفسي: ترى متى

سيتسنى لي أن أمضي مع جحافل الخير التي تبني بسواعدها أرضي وبلادي.

في الربيع كانت صدمتي كبيرة؛ فأختي التي تزوجت صديق عمر أخي تركها بعد أن ارتبط بواحدة من بنات أمريكا! وحزنت أكثر لأن أختي رفضت أن تترك طفليها لوالدهما وأصرت على أن يبقيا معها رغم كل شيء، قلت لنفسي: لو كانت عاقلة لتركتهما واستطاعت أن ترتبط بآخر فهي صغيرة، لكني وبعد أن تسلمت رسالة أختي التي تفيض ألمًا أيقنت أنها أعقل من عاقلة لأنها تريد أن تضحّي من أجل ولديها.

تناسيت الأمر أو حاولت وعاودت رحلة العلم وأنا قلق، جاء العيد ولأول مرة أحسست بالحزن يتسلل إلى أعماق نفسي في قسوة؛ فلقد أمضيت جل أيامه في قسم الحوادث في القصر العيني، شعرت بأن العالم كله مثلي حزين هو الآخر، فحوادث المرور وإصابات الأطفال وموت بعض العجائز في المستشفى كل هذه الأشياء جعلتني أفكر في أسر هؤلاء الذي مروا أمام عيني، ولقد رأيت اللهفة في عين تلك المرأة وهي تحنو على طفلها الصغير وقد ارتدى ملابس العيد تحيطه بذراعيها البيضاوتين ووجهها الناصع البياض امتدت لها يد الصغير. فأصبح مزيجًا غريبًا أمام عيني. أحسست بلهفتها على وليدها الذي صدمته السيارة أما عينيها وهو يلهو أمام العمارة التي تقطنها.

سألتها عن أبيه فقالت: على سفر، ولم تكمل لكنني ساعتها أحسست بأن من واجبي أن أتقمص دور الأب والطبيب معًا حتى إذا ما اطمأننت إلى جميع الإجراءات التي قمت بها شيعتها نظراتي وهي تسير برفق مع الممرضة ووليدها على الكرسي لداخل المستشفى، أمضيت يومًا حافلاً في علاج الكثيرين والكثيرات، لكن مرأى الطفل وتلك المرأة يشغل جزءًا كبيرًا من تفكيري حتى إذا ما جاء المساء التقيت بها في غرفة وليدها. أحسست بأنها تود أن تعبر عن مزيج من الشكر والحفاوة بمقدمي، لكنني لم ألتفت إلى كل ذلك، وإنما أخذت أداعب طفلها في حنان شعرت بعدها بأن عليّ أن أتزوج وأنجب.

أمضيت أكثر من ساعة أتحدث إلى الطفل وأساله وأداعبه وهو يفرح باهتمامي به. لكنني في أعماق نفسي أحسست بتساؤل غريب يطل من أعماقي يسائل المرأة عن زوجها، حتى إذا ما قالت

بأن زوجها هو الآخر ذهب ضحية سيارة في يوم عيد من العام الذي مضى، انحدرت دمعة من عيني وعرفت بأن لهفة هذه المرأة على وليدها لها ما يبرره. فلقد خافت أن يمضي وليدها هو الآخر ويوم عيد كما ذهب زوجها الذي تحب.

وتداعت أمام عيني صور الحياة ومآسيها وأفراحها كشريط طويل يحكي قصة أمام العمر الذي أمضيته هناك في زقاق الطوال وفي القاهرة.

وأحسست بأن أم زياد جارتنا البعيدة كانت على حق عندما كانت تخاف على وليدها الذي مات أبوه.

بعض المصريين يقولون عن مستشفى القصر العيني بأن الخارج منه مولود. وهم عندما يقولون ذلك لا يبتعدون كثيرًا عن الحقيقة فالأعداد التي تدخل كل يوم المستشفى كبيرة جدًّا وبعض هؤلاء المرضى يأتون إليه بعد أن وصلوا إلى أخطر درجات المرض. ربما كان السبب هذه الكثافة السكانية التي لا تدع الفرصة للتوعية الصحية كي تأخذ طريقها الذي يجب أن تصل إليه، ولقد شاركت عادات بعض الأسر من نحيب وعويل عند وفاة مريضهم على ترسخ هذا المفهوم لدى العامة. أما أنا فلقد تعلمت كثيرًا في هذا المستشفى الكبير، لا أتحدث عما تلقيته من علوم طبية على يد كبار الأساتذة فحسب؛ وإنما أردت أن أقول بأن هذا المستشفى صورة مصغرة لأجمل هذه الحياة وأدقها وأصعبها وأقساها. ففي خباياه قصص وحكايا عرفتها وخفت من بعضها.

نعيش نحن الأطباء مع الأمل حتى عندما نجد أنفسنا غير قادرين على منح المريض ما يريده من علاج، هذا الأمل هو الذي يدفعنا لأن نعمل في صمت، وأن نختزن في داخل أعماقنا كل ما يكتنف حياة بعض مرضانا من ألم وأمل وحب وخوف ورهبة، سنوات العمر أراها تمضي، وهي بعد لم تتفتح أزهارها على ربيع الحياة ذلك الذي ننظر إليه دائمًا نظرة مغايرة لكل ما نعايشه أو ندركه.

في الربيع تبدو أوراقنا وكأنها تتفتح لتستقبل مع زهوره ووروده ورياحينه ذلك الطعم الرائق الذي يظل مذاقه يطل بين الحين والحين، لكننا مع كل هذا الربيع الذي نحب لا ندري ماذا تخبئ لنا الأقدار نحن الذين نمضي في مسيرة الحياة، كأن قلوبنا قد أغلقت فلم تعد تتحمل أن تبدو في واقعية ما تريد.

في هذا الجو الذي أعيش التقيت مع أمسي الذي مضى، ويومي الذي أرى، وغدي الذي

لا أعرف إلا أنني سوف أكون فيه مع العمل الدائب المضني في طريق واحدة، وإني لعلى يقين أن ما سوف يشجعني على أن أمضي في إصرار عجيب هو حبي لهذه المهنة التي أفردت لها تلافيف عقلي ومخي وقلبي أيضًا.

في الغد سأودع القاهرة وأصدقاء القاهرة وكل من عرفت لأذهب بعيدًا في رحلة العلم الطويلة التي أهيئ نفسي لها منذ مدة وفي قلبي إحساس النجاح الذي سأجد، أما أخي فقد زادت رسائله بكثرة، شعرت خلالها أنه يستعجلني لأن أعود.

تذكرت الزقاق وأيام الزقاق وسنوات الحياة التي أمضيتها في الزقاق بين أصدقاء لا أزال أذكرهم وأذكر كل شيء عنهم، أَوَلَيسوا هم رفاق الأمس، وأصدقاء الماضي؟ فالحاضر في كثير من الأحيان لا يجود ببعض من عرفت، تذكرت وأنا أستعد للسفر إلى بلدي حوارًا دار بيني وبين ازدهار إحدى الزميلات عندما سألتني سهاد أمامها لم لا تفكر بالزواج والاستقرار في بلدنا؟، عندها أجابت هذه الزميلة: ربما هو مثلي نذر نفسه للعمل فقط. قلت بتعجب: ولكن المرأة هي أساس الأسرة تصنع من نفسها سياجًا يحمي صغارها وبيتها. قالت: ولكن ليست أنا هذه المرأة، قلت: يعني أنك لم تفكري مثل بنات حواء بزوج وبيت وأولاد؟، قاطعتني وقالت: دعك مني فأنت لم تجب على سؤال سهاد.

قلت في تلعثم: أتريدين الحقيقة؟! قالت بإيماء من رأسها: نعم، قلت: وهل ترضين أن تأتي معي إلى أرضي وأهلي؟ فأنا لا يمكن أن أبقى طوال حياتي بعيدًا عن موطني، قالت: لا، لسبب واحد ألا وهو أنني أرى أن علَيّ واجبًا يجب أن أؤديه هناك في قريتي بالصعيد وإلا لما تغربت، نعم علي واجب يجب أن أمنحه لفتيات قريتي، أكون قدوة لهن في عمل دائب يرفع من شأن قريتنا.

قلت: وأنا كذلك، نحن يا سيدتي وجهان لعملة واحدة، أنت تريدين العودة إلى أرضك، وأنا كذلك دعيني أطلب منك شيئًا، هو أن نظل أصدقاء نحن لنا نفس الميول والاتجاهات، قالت: وهل يسمح مجتمعك أن تكون هناك صداقة بين المرأة والرجل؟.

قلت: لا أدري وصدقوني بأنني ساعتها لم أكن أعرف ماذا أقول، إلا أنني مع كل هذا أخذت أفكر في أمر هذه الفتاة التي تصر على أن تبقى عانسًا طوال الحياة. لكن الدكتور زهير الطبيب المصري المعروف وأستاذ ازدهار في مادة التخصص خيب ظني فيها لأنني علمت بعدها بأيام أنه في طريقه لأن يقترن بهذه المرأة التي قالت لي ما قالت.

يوم التقيتها مرة ثانية قلت لها: هكذا أنتن الحرائر تتمنعن وأنتن الراغبات، ضحكت مني ازدهار وقالت: صدقني كنت أظن أنني سأرفض خطبته لولا تأثيره النفسي علَيّ، أنسيت أنه أستاذي، ووجودي على مقربة منه يمنحني القوة لأن أمضي في أداء رسالتي.

والقرية يا ازدهار؟ ابتسمت استحياء وقالت: سأزورها بلا شك وسأحاول أن أمنح أهلها بعض عملي.

قلت: مرة كل عامين؟. وانتفضت كمن لسعتها نحلة: لا بل في كل عام، وصمتت ولكنني أنا الذي لم أصمت لقد أخذت أفكر في كل هذا الذي قالته ازدهار ثم قلت لنفسي: لا، ستنسى ازدهار القرية وستكتفي بتواجدها في المدينة على مقربة من زوجها وأستاذها، فطالما أخذت المدينة العناصر الجيدة من القرية وصبغتها بصبغتها التي نعرف.

تلك هي سُنة الحياة فالإنسان يبحث دائمًا عن الأصلح في هذه الدنيا التي تموج بشتى ضروب المصلحة الذاتية الآنية منها والآجلة.

نظرت إلى عيني ازدهار وقالت: أعرف ما تفكر فيه، ثم ابتسمت ابتسامة صافية شعرت بعدها بأنها فعلاً قد اختارت الطريق الذي تريده الحياة لها رغم كل شيء، وإن كانت أرادت العكس في يوم من الأيام.

وشغلت عنها بعض الوقت بالتفكير في حياتي وظروفي واستعداداتي التي أراها تنطلق من مخيلتي على أشكال متباينة، لكنها أي حقيقة الأمر أوضح من أن لا أراها على ما هي عليه من تلون وكأنها هي الأخرى أشبه بهذا العالم الذي نعيش على أرضه.

أشبه بموجات البحر الدافئة والباردة معًا تتجاذبنا رياح الأمس واليوم والغد الذي نرمق، لكننا قبل هذا كله وبعد. لا نعدو أن نكون من طينة هؤلاء البشر الذين يعيشون على أرضه برغبة وبدون رغبة، ومضيت ألملم نفسي بعيدًا عن ظروف الحياة ورغباتها التي نعايش، وبدأت أنظر إلى الماضي والحاضر بعين نافذة ترى طريقها بالفعل في ظلال من الخوف والأمل والحب، يدفعها إلى كل ذلك موروثات، توارثناها عن الآباء والأجداد دون أن ندري أو نعرف أو حتى نحس، لكننا نواصل الطريق في دروب الأمس واليوم، تدفعنا إلى مواصلة الطريق رغبة جارفة بأن نصنع لأنفسنا تلك الهالة التي يرغب فيها الآباء والأمهات ونرغب في ظهورها نحن أيضًا لأنها مقومات هذه الحياة التي تمنحنا القوة لأن نصل إلى بر الأمان، رغم كل تلك الصخور التي تبدو في الأفق

تطل بقسوتها على الطريق، تحفزنا على أن نقفز عليها بإيمان يجعلنا ندرك حقائق هذه الحياة التي نعايش، وحقائق هذا الإنسان الذي يعيش على ظهرها فرحًا حينًا وحزينًا في كثير من الأحيان.

وأطلت ابتسامة ازدهار وكأنها تكبر مع الشفق الذي يبدو ويطل على عالم اليوم من وراء السجف مستكملاً صور الإرادة التي منحها الله لهذا الإنسان الذي أورثه هذه الأرض وصنع منه خليفته عليها ليعيش فيها وعليها ويستمتع بخيراتها ويرمق تطورها وتقدمها أيضًا، ويساهم في رصف الجسور التي تدفع عجلتها إلى الدوران دون أية رتابة، وكأنها تبحث عن المجهول الذي نلهث جريًا وراءه، ونعاتب أنفسنا ونضحك عليها ونحن نؤكد بأننا سنلحق ذلك المجهول وندركه لكنه يكبر ويكبر، ثم يختفي قبل أن نختفي نحن عن الآخرين ليأتي غيرنا ويواصل المسيرة.

***

الفصل الثاني عشر

أشياء صغيرة يصبح لها مدلولها ومفهومها لدى الإنسان، لهذا لا زالت كلمات سهاد ترن في أذني وهي تقول وابتسامتها على شفتيها: (بيت المرأة هو كتف الرجل الذي تسكن إليه وتضع رأسها عليه) إذا كانت مطمئنة.

الطريق إلى لوس أنجلوس في كاليفورنيا طويل وطويل جدًّا وأنا في باطن الصندوق الذي يطير حول هذه الدنيا في أناة وصبر، والعديد من الأفكار تطفو على سطح أفكاري وأنا هنا في هذه المقصورة ومن حولي فتيات تبتسم الواحدة أكثر من ابتسامة في الثانية الواحدة رغم ما يكابدن من مشقة وما يلاقين من متاعب.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أسافر فيها من القاهرة إلى لندن، ومن لندن إلى لوس أنجلوس، فالطائرة التي اخترتها تعود لشركة أمريكية فاقت شهرتها الآفاق، لكنني مع كل هذا لم أكن مطمئنًا كل الاطمئنان لهذه الرحلة، صحيح فأنا لم أفقد قلبي وعقلي في القاهرة ولم أتركه أمانة لدى أية أنثى، وإن عبرت في طريقي أكثر من أنثى ربما لأن مبادئي كانت ترفض مني أن أنصاع لما يجري من أحداث، وليقل كل من يقرأ هذا الكلام ما يقول، فأنا أعني كل حرف من الكلمة التي أقولها، قد تأسرني ابتسامة امرأة جميلة أو أنيقة، لكنني أستطيع الفكاك من أسر هذه الابتسامة بأسرع مما يتصور أي إنسان.

في الطائرة التقيت بواحدة من هؤلاء اللواتي يعرفن كيف يأسرن الناس بابتسامتهن فأجبت على ابتسامتها بابتسامة قربت المسافات بيني وبينها فمضت تحادثني حديثًا عابرًا كلما مرت بمقعدي في هدوء حتى إذا نام أكثر ركاب الطائرة. إذ كانت الرحلة ليلاً. أخذت ألهو بكتاب أعددته لهذه الفرصة، جاءتني المضيفة سارة. هذا هو اسمها. بشيء من المرطبات لم أطلبه، قالت: لا بد أنك مثلي لا تستطيع النوم في الطائرة، ولهذا رأيت أن أتحفك بنوع من الشراب يعجبني بشكل خيالي فربما أعجبك مذاقه.

نظرت إلى وجهها فرأيت ابتسامتها تطل على شفتيها بشكل أكبر، فقلت: شكرًا، لكنها لم تدع

الفرصة تذهب من يدها وقالت: أنا من سكان لوس أنجلوس التي تقصدها، عندها نظرت إلى وجهها وقلت: أنت تأتين إليّ من السماء، فأنا لا أعرف من لوس أنجلوس إلا اسمها على الخريطة وضحكت، أحد الركاب استدعاها فذهبت إليه مسرعة ثم عادت لي بعد أن لبت طلبه.

ولقد تحدثت إلى سارة كثيرًا وعرفت منها أنها لا تمانع بأن تكون دليلي خلال الأيام الخمسة التي ستقضيها في لوس أنجلوس وشعرت بأنها ستكون بالنسبة لي شيئًا مفيدًا أنا الذي لا أعرف تلك المدينة.

ولقد مرت ساعات السفر - رغم وجود سارة وحديثها - طويلة مملة لا أدري لماذا؟ ربما لأنها المرة الأولى التي أسافر فيها وأقضي كل هذه الساعات في الطائرة، حتى إذا ما وصلنا إلى مطار لوس أنجلوس أخذت بيدي سارة وكأنها تحاول أن تحافظ على طفلها الغريب. شعرت بهذا الإحساس الذي لا أدري كنهه واستسلمت ليدها الحانية، وأصبحت أشعر بكثير من الشجاعة لأنها أصبحت بجانبي، تلك الرحلة من رحلات العمر لا زلت أذكر تفاصيلها.

ففي فندق حياة ريجينسي هناك على كرسي الغرفة الأنيقة أمضت سارة معي بعض الوقت ثم أستاذنت لتزور أسرتها، بعد أن وعدتني بالعودة في الساعة التاسعة ليلاً لنمضي السهرة معًا، سألتها عن أسرتها، فقالت: أمي هي كل أسرتي.

وأبوك؟ ضحكت، وقالت دون خوف: لا أعرفه ولم أره، ظننت أنه مات وهي صغيرة، فلمت نفسي على السؤال، لكن ضحكتها الصغيرة أعطتني مزيدًا من الحرية لأن أسأل أكثر وأكثر، حتى إذا ما كثرت تساؤلاتي قالت لي في جدية: قد يصبح لدينا من الوقت الكثير الذي يسعدني فيه أن أشبع فضولك وابتسمت، فشعرت بأنها لم تنزعج لهذا الفضول الذي لم أعرفه عن شخص طوال سنوات حياتي الماضية.

مضت سارة لشأنها وألقيت بجسدي المتعب على الفراش لأنخرط في نوم عميق تخللته أحلام كثيرة لم أعِ عندما رن التليفون وأفقت من نومي على أي شيء، وتسلل إلى سمعي صوت سارة يسألني عما إذا كنت مستعدًا للسهر فأجبتها بالإيجاب وكأنني طفل صغير يسعد بلعبته الجديدة، ونزلت إلى ردهة الفندق بعد أن ارتديت ملابس الخروج لأراها في فستانها الرائع وتسريحتها الجديدة شيئًا مغايرًا لأنثى الأمس التي رأيتها.

هتفت من أعماقي وقلت: أنت رائعة! فشكرتني بابتسامتها ثم أمضينا بعضًا من الوقت في

الردهة لتطلعني على برنامج السهرة الذي لم أعِ شيئًا منه.

قلت لها: أَوَلَيس من الأفضل أن نستأجر سيارة لتنقلنا إلى المطعم الصيني الذي فضلته؟

فقالت: ولماذا؟! فسيارتي في مدخل الفندق تنتظرك في هدوء.

نظرت إلى عينيها نظرة حانية وكأنني قد وجدت المعين الذي سيساعدني هنا في البلد الذي لا أعرف، وأمضينا ليلة رائعة تناولنا فيها الطعام على أنغام لحن صيني خافت وأضواء صغيرة أشعرتني بالسعادة، وانتهى العشاء لنعاود طريقنا إلى الفندق وهي تقول لي: لم أرد أن تكون سهرة طويلة فأنا وأنت متعبان، وغدًا لا بد ستقدم أوراقك إلى الكلية. وسأحضر صباحًا لآخذك إليها والاطمئنان عليك، ثم ودَّعتني وهي تعدو مرة ثانية إلى سيارتها كمُهرة رشيقة عرفت طريق أقدامها على الشارع الأنيق المتلألئ بالأضواء الكثيرة.

ترى ماذا يخبئ لي القدر في هذه المدينة الكبيرة التي يموت الهدوء في كل ركن من أركانها، في الغد جاءت سارة لتصحبني إلى الكلية، في الطريق قالت بأن خالها أستاذ جراحة الأعصاب في الكلية التي سألتحق بها وأنها تحدثت عني له حديثًا طويلاً، وأنه وعدها بأن يساعدني في تهيئة الظروف للحياة في الكلية بشكل يساهم في تخفيف ظروف الغربة عني.

استغربت تحمّسها لي، وشعرت بأنها فعلاً قد أسدت لي معروفًا، فعند مدخل الإدارة صافحني أحدهم في محبة. قالت سارة: هو ذا خالي إدوارد الذي حدثتك عنه، ومضينا إلى مكتبه بعد أن استأذنت على أن تعود لإعادتي إلى الفندق بعد إنهاء ترتيبات تسجيل وصولي إلى الكلية.

أمضيت مع الدكتور إدوارد أستاذ جراحة الأعصاب يومًا حافلاً استطعت خلاله أن أصل إلى ما أرغب وأصبح بمقدوري أن أباشر مهام الدراسة من الغد، أنا الذي كنت أنظر إلى الموضوع بخوف شديد ربما لأنني لا أعرف أسلوب الحياة التي تمارس في جامعات أمريكا.

بدا الأمر في نظري أسهل مما أتصور وعرفت بالفعل لماذا يتقدم الغرب على العالم العربي بأساليبه العلمية التي اخترعها من أجل تبسيط الأمور وعدم تعقديها.

في المساء جاءت سارة إلى الفندق، أمضينا أمسية رائعة شعرت خلالها أنني أقابل واحدة من أفراد أسرتي.

تحدثت سارة عن كل شيء، عن أمها التي تزوجت والدها لفترة وجيزة ثم هرب إلى مدينة أخرى غير هذه المدينة ومع زوجة جديدة، وهذا الوالد لا يرغب في رؤيتها وهي كذلك، وقالت لي

أشياء أخرى فلسفت بها العلاقة التي كانت بين أمها وأبيها، لم أعد أفكر طويلاً في هذا حتى جاءت الصدمة الثانية.

فلأمها ولد وصبية لا يزالان صغيران يعيشان مع أمها وأبيها الجديد الذي مات هو الآخر في سن مبكرة، مضى الوقت بنا، هي تتكلم وأنا أصغي ثم نظرت إلى ساعتها وقالت لي: إن عليها أن تذهب الآن وإنها ستعود إليّ صباحًا لتريني أكثر من شقة بدل البقاء في الفندق الذي يكلف كثيرًا، وأشارت بأنها لا تمانع بأن تستأجر معي الشقة مناصفة وأن تساهم في تكاليف البيت، وقالت بأنها طلبت نقلها للعمل داخل المطار بدلاً من الشحططة على الطائرات هنا هناك.

وأفرغت حقيبتها بما تحوي من أحاديث وهي تضحك، حتى إذا ما كانت النهاية قالت لي وهي تبتسم: أوَلاتقول شيئًا؟!.

قلت وأنا في شيء من الخجل: ماذا تريدينني أن أقول؟.

قالت: حدثني عن حياتك، عن أسرتك، مجتمعك، بلدك، فأنا لا أكاد أعرف شيئًا عن بلادك سوى أنها أرض البترول.

صمتت هي ومضيت أنا إلى حقيبتي لأعطيها كتابًا مصورًا عن الوطن والأرض التي أحب. قلت لها: بعد أن تقرأيه سنتحدث عن كل شيء وبالتفصيل.

حملت الكتاب بين يديها وودعتني بعد أن قالت: لقد أخبرت أمي عنك وعن لقائي معك. واتفقت أنا وهي على دعوتك لتناول طعام العشاء في بيتنا الصغير خارج هذه المدينة التي لا تهدأ.

في الصباح التقيت بسارة وهي جزلة مشرقة، ومضينا لنرى أكثر من شقة في تلك المدينة الكبيرة حتى إذا ما انتهينا من رؤية آخر شقة سألتها: وأنت أين تقطنين الآن! ألست مع أمك؟!

قالت: لا أعيش في غرفة استأجرتها من خالتي، فأنا كما تعرف لا أستطيع استئجار شقة بمفردي، كما أنني أكبر من أن أطلب من أمي أن أعيش معها في بيتها الصغير، ثم عاودتُ السؤال: وهل أجد غرفة ثانية لي عند خالتك؟ قالت: نعم، ومضينا لنرى شقة خالتها التي لم تكن موجودة، وإنما كان زوجها في الشقة في تلك اللحظة.

قابلني الرجل باحترام شعرت بعده بأن كل ما عرفت عن زنوج أمريكا مبالغ فيه، فقد كان زوج خالتها من هؤلاء الذين جاءوا من أفريقيا يوم كان القراصنة يجلبون الرجال والنساء منها بقوة وقسوة، واتفقت مع الرجل على استئجار الغرفة التي تواجه غرفة سارة بمبلغ شعرت أنه غير

مكلف، ثم أمضينا لجلب أمتعتي حتى إذا ما استقرّيت في غرفتي الجديدة مضيت إلى الكلية بمفردي هذه المرة. على أمل اللقاء ليلاً لتناول طعام العشاء عند والدتها التي استقبلتنا بكثير من الحفاوة، وشعرت بأنني أكاد أعرف هذه المرأة لكثرة ما تحدثت سارة عنها.

وكان العشاء على أضواء الشموع التي اختارتها أمها لمناسبة لم يطلعوني عليها ولم أعرف ما هي حتى جاءت سارة بتورتة ميلادها وأن أمها قد ضربت عصفورين بحجر، دعتني أنا الزائر الغريب واحتفلت بيوم مولد ابنتها في هدوء، وتحدثت إليّ الأم عن طفولة سارة وشقاوتها، وكيف استطاعت أن تمنحها الفرصة لأن تدرس حتى تنتهي من الجامعة، وساعتها عرفت بأن سارة من خريجي كلية الحقوق التي تعتبر ذات شأن في الدراسة الجامعية الأمريكية، فقد كان طلابها وطالباتها من الذين أنهوا دراسة البكالوريوس أولاً.

وسألت سارة لماذا لم تعمل في حقل دراستها؟ فضحكت وقالت: أَوَتُريدني أن أدافع عن السود أم عن الهنود الحمر؟!! أم تريدني أدافع عن حق هؤلاء المجرمين المنتشرين في طول المدينة وعرضها؟!!.

قد أكون غبية لكنني بعد أن أمضيت سنوات التدريب لدى أشهر مكاتب المحاماة في لوس أنجلوس شعرت بأن العدالة لا تأخذ مجراها في هذه المدينة، وأن المجرم الذي يملك من المال ما يستطيع أن يدفعه لمحام شاطر قادر على الهرب بجريمته والنجاة من سيف العدالة، ولهذا كرهت المحاماة، وبحثت عن مكان أرى من خلاله العالم حتى إذا ما كلت قدماي من البعد والسفر والترحال فكرت في العودة إلى الحياة في مدينتي لأرمق الفجر الذي أريد أن أراه ولم أره منذ مدة طويلة.

***

الفصل الثالث عشر

لم تعد الحياة في أمريكا تبدو بالشكل الذي كنت أظنه عندما أتيت أول مرة، فالعالم لم يعد أرضًا وجبالاً وبحارًا، العالم الذي احتوى هذه الملايين من البشر أرحب من أن نقطع مدنه وشواطئه وموانيه بأنظارنا، أصبحت أرى العالم شيئًا جديدًا؛ أراه قلبًا يخفق أكاد أسمع نبضاته تتداخل في أعماق عروقي، أنا الذي جئت من زقاق الطوال في طيبة الطيبة كثيرًا ما ناقشت نفسي في كل هذا؛ أراه لكنني لم أجد مثلاً لحياة أبناء زقاق الطوال وأسر الزقاق. ومُثُلهم وقيَمهم وعاداتهم.

لا تقولوا بأنني إنما أحاول أن أبرز مظاهر الحياة في ذلك الزقاق المليء بالحب والتعاون والإخاء وأقارنها بما أراه فأجد أوراق كل المدن التي رأيتها والتقيتها تكاد تتساقط أمام ناظري، أنا الذي عشت تحت ظلال تلك الشجرة الأصيلة هناك على ضفاف العقيق وبين جداول المياه الرقيقة في قباء والعوالي وسيدي حمزة والعيون وقربان.

أجتر معاني كل هذا الحب الوارف وأستظل سماء طيبة الصافية.

قد يكون الناس غير الناس والعالم غير العالم، لكننا عندما نتلاقى وتتلاقى أعيننا في ظل وهم البحث عن الحضارة ندرك معاني كل هذه الفروق وتستولي على أنفسنا فرحة المنظر وكآبته أيضًا، ربما لأن العجينة التي صنعت إحساسنا وتقاليدنا تختلف كل الاختلاف عن كل هذا الذي أراه وأراقبه بالحب والإعجاب تارة والكره تارة أخرى.

سنوات العمر مضت، تناثرت خلالها نفسي بين الحب والكراهية مع كل هذا أظل قويًّا متماسكًا، أعرف من علوم الدنيا بمقدار ما أرى أنها توافق نظرياتي ونظريات أهل الزقاق فطالما ساءلت نفسي: ترى لماذا يسير الناس في هذا الجزء من العالم بكل هذه السرعة وكأنهم في سباق مع الزمن؟، فأجد الإجابة تتلخص في جملة واحدة: عندما يفقد الإنسان الأمان على أرضه تراه يلهث ويلهث بحثًا عن هذا الأمان المفقود الذي يتمثل عند أحدهم في توافر المسكن اللائق والمال الوفير والثقافة الواسعة والمركز المهيب، لكن النظرة تختلف بين إنسان وآخر فنجد البعض يسعى ويجري في هذه الأرض ليمنح نفسه وأهله الزاد الذي هو في حاجة إليه.

قد تختلف النظرة بين هذا الإنسان وذاك لكنها تجتمع كلها في الرغبة للوصول إلى بر الأمان الذي نفقد، فالعالم المتحضر فقد أمنه وأمانه منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية.

سارة هذه الفتاة الطيبة التي حاولت أن أزرع في قرارة نفسها أشياء كثيرة عن تقاليد أرضي لم تكن تمانع كثيرًا في التعرف على هوية أبناء الزقاق، ورغم أن هذه الفتاة العجيبة منحتني فرصة التعرف على المجتمع الجديد بصورة أكيدة إلا أنها كانت متفقة معي في كثير من المناقشات التي دارت بيني وبينها عن أشياء كثيرة في هذا المجتمع الجديد، مجتمعها الذي تعيش.

قالت لي مرة بأنها فكرت كثيرًا وأسفت لأنها جاءت إلى الحياة على هذه الأرض، وقالت: إن الإنسان عندما يولد على أرض أية مدينة لا يكون له أي دخل في تواجده عليها، وقد يحبها أو يكرهها، ولكنه يظل مشدودًا إليها حتى يجد من يشده إلى أرض أخرى.

سارة أصبحت واحدة من القارئات الملمّات بكل ما يصلني من كتب عن عالمنا الشرقي بعاداته لدرجة قالت لي يومًا بأنها ستقوم بجولة سياحية ترى فيها كل هذه البلدان على طبيعتها.

ضحكت وقلت: ربما يقدر لك ذلك ويتسنى لي عندما أعود إلى أرضي أن أستقبلك وتستقبلك زوجتي وأسرتي أيضًا.

وبدهشة قالت: أَوَيُمكن أن يأتي هذا اليوم؟ قلت: نعم، فالعالم كما ترين صغير وصغير جدًا، ولهذا نجد أنفسنا من خلال ظروفنا ومعايشتنا لأحوال الناس، نرى أشياء كثيرة قد نقبلها أو نرفضها، وفي كلتا الحالتين نحن نبحث عن أنفسنا فلا نجدها لأنها تسربت من خلال سرعة هذه الاتصالات وجري العالم ولهاثه وراء المجهول والمعلوم في آن واحد، وقد نجدها أيضًا في نفس الموقع والظروف، الناس في هذا العالم يتغيرون، تتغير أحوالهم وظروفهم وحتى عاداتهم وتقاليدهم ذلك شيء هام وضروري التقيت به وحاولت أن أستعيد حياة الزقاق وأهل الزقاق، لكني عندما أمعنت النظر في أمر الزقاق وجدته هو الآخر أصبح جزءًا من الماضي، يحبه البعض وينساه البعض ويكرهه البعض الآخر، لأن طبيعة العصر تحاول دائمًا أن تقفز على حواجز الماضي وأن تهيل التراب على بعض ذكرياتها بحثًا عن الجديد الذي سيصبح قديمًا بعد زمن.

ولقد أغمضنا أعيننا عن الماضي وذكرياته حتى إذا تداعت أجزاء صغيرة من كل تلك الذكريات للملتها في حب.

في هذه المدينة العجيبة ـ لوس أنجلوس ـ نجد جميع أنواع الجنسيات من البشر في العالم؛ فهذه الوجوه التي تختلط دماؤها ونظراتها وظروفها وعاداتها استطاعت أن تنصهر في هذا المجتمع الأمريكي لدرجة تجعل الزائر لهذه المدينة يظن نفسه وكأنه في كرنفال بشري من جميع أنحاء العالم، ومع هذا الانصهار إلا أن تكاثر المطاعم وأنواع الأكل وتناثرها في المدينة يجعل الإنسان يحس وهو مكانه كأنه في أكثر من قارة من قارات هذه الدنيا.

الدكتور كميل لبناني لا يعرف العربية، جاء مع والدته ووالده إلى أمريكا وكبر فيها وتعلم في جامعاتها حتى أصبح من أشهر أطباء القلب، أحس به وهو العالم وكأنه يجهل كل الجهل أحوال موطنه الأصلي التي تحاول الصحافة الأمريكية بتعليقاتها المطولة تحليل أسباب هذه الحرب الأهلية التي تدور رحاها هناك في لبنان التي لا يدري عنها شيئًا، لم أكن أظن أنني سأصبح على صداقة عميقة بالدكتور كميل ربما لأنني عندما التقيته ظننته وهو العربي الأصيل سوف يقابلني بما تعودنا نحن عليه في مجتمعاتنا، لكنه لم يكن كذلك، كان أشبه بأي أمريكي نلتقي به في أي مكان في هذه الدنيا، ولهذا لم آلفه لكن بطول المعاشرة أصبحت أميل إليه وأسأله عن أشياء كثيرة أراها ولا أفهمها فيجيبني في انفتاح كبير، في احتفال صغير أقامه الدكتور كميل بمناسبة مرور عشرين عامًا على زواجه دعيت إليه في بيته بشارع (وود ستوك رود) التقيت بالعديد من الأمريكيين ذوي الأصول اللبنانية، شعرت تلك الليلة أن هناك جذورًا صغيرة تشد الناس بعضها إلى بعض رغم انصهارهم في مجتمعهم الجديد، فتراهم يميلون إلى بعضهم عفويًّا ودون تخطيط، عندما التقيت بشقيقة الدكتور كميل ـ التي لم تتزوج بعد ـ شعرت بأن هذه الأنثى أقدر على معرفة لبنان من كل هؤلاء الموجودين لا لأنها قرأت الكثير عن الشرق الأوسط وإنما لأنها تحاول دائمًا أن تزور موطن أجدادها الأصلي، تحدثت إليها طويلاً وتحدثت هي أيضًا عن بيتهم الصغير الذي زارته مؤخرًا للمرة الثانية في قريتها التي أحبّتها ولهذا تذكر جيدًا كيف أمضت شهرًا كاملاً مع سيدة عجوز من أسرتها عن بُعد، تتحدث إليها بلغتها العربية المكسرة لتتعرف على الماضي والحاضر.

ولقد أعجبت رشا بنوع الحياة التي تمارسها الأسرة اللبنانية وقالت بأنها التقت بأسرة سعودية أثناء تواجدها في بحمدون (ذكرت لي اسم العائلة) وشعرت بأن هناك نوعًا من الحياة تمارس في بلادي بأسلوب أفضل حيث تلتف الأسرة بعائلها وأهلها وترتبط ارتباطًا وثيقًا بأرضها وتقاليدها. ولكم سعدت برؤية هذه الإنسانة التي أحسست أنها تشاركني أفكاري رغم

أنها تعيش في محيط مغاير لمحيطي، وعندما نمت روابط الصداقة بيني وبينها والتقيت بها أكثر من مرة سألت نفسي: ترى أَوَيُمكن أن أقترن بهذه الفتاة؟، وجاءت الإجابة على ما أتوقع، فأنا على الرغم من أنني أميل إليها إلا أنني أرى أنها لا يمكن أن تصبح زوجتي في يوم من الأيام فلقد عاودني الحنين إلى الزقاق وأهل الزقاق وتقاليد الزقاق الذي ذهب مع الريح بينما تموج هذه المدينة الجميلة (لوس أنجلوس) بقذارات شتى صنعها إنسان هذه الأرض بحماقاته ومنحها رعايته لتبدو وكأنها جزء من تاريخه الشقي، في الوقت الذي تبدو في الأفق علامات صحو صغيرة لا يمكن لها أن تبدد كل هذه الغيوم السوداء التي يحلو لها أن تطل لتعكر وجه الصفو على أرضها بحرية. لكنني عندما أنتقل إلى معامل الكلية التي أدرس وأبحث مع كل هؤلاء الباحثين أرى الوجه النقي الآخر لهذه المدينة الذي يكاد ينتشلني من زحمة أفكاري التي تراكمت وأنا أقرأ كل هذا السيل العارم من أخبار الجريمة. يبدو المكان أمام عيني صفحة بيضاء نقية نقاء كل هذه الثياب التي أراها تتمخطر هنا وهناك تخطو نحو العلم خطوات واثقة كبيرة.

لقد تعلمت الخير وعشت فيه، ولذلك يصدمني بعض هذه المظاهر التي أراها من حولي، ولكن يغسل قلبي وينقيه فترات تواجدي بين كل هؤلاء الطيبين الذين وهبوا حياتهم للعلم، ووضعوا للإنسانية أشياء كثيرة تتباهى بها أمريكا اليوم وبعد اليوم، ولكن ربما شاب الثوب الأبيض بعد الشوائب، فهل يستطيع الناس إزالة كل هذه الشوائب كما كانت تفعل أمي في الزقاق وهي تغسل ملابسي التي اتسخت بعد يوم حافل بألعاب الصبية من أترابي هناك في الطريق الترابي المتعرج الذي ألح صوره تبدو أمام عيني مرات ومرات وكأنها تحاول أن تزيل ما علق بنفسي من جراء ما أراه من سلبيات لأفكر فقط بما تتمتع به هذه البلاد من حضارة ومدنية وتقدم؟ ثم لماذا أنسى سارة ومجتمع سارة في غمرة انشغالي بكل هذا الذي أراه، أليست سارة وأمها والدكتور كميل وأخته وخالة سارة أليسوا جميعًا جزءًا من هذا المجتمع الذي قدر لي أن أجيء إليه عن رغبة طمعًا في الوصول إلى الذروة من العلم.

ولقد أفرد الكتاب صفحات كثيرة كنت أقرأها في صمت عرفت من خلالها تاريخ هذه الحياة التي يعايشها الناس اليوم على هذا الجزء من العالم الذي ننظر إليه على أنه عالم متطور ومتقدم، فمع كل مظاهر هذا التقدم نرى كيف استطاعت المدنية الجديدة أن تزيل آثار الأواصر الأسرية

وأن تزرع هذا البون الشاسع بين من يملك ومن لا يملك رغم الظروف المتاحة وغير المتاحة، كما ساهمت السينما الأمريكية في تفتيت عناصر الخير في نفوس بعض فئات الناس التي كانت تنظر إلى السينما على أنها مدرسة نتلقى من خلالها دروسًا لا أدري كيف أسميها، ترى هل مع كل هذا الذي قلت أستطيع أن أعرف مواطئ قدمي على هذه الأرض؟!.

سيقول البعض: إنني مجرد عابر سبيل أعايش الحياة هنا بحلوها ومرّها ثم أمضي، وإن كان هذا القول على حقيقته في بعض الأحيان، إلا أنه ليس حقًّا كله؛ فالشباب من أمثالي الذين قدر لهم أن يصلوا إلى هذا الطرف من العالم لا بد وأن يكون لهم رأي فيه بعد كل هذه الممارسة.

ولقد عرفت رأي أولئك الذين اختاروا البقاء هنا من بعضهم فرأيتهم رغم كل مظاهر البذخ والحياة المريحة يحنّون دائمًا لبلادهم ومجتمعاتهم وينعون على هذا المجتمع بعضًا من عاداته وتقاليده لا سيما بالنسبة لحياة الأسرة والبيت.

رأيتهم يخافون على بناتهم وأولادهم من هذه الحرية التي يمارسونها في هذا المجتمع.

رأيت بعضهم ينعي ذلك اليوم الذي قرر فيه البقاء، ومع هذا أجدهم يستمرون في حياتهم رغم كل المآسي التي تحيط بهم وبأسرهم وأولادهم وبناتهم.

ترى هل يقدر لي أنا الآخر أن أظل هنا إلى الأبد؟ فاستعذت بالله من هذه الفكرة وسرحت بأفكاري مع زقاق الطوال وأهل زقاق الطوال ورفاق ذلك الزقاق العريض الذي احتل مكانة في التاريخ، فخداع أبناء الزقاق ليس سهلاً رغم كل الطيبة التي تتمثل فيهم مثل خداع الأمريكيين أنفسهم بأنفسهم، فهذا الشعب الذي وصل إلى قمة العلم بقدراته غير قادر على فهم تاريخ الشعوب وآمالها واحتياجاتها لأسباب عدة يطول شرحها الآن على ما أظن، ولطالما تحدثت إلى نفسي وقلت لها: ليت أولئك الذي صنعوا التاريخ يستطيعون قراءته، لأن قراءة التاريخ ملك لأولئك الذين يأتون بعدهم، أما الذين يكتبونه فلنا معهم حديث آخر.

حديث لا يزال يتردد في أعماق أعماقي يريد أن ينطلق وينطلق وينطلق، ومع هذا يظل هادئًا ساكنًا في أعماق أعماقي يبحث وينقّب في ظروف الأمس واليوم والغد الذي يجب أن تراه أعيننا نحن أبناء هذا الجزء من العالم، الشرق الذي يقولون عنه بأنه لا يمكن أن يلتقي مع الغرب وحياة الغرب وحضارة الغرب وظروفه أيضًا، بل وعاداته وحياته التي يمارسها أبناؤه على أرضه.

***

الفصل الرابع عشر

الناس فيما يعشقون مذاهب، هكذا يقول الشاعر العربي، وأنا أعشق الحرية وأحبها، ولكن ليست تلك الحرية التي أراها تمارس بين شباب كاليفورنيا، الحرية في نظري شيء يغاير كل معاني هذه الحرية التي يمارسها الشباب.

سارة بعد طول العشرة قبلت أن تقترن بي وقبلت أن لا تنجب طوال وجودي في لوس أنجلوس لكن الأمر سيختلف عندما أعود إلى بلادي، ولأول مرة أجدني أكذب في هدوء، وأحاول أن أغلف كذبي بشيء من الحب والحنان.

أكذب إذا قلت إنني أكرهها، قد أكون معجبًا بصلابتها وقدرتها على اكتساب مواقع أقدامها بين كل هذه الأشواك التي تدمي الأقدام، ترى لماذا قبلت بي هذه الفتاة زوجًا بعد كل هذه الشهور التي أمضيناها سويًّا لدى خالتها هي في غرفتها وأنا في غرفتي، لطالما قالت لي بأنها لم تعد قادرة على أن تفهمني بعد كل هذه الشهور التي أمضتها برفقتي، وكنت أضحك من كل هذا الذي تقوله حتى استقر أمري على أن أتزوجها، ويوم تزوجتها عادت تذكرني بالأيام التي مضت. سألتها بعد الزواج هل فهمتني الآن؟! وبابتسامة صغيرة أجابت: لا، وألف لا. فضحكت وتناسيت الأمر ومضت حياتي في الشقة الأنيقة التي اخترناها سويًّا وازدادت حاجتي إلى المال وطلبي إياه من أخي عن ذي قبل فبعث لي برسالة مطولة يسأل عما إذا كنت قد تزوجت، لكنني لم أجب على هذا السؤال في هذه الرسالة وعزوت حاجتي للمال نتيجة وضعي الجديد بعد أن أصبحت مهيأً للنجاح بشهادة البورد الأمريكية وللمصاريف التي أحتاجها في حياتي الجديدة.

لم يبخل أخي علَيّ بالمال وإنما بعث لي بكل ما طلبت وبحب.

ولقد استمرأت وضعي الجديد فإلى جانب ما أناله من نقود من أخي أصبحت آخذ مرتبًا لا بأس به من مستشفى الكلية، وفي الحقيقة لقد خلت حياتي من المتاعب بعد أن تزوجت سارة التي أصبحت تحرص دائمًا على توفير السعادة لي بمفهومها، ولم أكن أبخل عليها بهداياي التي كانت

تلومني عليها وتطالبني بأن أقتصد بدلاً من تبذير المال فيما لا طائل تحته.

ربما كانت سارة تعجبني بكل جوارحها ومشاعرها لدرجة أصبحت أخاف منها، أخاف من هذا الحب، لقد انسلخت هذه الفتاة عن مجتمعها لتصبح شيئًا مغايرًا لما رأيتها عليه، فأضحت تدور في فلكي كالنحلة تستعذب كل التضحيات من أجل أن تقيم هذا البيت وأن تضع بداخله أسرة، تمامًا كما كانت تصنع نساء الزقاق.

ولقد أحسست بحاجتها الكبيرة ولهفتها المتزايدة لأن تصبح أمًّا، رأيت ذلك في عينيها وهي تلتقي بعيون الأطفال في كل مكان تراهم فيه. ومع هذا ازداد إصراري على أن لا تنجب. كان تخطيطي أن أترك هذه الفتاة يومًا ما عندما أعود إلى بلدي، وكان هذا يؤرّقني كثيرًا بعد أن كنت لا أهتم بكل هذا، لقد أصبحت أحس بأنني غشاش كبير، فقد كان من المفروض أن أقول لها كل شيء قبل أن أتزوج منها.

ولقد حاولت أن أعرف رأيها فيما أفكر فيه فقلت لها ونحن نتناول طعام العشاء في الشرفة الكبيرة: سارة؟ والتفتت بكل حواسها وقالت: نعم. ماذا تريد من سارة يا حبيبي؟.

قلت لها - وأنا أحاول أن أجعل صوتي رائقًا لا اضطرب فيه: لقد فكرت كثيرًا في أن نقضي إجازة نهاية الأسبوع في سان فرانسيسكو فما رأيك؟.

قالت - وأنا أدرك بأنها بدأت تعي شيئًا واحدًا بأن هناك موضوع لا أستطيع أن أقوله لها، فصمتت ثم قالت: كما تريد. لكنني أشعر أنك تريد أن تقول شيئًا لم تقله.

لا.. لا.. قلتها في شيء من الكلفة ومضيت إلى غرفة نومي حتى لا تلتقي عيني بعينيها تلك اللحظة. فتكتشف عيناها ما أنا مزمع عليه.

في سان فرانسيسكو التقينا أنا وسارة وصديقة قديمة لها تزوجت أحد العراقيين الذي درسوا واستقروا في أمريكا، ولقد دعتنا تلك السيدة إلى عشاء عربي في بيتها بعد أن عرفتنا بزوجها عبر التليفون، في ذلك البيت الصغير استرددت وعيي وشعوري وأحسست بعروبتي في تلك الغربة رغم أنني بعيد آلاف الأميال، لقد منحني سعيد زوج لارا صديقة سارة هذا الإحساس، فطراز البيت من الداخل أشبه ببيوتنا في البساتين خارج المدينة، مع ظلال كبيرة من التذوق الفني. أما جدران البيت فكانت تحمل صورًا لمواقع نقدسها جميعًا فإلى جانب صورة المسجد الحرام والمسجد النبوي كان هناك رسم كبير للمسجد الأقصى. شعرت به وهو يزرع في نفسي

أصداء أليمة كثيرة لا أريد أن أطيل فيها عندما سألته عن صاحب الرسم. أجابت لارا بهدوء: إنه رسمي، نقلته عن صورة قديمة أراني إياها سعيد.

أخذنا ندردش كثيرًا أنا وسعيد عن الوطن العربي وآماله وآلامه حتى إذا ما بدر الانزعاج على وجه سارة ولارا أدرنا دفة الحديث إلى أشياء صغيرة جدًّا لكنها هامة.

أمضيت وسارة أيامًا ثلاثة كانت أروع الأيام، فلقد شعرت بأنني استطعت أن أسعد هذه المخلوقة التي سأفترق عنها يومًا من الأيام رغمًا عني، وعدت إلى لوس أنجلوس أواصل طريق حياتي في شيء من الهدوء يشوبه في بعض الأحيان شيء من المرارة، فالأيام تمضي وعودتي إلى بلدي أصبحت قريبة وسارة كما هي لا تدري من أمري شيئًا، حتى إذا ما تقدمت لنيل شهادة التخرج أحسست بأن سارة دائمًا ساهمة واجمة تتحدث معي في شيء من الحب محوط بحزن تحاول أن تخفيه حتى كانت تلك الأمسية من ليالي الربيع الجميلة، وقد التقت عيناي بعيني سارة في تساؤل أوشك أن يفضح أسراري التي حاولت أن أهرب بها بعيدًا عنها.

قالت سارة وهي تحدثني في هدوء: قد أثق بك أكثر مما أثق بنفسي، إلا أني اليوم أجد نفسي غير قادرة على المضي في هذه الثقة. وأشعر بأن من واجبي أن أتحدث إليك بكل صراحة، لماذا ترفض أن أنجب منك ما دمت زوجتك. ولم أَدَعِ الوقت يضيع طويلاً بل قلت لها: قد يكون السبب أنانيتي لأن نعيش سويًّا أكبر مدة ممكنة دون أن يكون لنا فيها شريك.

نظرت إلى وجهي وقالت: وإذا أصررت؟ قلت دون تردد: أرفض هذا الإصرار وأعتبره نوعًا من العصيان لإرادتي لا أقبله كرجل شرقي.

وصمتت لكن عيناها لم تصمت. كان صمتها أقسى من كل كلمة تقولها، لكني لم أضعف واتفقنا على أن نترك الإنجاب حتى عودتي إلى بلدي وتهيئة الجو لقدومها، ومن ثم تصبح قادرة على استقبال المولود الذي نريد وعلى أرضي أنا كما ذكرت.

وتهيأتُ للسفر بعد أن رتبت جميع أموري مع الكلية وحان وقت سفري لأفاجأ بسارة قبل ليلة السفر وهي تقول: أخاف أن أفقدك يا وليد. فقلبي يحدثني بهذا.

ضحكت وقلت: تفاءلي فسأصل بسلامة الله إلى بلدي دون أن تسقط الطائرة.

قالت: ما هذا عنيت وإنما أخاف أن تنسانا هناك وتنشغل بحياتك الجديدة!.

لم أقل شيئًا بل قبّلتها على رأسها ورجوتها أن تهدأ، حتى إذا حان وقت الوداع قالت لي: أو

تأذن لي أن أعود إلى العمل، فقد أضيق بالوحدة في غيابك. قلت: لا بأس ولكن بشرط أن تعديني بأن تنتظري طلبي للتوجه إلى أرضي وبلادي.

وهكذا عدت إلى جدة لألتقي بأرضي وأسرتي وأصدقائي وأنشغلُ فيما أُوكِل إلَيّ من عمل، وإن كنت لا أنسى أن أتصل بسارة بين الفينة والفينة، وأن أكتب إليها رسائل مطولة وأبعث إليها بما يتوفر لديّ من نقود.

كانت كل مكالمة تلفونية أجريها معها تسألني متى يقدر لي أن أجيء لعندك؟ فأعتذر وأقول لها بأن ذلك سيكون قريبًا حتى مر على سفري من لوس أنجلوس ستة شهور أحسست بعدها بأن حياتي أصبحت خواءً أحاول أن أملأه بأي شيء، وتذكرت كيف كانت رحلتي إلى جدة عندما ركبت الطائرة من نيويورك إلى جدة لألتقي على ظهرها بأكثر من مضيفة. كنت أرى في وجه كل واحدة منهن وجه سارة الذي لم يغب عن ناظري لحظة واحدة، وأخذت أفكر كثيرًا في معنى هذا الإحساس الذي أراه يملأ كل جوانحي، فأدركت أنني ولطول العشرة أصبحت أحب تلك الأنثى التي قدمت لي خدماتها دون أن تعرف من أنا، ولكن، هل كنت أستحق منها كل هذا الحب، وهل كانت تستحق مني هذا التجني؟ لا أدري ربما كنت مقصرًا، بل غادرًا لدرجة كبيرة بالنسبة لهذه المرأة التي منحتني أجمل الأوقات وأسعدها فأعطيتها الشقاء، ومع هذا فكرت بأن أطلق سارة وأنسى كل تلك الليالي الرائعة، فربما وجَدَت إنسانًا غيري يمنحها ما لم أستطع أن أمنحها إياه، وحاولت أن أنخرط في عملي لأشغل فكري وأنأى به عن أن يلين أو يلومني، ذهبت بعيدًا بعد أن طلّقتها بأن اخترت زوجتي من وسطي الذي أعيش فيه ومضت أيامي هانئة لا ينقصها سوى الذكريات التي أحاول خنقها في أعماقي، قد أحس كثيرًا بأنني قد أجرمت في حق هذه المرأة التي أحبّتني خصوصًا وأنني لم أتزوج عن حب، لكنني أصمد أمام كل هذه التساؤلات التي تطل دائمًا من بين عيني، ومضت السنوات، ورزقت بطفل وطفلة مَلاَ عَلَيّ حياتي بعد أن كبرا، أما سارة فقد كانت لا تنسى أن تبعث لي ببطاقات تهنئة بمناسبة ذكرى أيام ميلادي وغيرها فكنت أجمعها في ظروف وأضعها في مكتبي لأطالعها بيت الفينة والفينة.

***

الفصل الخامس عشر

كثيرة هي الأحلام والأماني التي تشاغل أذهان الناس في فجر أعمارهم، حتى إذا غذّوا السير ولم يتحقق شيء منها أو بعضها نسوها مع الأيام، أما أنا فلم أنسَ سارة، أغالب نفسي كثيرًا وأحاول أن أبعدها عن محيط تفكيري خصوصًا عندما أواجه زوجتي سعاد التي لم تكن تعرف شيئًا عن ماضِيّ إلا الذي قلته لها.

وتمر الأيام بطيئة لولا نورا ابنتي ووسيم ابني اللذان شعرت بأنهما كبرَا أكثر من اللازم وأصبحا يناقشاني كثيرًا عندما أسرح بتفكيري.

لقد أحب ولداي مهنتي فالتحقا بكلية الطب وأصبحا مكان اعتزاز وفخر لي فقد كانا من المبرزين في الدراسة.

ولقد مرت أمامي وأنا في مزيد من الشوق لذكريات الأمس التي افتقدتها بعد عودتي إلى بلدي وإلى كثير من تلك التقاليد التي عرفتها يوم كنا نعيش في زقاق الطوال في أيام الطفولة وبداية الشباب، ترى أَوَيُمكن أن تمضي أكثر هذه التقاليد مع الزقاق الذي هدم أم أن عجلة الحياة تغير كثيرًا من المفاهيم.

عندما تحدثت مع نورا ابنتي عن الماضي ضحكت وقالت: تلك ضريبة العصر فنحن نتقدم يا أبي وأسلوب الحياة اليوم يختلف بلا شك عن أسلوب الحياة أيام طفولتك، ثم لا تنسَ أن التعليم الذي فتح آفاقًا جديدة للمرأة وأساليب الحياة العصرية قد تكون هي السبب في قفل نوافذ الأمس الذي عرفت، أما ابني وسيم فلم تكن له القدرة على المناقشة، إلا فيما يختص بعلومه التي يدرسها فقد كان يشاركنا حديثنا وهو يستمع مثله مثل أمه سعاد التي أحسست كثيرًا أنها كبرت كثيرًا وأصبحت تحمل بصمات واضحة من أسلوب العصر الذي نعيشه.

وجاء مرض زوجتي مفاجئًا انشغلنا جميعًا فيه لكنها كانت أشبه بمن يقاوم المرض بلا جدوى، ولقد حط عليها ذلك الوافد القاتل دفعة واحدة، أما ولداها فكانا يعرفان نوع مرضها وما تعانيه، كنا نشفق عليها كثيرًا ونرى أنها كانت الأقدر على تحمل المرض الذي يشغل بال إنسان اليوم

المعاصر.

لم أكن أغفر لنفسي أنني كنت أقارن بينها وبين سارة، لكن إحساسي بالذنب تجاه سارة يعطيني الحق في عقد مثل هذه المقارنة التي كنت أراها تطول وتطول دائمًا، في البيت وفي عيادتي وفي كل مكان أذهب إليه حتى جاء ذلك اليوم الذي فقدت فيه زوجتي.

لا أكتمكم عندما أقول بأن شيئًا من الراحة قد انتاب نفسي الهلعة، ربما لأنني ظننت أن المسكينة هي التي أخذتني من سارة وليس أنا الذي اخترت ذلك.

كنت أقسو على نفسي وأحاسبها حتى على الأحاسيس، وأشعر أنني ظلمت الأولى والثانية حتى ذلك اليوم الذي جاءتني فيه رسالة سارة المطولة ولأول مرة زادت الرسالة من همومي بعد أن قرأت محتوياتها التي جاءت: عزيزي وليد: أستسمحك العذر لأنني أكتب إليك بعد هروبك وتلقي ورقة طلاقي للمرة الأولى ولولا المناسبة لما جرؤت على أن أكتب إليك ما أكتب، أَوَتَدري كيف أمضينا أيامنا تلك قبل سفرك المفاجئ إلى وطنك في سان فرانسيسكو؟، لقد شعرت بتلك الأيام وعرفت بإحساس المرأة أنني سأفتقدك، ولذلك ولأول مرة في تاريخ حياتي معك امتنعت عن تنفيذ رغبتك وتناسيت تناول الحبة المشؤومة فقد كنت جاهلة عندما وافقتك على أن لا أنجب.

وشاء الله أن يرزقني منك ما كنت آمل وأرغب فحملت منك ولم أقل شيئًا حتى إذا ما ولدت وجاء ابنك وائل. عزمت على أن لا أذكر لك شيئًا عنه، واخترت أن يكون ابني أنا فقط، لكنني مع هذا حاولت تنشئته على كثير من المبادئ التي علمتني إياها، وانشغلت أيامي ولياليّ بالوليد والعمل الذي أمارسه واستطعت أن أمضي سنوات حياتي حتى هذه اللحظة التي أكتب إليك فيها، صدقني لم أحاول أن أخفي عن وائل أي شيء عنك، قلت له كل شيء، وقلت له بأنك أنت الذي اخترت هذا الاسم، أم نسيت يوم سألتك ماذا ستسمي ابننا لو قدر الله وجاء؟ فقلت: وائل، ثم عدت لأساليب الغش والمخادعة وأن هذا ليس وقته... إلخ. ولقد قلت لوائل كثيرًا عن محاسنك، وعمدت إلى أن يتصل بكل من يقدر لنا أن نجدهم في طريقنا من العرب. لا حبًّا فيك، وإنما تقديرًا لك وحُبًّا لوائل. فأنا واثقة بأنه يتحرق شوقًا للقائك، لكنني وبعد مجادلة طويلة وعدني بأن لا يتصل بك حتى تأتي اللحظة المناسبة، وها هي قد أتت فوائل سيحتفل بعد شهور ثلاثة مع زملائه بتخرجه من نفس الجامعة التي درست أنت فيها طبيبًا متفوقًا ناجحًا مثلك على ما أظن. طبعًا في بعض الأشياء لا كلها. لا تظنني ألومك على كل ما فعلت، لكن ثق بأنني أحببت في وائل ما كنت

أحب فيك، فلم أفكر في الاقتران بأي رجل، وسارت حياتي على نفس الوتيرة التي أردت.

لا أكتمك بأنني قد قلت لوائل بأنه جاء اليوم الذي يستطيع فيه أن يتصل بك فقد آن لك أن تعرف بأن لك ابنًا من سارة، سارة التي أشعلت أصابعها شمعات مضيئة تنير درب وائل، ويومًا ما درب أبي وائل نفسه!

ولك تقديري.

قرأت الرسالة مرارًا، وازداد خفقان قلبي، وانحدرت الدموع على مآقِيّ، وأصبحت في حالة لا أدري ماذا أقول عنها؛ بين الحزن والفرح، والأمل والألم، حتى جاء وسيم فرأيت أن أشركه في أمري فدفعت له بالرسالة ليقرأها حتى إذا انتهى منها أفضيت له بكل شيء عن حياتي وماضِيّ.

كنت أتمعن في صفحات وجهه وعينيه فلم أر الدهشة، وعرفت بأنه نوع مغاير لمن كان في سنه حتى إذا ما التقت عيناي بعينيه قال: أبي متى ترانا نستطيع أن نرى أخي ونشاركهما فرحة تخرجه؟ ألقيت بنفسي على صدره وأخذت أقبل وجهه قبلات حارة وصادقة، ومضيت أجهش بالبكاء لأول مرة في حياتي، حتى إذا ما هدأت نفسي قلت: وما رأي أختك يا وسيم.

قال: دعها لي بضعة أيام فأنا أعرف كيف أصل إلى أعماق نفسها بصدق وصمت، وفي اليوم التالي تلقيت رسالة أخرى كانت هذه المرة من ابني وائل وباللغة العربية.

قرأت الرسالة وكانت:

أبي الحبيب: لا تستغرب عندما أكتب لك هذه الرسالة بلغتنا المشتركة فلقد فضلت أمي أن أتعلم العربية إلى جانب ما أتعلم، وثق بأنها تركت لي الأمر يوم أعلمتني بحقيقة الأمر في أن أتصل بك أو لا أتصل، أدركت بفطنتي التي لا بد وأنني أخذتها عنك وعنها أنها لا تريدني أن أفعل إلا في وقت تقرره هي فرضيت نفسي أن لا أتصل بك، حتى جاء اليوم الذي سمحت لي فيه بل وأعطتني الحرية لأن أكتب إليك ما أكتب.

لا أدري يا أبي ما هي ظروفك لكنني في الحقيقة مشوق لك؛ فصورك تملأ أرجاء البيت رغم هروبك، وتحتل جزءًا كبيرًا من قلبي وقلب سارة أمي التي أحبّتك.

لو لم تكن يا أبي تستحق الحب لما أحبّتك أمي، فهي سيدة فاضلة وأنا أحبها كثيرًا. ولهذا فأنا أعرف الكثير عنك وأقرأ صحف وطني وبعض الكتب التي تأتي في طريقي، وأسعد عندما أترجم

شيئًا منها لأمي، أمي التي صنعت مني هذا الرجل الذي ستفخر به. لا أدري إن كنت قد أنجبت أم لا وإن كان قلبي يحدثني بأنك فعلت ذلك فعلاً، ولهذا فأنا مشوق لدرجة كبيرة لأن أرى إخوتي الذين لا أدري عنهم شيئًا، ولا يدرون هم عني شيئًا.

أبي العزيز: قد تكون الفرصة مواتية إذا كانت ظروفك تسمح للقاء طبيب ثان في أسرتك يتخرج من نفس الجامعة التي تخرجت وبامتياز يعلو بعض درجاتك، فقد بحثت عنها وعرفت، وحاولت أن أصنع شيئًا يجعلني أتفوق عليك من أجلك وأجلها، هي التي أعطتني الحب وحرمتني أنت منه، ومنحتني العلم ولم تمنحه أنت لي.

لا تظنني قاسيًا عندما أقول لك هذا الكلام، لكن الحقيقة يجب أن تقال حتى ولو كانت مؤلمة، لماذا يا والدي تركت سارة أمي هنا لوحدها، ولم تقل لها كل شيء قبل أن تسافر لأرضك ووطنك، لِمَ يا أبي؟

أتدري أنني لكثرة زيارتي مع أمي للأماكن التي كنتما ترتادانها أصبحت أحبها من كل قلبي وأطالب أمي أن تأخذني إليها؟ حتى أصدقائكما المشتركين أزورهم مع أمي لأتعرف على أحوالهم، وأشعر وكأنك أنت الذي تزورهم لا أنا.

تأكد يا أبي بأن سارة لا تحمل لك أي حقد أو ضغينة، أنستها الأيام كل شيء وأصبحت تدور في فلك واحد، فلكي أنا ابنها الذي تركت.

إذا كان لي من أخ أو أخت فأرجو أن تبلغهما تحياتي، ولا بأس إذا قمت بإرسال بعض الصور عنك وعن إخوتي بأقرب فرصة، إذا لم تكن قادرًا على المجيء لحضور الاحتفال بنجاحي وتخرجي.

ابنك المشتاق

وائل

دفعت بالرسالة إلى وسيم الذي قرأها وهو يبتسم حتى إذا ما جاء إلى نهايتها قال لي وبحزم: سأرتب سفرنا إلى لوس أنجلوس يا أبي، وتركني حائرًا ولم يترك رسالة أخيه معي وإنما أخذها معه، وكأنه يعتقد أنها تخصه وتخص أخته أكثر مما تخصني أنا، أَوَلَيسوا هم المستقبل وإن كنا نحن الماضي والحاضر أيضًا. ولقد أمضيت ليلة هادئة لم يؤرقها سوى خوفي من ابنتي التي أحب أن أعرف كيف ستتقبل الأمر، وماذا ستقول عن الرسالتين بعد أن تقرأهما؟ وفي الصباح

واجهتني فورًا وهي تكشر عن أنيابها للحظة وقالت لي: لم أكن أظنك يا أبي مثلهم، فقد كنت أعتقد أن أمي هي أول امرأة في حياتك.

نظرتُ إلى وجهها وقلت: ولكني لم آت شرًّا، فقد كان من المفروض علَيّ أن أتزوج، وأن أنجب. قلتها بصوت خافت، وتابعت قولي: ولكنني بعد أن عدت قطعت كل اتصال بيني وبينها بعد أن طلّقتها وأخلصت لبيتي ولأمّك. وأخي يا أبي؟ قالتها في حنان.

قلت: لا بد أنك قرأت الرسالة وعرفت بأنني لم أدر عنه شيئًا حتى وصول هذه الرسالة، فما ذنبي؟.

أجابت بتؤدة: ذنبك أن يعيش بعيدًا عن حنانك طوال كل هذه السنوات، صدقني يا أبي سأكتب لأخي وسأبعث له بصورتي وبرسالة، وسأقول له سنحضر جميعًا حفل تخرجك.

لم أشعر بدخول وسيم الغرفة ولم تشعر ابنتي هي الأخرى لكنني سمعت صوته: وسارة يا نورا ما ذنبها، لقد طلقها أبي طلقة واحة وبإمكانه اليوم أن يستعيدها لتصبح أُمًّا لنا جميعًا.

لم تترك نورا أخاها يواصل كلمته بل قالت وفي عناد وإصرار: لا، إلا هذا فأنا أرفضه.

نظرت إلى ابني وطلبت منه بغمزة من عيني أن يدع الأمور تجري في أعنتها كما يقولون فلربما استطاعت الأيام أن تكسر حدة رفض هذه الابنة التي أحب.

وخرجت نورا ووسيم وهي مصممة على أن تشارك أخاها فرحته في لوس أنجلوس في يوم تخرجه، وأحسست بكثير من الراحة فلقد ظلمته وظلمت أمّه، وحان الوقت الذي يجب فيه أن يستعيد حناني، هذا الذي عاش طوال سنواته التي مضت مع حنان أمه فقط.

***



الفصل السادس عشر

استقبلتنا سارة بحب في مطار لوس أنجلوس ومدت يدها لتصافحني في هدوء بينما انخرط وسيم ونورا في الترحيب بأخيهم وائل بكثير من الشوق والأمل، أما أنا فقد أخذت عيني تجوس وجه هذا الابن الذي أراه لأول مرة، شاقني أن أراه أكثر شبهًا بي، حتى من وسيم؛ فوجهه صورة ناطقة من وجهي، عندما كنت يافعًا. ومضيت أقبّله بعيني قبل أن تقبّله شفتاي حتى إذا ما التقت عيني بعينه رأيت دمعة صغيرة أشبه بلؤلؤة جميلة تنحدر على وجنته، وأخذ يقبل وجهي ورأسي ويدي، أما نورا فقد واجهت تحية سارة بشيء من التحفظ لَحَظَتْهُ عليها، وهي تمد يدها لتلتقي بيد سارة في تباطؤ عجيب أدركت معناه منذ أول لحظة.

وفي الفندق أصر وسيم على أن يمضي أخوه ليلة في غرفته فلم تمانع سارة، بل قالت في حب وهي تتحدث إلى ابنها: يا بني سأحضر لك ما أنت بحاجة إليه من ملابس لتقضي وقتك مع أختك وأخيك، ومضت إلى شأنها بعد أن أستأذنت.

وانهمك الاثنان في حديث طويل شاركتهم إياه نورا التي شعرت بمدى حبها لأخيها هذا الذي تراه لأول مرة، ولأول مرة أحسست بفداحة ما صنعت تجاه سارة فلقد مرت عليّ أيام ثلاثة حصرت اهتمامي فيها على ولدي وائل، لكنني خلالها افتقدت وجه سارة التي أبت أن تطل علينا خلال تلك الأيام الثلاثة.

وبدأت أفكر كثيرًا في كل هذا الذي صنعت، وازداد حبي لسارة وبدأ يغزو قلبي بدرجة كبيرة لم أشعر بها من ذي قبل.

فوجه سارة ونظراتها المتأملة وقوامها الرشيق وخطواتها الأنيقة لم تزل كسابق عهدي بها لم تحد السنوات من جذوة نشاطها على قصر الوقت الذي التقيتها فيه، وبدأت أفكر بأن أعود إلى هذه المرأة التي عذبتها وأشقيتها، وألقيت على كاهلها مسؤولية تربية ولدي هذا الذي كبر.

أمضى الأولاد أيامًا جميلة، سعدوا خلالها برؤية سارة، والتحدث معها أكثر من مرة لدرجة جعلتني أدهش عندما سمعت لكلمات نورا وهي تصفها بأنها امرأة رزينة وعاقلة ولا تستحق كل هذا الذي لقيته.

بلعت ريقي ولم أعقّب على ما قالته ابنتي وتركت الأمر لوسيم كما اتفقنا سويًا وضحكت من أعماقي عندما رأيته يغمز لي من طرف خفي، حتى إذا ما التقيته بمفردي قال لي: لقد أصبحت لسارة مكانة في قلب نورا وهو أمر يبشر بالخير، ولم يزد على كلماته القليلة أية كلمات أخرى.

قلت له: ولماذا لا تدعو سارة للعشاء معنا؟ قال وابتسامته تفضح ما كان يخبئه لي: لا تقلق يا أبي، فلقد آن لهذه الأسرة أن تجتمع مرة ثانية وذهب عني، بعد أن تركني أضرب أخماسًا في أسداس، وحب سارة يملأ كياني وأعماقي، وأخذت أتذكر مراحل حياتي في هذه المدينة مع هذه الأنثى التي أحسست أنني أذنبت في حقها طويلاً.

وقلت لنفسي: ربما يكون التحول الجديد في حياتنا قد جعلني أكثر تأقلمًا مع الحياة العصرية عن السابق، يوم جئت إلى هذه الديار كمبعوث خاص من زقاق الطوال الذي عايشني وعايشت أحداثه في طفولتي وحتى صباي أيضًا.

وأخذت أقلّب الطرف في أحداث الأمس القريب والبعيد معًا، وذكريات الزقاق وما بعد الزقاق تواصل إلحاحها لتطل مرة ثانية من بين عيني معلنة عن أن شخصًا جديدًا ربما ولد اليوم وليس قبل اليوم.

وتذكرت ساعات الحرمان التي عاشتها هذه المرأة، وقلت: لا بد أن أعوضها عنها إذا رضيت وقبلت العودة لي.

كنت خائفًا بلا شك أن ترفض هذه السيدة الحنون طلبي، وعندها ماذا سأفعل؟ هل أترك ابني يعيش معها؟ هل آخذه معي؟ لا أدري. وإن كنت أود أنه لو لم تطف مثل هذه الأفكار بذاكرتي، وجاء ذلك اليوم الذي دعانا فيه ابني وائل على العشاء في بيته.

قبلت ابنتي الدعوة بحب وطالبتني بأن أقبل أنا الآخر، فأجبتها إلى رغبتها بعد قليل من المماطلة والتسويف لأراها وهي تطالبني بالحضور بإصرار كبير، وهناك في دار وائل أو دار سارة لا فرق، التقيت بها مرة ثانية.

كانت تلبس فستانًا أسود جميلاً، وكأنها مدعوة إلى سهرة خارج البيت، أحسست بها وهي تغطي رأسها بمنديل واسع، وكأنها تريد أن تعرفني بأنها لم تعد سارة التي كانت: كل شيء في دارها يدل على الأناقة.

ومضينا نتفرج على الدار الأنيقة، حتى إذا ما جئت إلى غرفة وائل هالني أن أرى صوري بمفردي معلقة على جدران الغرفة، أما صورنا معًا أنا وسارة فلم يكن لها أي أثر.

سألت سارة عن السبب فقالت: لم يعد من حقي أن أضعها في غرفتي، أو حتى في بيتي بعد

طلاقي، لولا وائل وأردفت: على أي حال أنا أحتفظ بها في صندوق قديم قد أحتاجه يومًا عندما أصبح عجوزًا وفي حاجة للذكريات.

نظرت إلى وجهها وقلت دون أية مواربة: ولكنك وعلى الرغم كل هذه السنوات فأنت أنت لم تضع السنون أية بصمات عليك بينما ترين كم كبرت أنا.

ضحكت سارة وقالت: عادة اللواتي يكبرن هن النساء أما أنت فيمكن أن أقول عنك بأنك أكثر نضجًا عن ذي قبل، وتابعت حديثها قائلة: ترى كيف لقيت وائل؟ أليس هو صورة منك بصباك؟ وتابعت قولها: ترى هل استطعت أن أربيه ليصل إلى ما وصل إليه أم أنني أخفقت؟ فأنا لا أنسى كلامك عن أن المرأة لا يمكن أن تربي رجلاً هكذا. كما تقولون في زقاق الطوال عن المرأة.

ضحكت: وذهبت ببصري إلى البعيد إلى أم سعيد جارتنا التي توفي زوجها واستطاعت أن تصنع من أولادها نموذجًا يحتذي به الآخرون. حدثتها بالقصة فانفرجت أساريرها عن ابتسامة جذلى شعرت بها وكأنها تعيدني إلى أيام مضت.

أمضينا ليلة رائعة مع سارة وأولادي، استمعت خلالها لأنواع الموسيقى القديمة التي كنا نسمعها سويًا وتناولت خلالها أنواعًا كثيرة من الأكل الذي أعرفه وتجيد طبخه سارة، وسرني أنني أحسست بأن ابنتي كانت مشدودة إلى سارة بخيوط كثيرة. اختفت من عينها تلك النظرة الخانقة، وحلت محلها نظرة حب حانية، ولم أعجب عندما قالت لي نورا: كم هي رائعة هذه السيدة، ولم تصمت بل واصلت كلامها لي وقالت: كيف فكرت أن تتركها بمفردها وتعود يا أبي.

قلت لها وأنا أشبه بالمنوم: قد يكون السبب في ذلك تلك التقاليد التي رضعتها في الزقاق يوم كان من الصعب على الإنسان أن يتزوج من خارج بلده، وضحكت وتابعت قولي: ولولا أنني صنعت ما صنعت لما التقيت بأمك ولما كنت أنت وأخوك معي كما هو الحال الآن.

صمتت نورا قليلاً وقالت بعد تفكير: ولكن هناك سؤال يلحّ علَيّ أن أسألك إياه ماذا ستصنع بالنسبة لأخي بعد حضورك حفل تخرجه.

قلت: الأمر لأخيك فإذا رغب أن يأتي معنا فعلى الرحب والسعة، وإذا اختار البقاء مع أمه في أمريكا فلن أرفض.

قالت: لا، الأَوْلَى أن نأخذهما معًا.

قلت: كيف؟!!

قال وسيم: تقترن بسارة مرة ثانية ونعود جميعًا إلى جدة إذا شئت أو حتى إلى زقاق الطوال.

قلت: أهو رأيك أم رأيكما معًا؟!!

فأنت تعرف أن زقاق الطوال قد ذهب مع الريح واقتلعت آثاره من على هذه الأرض، قال هو وأخته في نفس الوقت: تتزوجها يا أبي فهي ستصبح أُمًّا لنا جميعًا.

قلت: وإن رفضت؟

قالت نورا بحدة: هذه المرة لن ترفض فأنا التي سأتحدث إلى أخي في هذا الصدد، وأنا واثقة أن أخي سيقنعها بهذا الرأي.

إننا يا أبي إخوة ونريد العيش على مقربة من بعضنا.

قلت: لا بأس قُوما بعمل ما تريانه مناسبًا، قلت ذلك وفي نفسي إحساس بالفرحة وكأنني طفل صغير.

وجاء الغد أسرع مما أتصور، جاء وهو يحمل بين طياته أفكارًا كثيرة أود أن أستعيدها، والتقت عيناي في الفندق بعيني نورا التي كانت تبتسم طوال الوقت، فإذا ما انتهينا من تناول طعام الإفطار قالت لي: أود يا أبي أن تلبس أجمل بدلة لديك فنحن في طريقنا لنزور أجمل أُمٍّ بعد تلك التي مضت.

قبلّتها بين عينيها وطرت للغرفة حتى إذا ما عدت سمعت صفيرًا يدل على الإعجاب بذوقي من ابنتي وولدي.

وأمسكت نورا بيدي وقالت: من أين استطعت أن تأتي بهذه البدلة؟ لا بد وأنك كنت مستعدًّا لهذه اللحظة.

تمتمت بكلام غير مفهوم ومضينا إلى السيارة لتنقلنا إلى بيت سارة. سارة التي لم أعرف كم أحببتها، أنا الذي عذبتها طوال كل هذه السنين، وكم أحبتني هي الأخرى، استقبلتنا سارة بالفرحة وهي ترتدي أول فستان اشتريته لها بعد زواجي بها، والتقت يدي بيدها وأحسست بشيء من الراحة وأنا التقط أنفاسي، كشاب يجيء لأول مرة لخطبة عروسه.

والتقت عيناي بعينيها فقالت: أَوَتَدري أنني أحب نورا كما أحب ولدي الذي ربيته؟ وتابعت قولها: لقد استطاعت هذه الصغيرة أن تعيدني إليك بعد أن قررت بأنني لن أفعل مهما صنعت.

نظرت إليها مرة أخرى، قلت: أهي نورا فقط أم أن هناك آخرين ساهموا في هذا الأمر؟.

قالت: لا. قالتها بحزم: لو لم تكن نورا هي التي طلبت لرفضت.

أخذتها بين يدي وقبلتها كزوجة ومضيت أنتقل معها في أرجاء البيت، حتى إذا ما وصلت إلى حديقة الدار التفت إليها قائلاً: ما رأيك بأن نقضي شهر العسل في سان فرانسيسكو بعد أن نتزوج؟!

قالت: لا، قالتها بحب ثم عقبت بقولها: أَوَنَسيت بأنني فقدتك بعد ذلك المشوار اللعين، ولهذا فأنا غير مستعدة لأن أفقدك وأفقد نورا وأولادي الآخرين هذه المرة.

رَبَّتُّ بيدي على شعرها الذي أسدلته وراء ظهرها كما كانت تفعل، وقلت لها وأنا أتحاشى أن أنظر إلى عينيها هذه المرة: أَوَتُسامحينني على ما ارتكبت من أخطاء؟

نظرت إلى وجهي وقالت وهي تبتسم: لا، قالتها بدلال. وكأنها تريد أن تقول العكس.

وألقت برأسها إلى الوراء أشبه بكليوباترا متوجة جاءت لتوها من حفل عرس لا تزال زغاريده تطوف في أعماق نفسها، أمَّا أنا فقد كان قلبي داخل صدري يدق بعنف كسيمفونية أخذت موسيقاها ترتفع لتسمعها سارة بمفردها حتى إذا ما ضاعت أصوات الموسيقى داخل عروقي نمت أوراق الورد من بين سبائك شعرها الذهبي، لتعزف هي الأخرى مقطوعة حب جديدة خلتها وأنا أسمعها لأول مرة بأنها خالدة، خالدة فعلاً.

وقلت لنفسي: هكذا نحن في هذه الحياة نبحث عن الحب في ظلال الماضي والحاضر ونصنع من قلوبنا جدرانًا نتأمل منها أشجار الحياة ونتطلع إليها برغبة وشوق وأمل ونحن نقول في أعماقنا: لنعش حياتنا كما أراد الله. ولنبحث عن الحب وننظر إليه، ونقول: ذهب الزقاق زقاق الطوال وبقيت أوراقه ونحن نلملمها وكأننا نخاف عليها حتى لا تتساقط الأوراق.

***

حوش التاجوري

غـالب حمـزة أبـو الفـرج

رواية

١٤٢٢هـ



الفصل الأول

عندمــــا كــان طفلاً كان كـل شـيء فيـه يجعلنـي أظـن أنـه لي أنـا الصـغيرة التي لـم تكـن تريـد أن تكبـر.

حتى أحلامي كنت أهديها له، أنمقها في نومي لتكون جديرة به، وعندما أصحو أبحث في تلافيفها عن أشياء كثيرة مشتركة أراها بعيني وكأنها تدلني على شخصيته التي فقدتها ذات يوم.

سنوات عمري كانت مجرد ذكريات لماضٍ أكاد أحس به يتجمع من حولي ويلتقي بقلبي ليمنح دقاته مزيدًا من القوة رغم وهنه، ففي حنايا القلب مسالك ودروب نلمس ظلها يطل من بين أعيننا دون أن ندري أو حتى نشعر، يتسلل من باطن أعماقنا شعاع أمل وكأنه يريد أن يختار طريقه على أرض هذا العالم في مسيرة طويلة نحس بلفح هجيرها على وجناتنا نحن الصبايا.

وأنا، أنا أدرك معنى العجز عند الإنسان عندما تضيق حلقات الأمل ويخبو شعاعه في النفس.

فعندما تضيع الابتسامة من خلال الهواجس التي تنتاب الواحد منا ونصبح وكأننا نعايش الهجر والفراق والنسيان.

لا نلمح في سماء حياتنا ظِلا لأمل يمكن أن نحتمي وراءه أو لِلَحن يمكن أن يهدي أقدامنا التائهة في هذا العالم الذي حولنا.

العالم؟، العالم في رأيي لحن مميز يدق على أصابع الزمن على أكثر من وتيرة، تشجينا أفراحه، تشقينا أتراحه، ولكننا مع ذلك كله لا نتسربل بالشقاء أبدًا، لا لأننا قادرون على اجتياز المجهول وإنما لأن ما يعيننا في هذا العالم هو اكتشاف هذا المجهول من خلال أمل ينبض في داخلنا ويدفعنا إلى محاولة ذلك.

كم من فتاة عاشت حياتها وفق ما ترضى وتحب، وكم من فتاة نقشت على الماء أسطورة حب ضاعت بين الأمواج الهادرة حتى إذا ما تكسرت كل تلك الأمواج بدت حروف الكلمات وكأنها تغرز أظفارها على تراب الحياة في محاولة ركض جديدة في مساحات الزمن لإدراك السعادة في

أعمق معانيها، وما أحلى السعادة عندما يتسربل الإنسان بعد عذاب وتعب بشذاها الطيب وهي تضمخ كل جزء من حياته وعمره.

أسطورة تتناقلها الجدات وتحكيها للحفيدات اللواتي يتطلعن إلى الحياة الطويلة التي أمامهن بعيون يملؤها الأمل والرغبة الملحّة في اكتشاف المجهول فيها.

كثيرة ومثيرة ورائعة وشقية هي تلك الذكريات يمتد إليها البصر ليزرع على أكتاف الصبايا عبر الماضي والحاضر أحلامًا جديدة.

أحلامًا قد تتحقق وقد لا تتحقق، وقد يتحقق بعضها ولا يتحقق البعض الآخر وهذا هو الأرجح فيصبحن وكأنهن على موعد مع المفرح والمعكر صفو الحياة معًا، ولكن، من منكم يستطيع أن يقرأ التاريخ في دموع امرأة؟.

من منكم التقى مع الماضي في ظل دمعة وابتسامة كما حدث لي أنا؟، إن هذا لهو أمر لا أدري كيف أعبر عنه، نعم لا أدري كيف أعبر عنه وأنا أعايش التاريخ، تاريخ حياتي أعايشه وهو يتجسد وأعايشه أحيانًا ماضيًا لا يريد أن يتجسد في محاولة لإرغام نفسي على النسيان، ولكن هيهات أن أنسى.

أفكارنا تعايشنا لحظات السعادة والشقاء معًا.

وحتى عندما نهيل عليها التراب نجدها تتجسد في أشياء صغيرة نسيناها في أكمام الورود والأزهار وعلى الجداول الصغيرة.

من منكم أرهف سمعه لصراخ الأقدام وعويلها وهي تمشي على هذه الأرض؟

ومن منكم التقى بالفرحة تتمايل على شفاه أوراق الشجر والدوالي؟.

في الزمن القديم كانت الحياة وبدء الخليقة - عندما التقى آدم - بحواء ملأى بأشياء ومعاني كثيرة، ومنذ ذلك اليوم وحواء تبحث عن آدم بشغف، ترمق طفولته وتتطلع إلى حياته ورجولته لتضع رأسها على كتفيه، وتلقي بكل أثقال الدنيا من كاهلها على كاهله إلا أنا ومثيلاتي على قلّتهن.

كثيرات أولئك اللواتي يعايشن الغربة ويحلمن بأوراق الورد وهي تتناثر تحت أقدامهن هدية يوم أذن فجره على الاستيقاظ.

آدم هذا الذي أبحث عنه، إخاله لا يدري ولا يعرف أن كل شيء يخصني سوف أضعف بين

يديه، فهو في نظري من نفس الطينة، أما بالنسبة إليه فكل شيء يكاد أن يكون غير ما أريد، هذه هي أفكاري، وأنا بعد فتاة مراهقة لم تشب عن الطوق بعد، تلبس أحلامها أول من تراه أمامها.

ولكن في طريق الأحلام يسترد الإنسان عافيته فجأة، ويفتقدها فجأة وهو في كلتا الحالتين يعيش نبضات قلبه الواجف الراجف، تلك هي مسيرة الحياة تغرس سكاكينها في قلوبنا، ثم تستلّها فجأة وهي تحاول أن تضمد الجراح التي شاهت ألوان دمائها.

وفي الطريق تقسو الأقدام أحياناً على الزهور التي يفر بها الريح بعيدًا عن جناحها، وتظل كالمرأة التي ترضى أن تعيش بعيدًا عن أرضها والتي في كثير من الأحيان تكون حالتها أن تظهر ما لا تبطن، وفي الحقيقة أن في الغربة مرارة وقسوة على الرجال والنساء على السواء.

في الزمن الرديء تصاب القلوب بعسر فهم، وتلبك لا تملك معه القدرة على أن ترى خيوط الفجر وهي تشرق من خلف سجاف الأمل.

لا لأننا عجزنا عن أن نعي الحقائق ونفهم الواقع، وإنما لأن الضباب الذي تعوّدت أعيننا أن تراه مجلّلاً بالرماد يظل دائمًا يطل بصور وأشكال وكأنه يسيطر على سويداء القلوب الناعمة فيسحقها ويمحقها.

أكثر الصدمات إيلامًا للمرأة هي عندما تفقد حبها وتضيع أقدامها في الطريق وهي تبحث عن حب قد ضاع.

وأنا، مَن أنا؟، طفلة كبرت وشاخت قبل أوانها، ذهبت بها رياح التماسيح فوق أشجار الشوك، ثم ألقت بقلبها في طريق الأوهام بضاعة واجفة لا تدري من سيلتقط هذا القلب.

قد يرفض بعض النسوة المصير الذي يريده لها الآخرون، وقد ينصاع البعض منهن دون وعي، ففي مجتمعاتنا تظل الأنثى مكسورة الجناح تبحث عن الأمل وهي تلتقط فُتاته من على موائد الكبار أمثال أمها وأبيها أو خالها وعمها، ففي عيون الكبار تكمن حكايا الأمس واليوم، ومن بين شفاههم تخرج الحروف قاسية لا تقنع، لكننا وفي مثل هذا المجتمع الذي نعيش نرضى بكل هذا الذي قسم، وتظل تطلعاتنا نحو الأفضل محوطة برغبات مكتومة قد لا تخفى عليهم وإن كان هؤلاء الكبار يضيقون بها، وينسون أنهم كانوا مثلنا في يوم من الأيام.

لعبة المرأة في عالمنا الحاضر أن تصبح ذكية وقادرة.

ذكية تعرف كيف تطوع الآخرين لأفكارها ومبادئها.

وقادرة على امتلاك نفسها وقلبها ولسانها أيضًا في كثير من الأحوال.

العالم يضيء ويشرق بكل أنواع النور الذي أصبح أكثر من فنار لأكبر السفن وهي تجوب أرجاء البحر وأمواجه، ومع هذا تتساقط القلوب عند أول داهمة تدهم الإنسان كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف.

والمرأة هي المرأة منذ ذلك اليوم الذي دخلت فيه أبواب التاريخ، أنوثة وعفوية وجمال ومكر وخداع وزينة وحسن وحب وكره أيضًا، إلا أن المرأة لا تلعب لعبتها مع الرجل بمقدار ما يلعب الرجل لعبته مع المرأة.

المرأة هذا الكائن البريء الجميل قد تصبح أكثر شراسة من اللبؤة عندما تستثار، وقلب المرأة بل ومعظم إحساسها ينصرف إلى أطفالها فهي أولاً وأخيرًا . كما يقولون عنها . أم الرجال وصانعة الأجيال.

يتهمون المرأة بأنها صائدة رجال وينسون بأنها في كثير من الأحيان هي التي تسقط في الشِّبَاك.

وأنا، من أنا في ظل هذه الأنانية المفرطة التي تسود رؤوس بعض الناس وما أكثرهم فهي دنيا الناس؟.

في طريق الأمس حفيت قدماي وأصابت قلبي رجفة ظلت تلازمني طيلة السنوات الماضية وحتى اليوم.

وفي طريق اليوم لا أفتقد النضوج وإن كنت أفتقد ظلالاً كانت تدثرني وأنا طفلة، بين ظلال الأمس وقسوة الأيام تعربد موسيقى اليأس كما تعربد موسيقى الجاز في رأس زنجية جميلة طفقت ترقص في حلبات الأرض بحثًا عن معاني كلمات الأغنية التي تسمعها للناس.

أشياء صغيرة نهملها ونحن أطفال وحتى عندما نكبر، ثم تبدو مع الأيام شيئًا جادًا ومثيرًا يتدخل في حياتنا ويلقي ببصماته على أجسادنا ووجوهنا وأنامل أيدينا وقلوبنا، نحس بتياره الحارق يسري في عروقنا يدفع بعضنا إلى مزيد من التذوق لأنواع الحياة التي يرفضها بعضنا، والحياة هي الحياة جميلة كما نراها وبغيضة ومحزنة كما نراها أيضًا في بعض الأحيان.

أجمل أسوار الحب تلك التي يستطيع أن يقف عندها الإنسان لا التي يقفز عليها، وأحلى أسرار الحب تلك التي نحتفظ بها في قلوبنا لا نشارك أحدًا في فهم معانيها أو سبر أغوارها.

والإنسان هذا الكائن الذي يمتلئ جسده عروقًا وشرايين تتشابك وتتداخل. هو الأجمل دائمًا عندما يعرف ما يريد وتعرف أقدامه طريقها بتؤدة وتفكير وإحساس بمعنى الجمال ومكامنه.

في فورة اليأس ننسى لحظات السعادة التي عشناها، ولا نفتقدها لأننا كنا أشبه بذلك الأعمى الذي فقدت عيناه النور فضاع في زحام الطريق، يتخبط بين الأجساد الفارهة حتى إذا ما امتدت إليه يد صغيرة أو كبيرة هدأ روعه وعرفت خطواته أناشيد الطريق التي شاخت قبل الأوان.

بعض الناس يحرص على ارتياد الصحاري والمناطق النائية بحثًا عن زهرة برية اندسّت بين صخور التلال الصغيرة، والبعض الآخر لا يرى في الصحراء سوى أنها مجرد ساحات فضاء لا تنتهي.

في قيظ الصحراء نحلم بالأنهار وهي تمتلئ بالمياه الحلوة الصافية، لكننا نختلف في أحلامنا فهي عندما يأتي الخريف والشتاء وتبدو برودة الطقس أكثر مما نتحمل.

نعم عندما كان طفلاً صغيرًا كان كل شيء فيه يجعلني أظن بأنني له أنا الصغيرة التي لم تكن تريد أن تكبر ولا تريد له أن يكبر هو أيضًا.

وتمضي الأيام وكل شيء في حياتنا يصبح شيئًا آخر قد تغير، غيرته الأيام وصنعت منه السنون جدرانًا صمّاء لا نعرف ماذا تريد أن تقول.

ولقد قالت سنوات حياتنا الكثير الكثير، قالته ونحن بدورنا نرهف أسماعنا ونشد أبصارنا لنعرف ونتعرف، نفهم ونستوعب، حتى إذا ما غدت بنا الأيام شعرنا بالهوّة السحيقة التي تفصلنا عن شط الأمان.

فكم كانت جميلة ووارفة أحلامنا وهي تتهادى في حدائق الدهر بين أزهار الورد والياسمين والفاغية وعلى مقربة من أشجار الليمون الكبيرة.

اختفت الخضرة بين أعين البعض، وأصبحت أشجار الليمون أشجارًا يابسة لم تعد تحنو على أجساد بعضنا كما كانت تفعل، وبدأت رحلة الشوق ملأى بأشواك الشك التي أخذت تسد منافذ الحياة أمام أقدام أولئك الذين لا يقوون على المسير.

ولكن، تلك كلمة نقولها لكنها معي تكون أكثر من كلمة، إنها أشبه بجمل متراصة يأخذ بعضها برقاب بعض في تؤدة ويسر لتدلنا في النهاية على قدراتنا التي نضيق بها ساعة يأس.

ترى هل استطاع اليأس أن يدمر كل شيء من حول هذا القلب الصغير.

ذاك ما أريد أن أحكيه ببساطة فلربما استطعت من خلال ما أقول أن أشد الأفكار للبحث عن الطريقة التي يمكن للأخريات أن يرينها قادرة على منحهن الحياة في ظل هذه الدنيا التي نظل نعيشها ونعشقها رغم كرهنا وبغضنا لها في كثير من الأحيان.

***

من بين مئات الأوراق المتراكمة على مكتبي الصغير تمتد يدي لتعبث بورقة صفراء صغيرة أضافت إليها سنوات العمر شيئًا من الشحوب خِلته وأنا أطالع مرآتي كأنه قد أصاب وجهي الطفولي أيضًا، فكما كنت أسمع الناس يقولون إنني امرأة لا يمكن للسنين والأيام أن تقهرها أو حتى تضيف إلى وجهها شيئًا من تجاعيدها التي كنت أراها تعلو وجوه صديقاتي وغيرهن ممن حولي ممن أعرف أو لا عرف.

لكني مع كل هذا ألمح شبح ابتسامة صغيرة تبدو على وجهي وكأنها تداعب مخيلتي التي أخذت تتزاحم من خلفها ذكريات الأمس القريب والبعيد معًا.

ربما فاتني أن أعرّف نفسي إلى قارئي الذي سيطالع هذه السطور ولهذا فها أنذا أذكر من أنا وأتحدث عن حياتي الماضية والحاضرة وأنا راضية عن كل أحداثها، مقتنعة بكل تفاصيلها، راجية أن تكون شعاع ضوء ينير حياة كل أنثى تسعى وراء سعادة نفسها وسعادة من حولها.

تنتابني حيرة من أين أبدأ؟، وهاتف من أعماقي يعود بي إلى الوراء، إلى طفولتي، إلى بداية إحساسي بالحياة والناس وكل أولئك الآخرين الذين كانوا يعيشون من حولي وأولهم أمي الحبيبة.

عشت طفولة سعيدة، نعم فقد عشت طفولتي مع الحب والحنان سقتني كؤوسها أمي، تلك المرأة التي فقدتها قبل أن أكبر ولكنها علمتني أن الحياة حب وكفاح وركض في ساحات الزمن في محاولة لاقتناص السعادة الحقيقية، أمي جاءت من الأناضول.

جاءت برفقة أبيها لأداء فريضة الحج ولزيارة المدينة المنورة. حلمه الوردي وهاجسه الدائم. ثم تركها في عهدة أبي بعد أن زوجه لها.

لا تستغربوا كيف يمكن أن يتم زواج كهذا فأم أبي هي أيضًا من نفس المنطقة التي ولدت فيها أمي، بل وتمتُّ إلى أمّي بصِلة القرابة بمعنى أنها من نفس العائلة، وإن كانت قد تغيرت ألقاب الأُسر في تركيا بعد أن استقام الأمر لأتاتورك وزملائه.

أمي شقراء الشعر ناصعة البياض، قوامها رشيق أكاد أراه يطل في عيون مرآتي وأنا أرمقها بعد أن كبرت، فأنا أشبهها رغم اختلاف لون بشرتي عن لون بشرة أمي وأبي.

أما أختي التي تكبرني بخمسة أعوام فقد كانت. كما يقول أبي: صورة طبق الأصل عن أمي التي أحب وأمي توفيت، ذهبت إلى بارئها وهي في ريعان الصبا والشباب، مهلاً مهلاً، لا تظنوا بأبي الظنون فلقد أعرض أبي عن الزواج بعد وفاة أمي وكان عزاؤه الوحيد وسلواه أن يراني أنا وأختي نكبر أمام ناظريه.

في بيتنا في حوش التاجوري على مقربة من بستان الحجارية بالمدينة المنورة وُلِدتُ، وفي نفس البيت كبرتُ، وعرفت طفولتي أسرار الحياة في تلك المدينة، فأنا وإن كنت قد غيرت حياتي بأفكاري التي لازمتني وأنا صغيرة، تلك الأفكار التي أخذت تمارس حقها في البقاء في أعماق أعماقي في رحلة الحياة الصغيرة. إلا أنني لا أزال مشدودة إلى ذلك الحوش.

كل شيء في حوش التاجوري يذكرني بمعان وأحداث ارتبطت بها نفسي، الجيران، الصديقات، الأهل، الإخوة، ألعاب الأطفال المختلفة، عربات الكارو التي انقرضت، حاجة فاطمة التكرونية التي كانت تجوب كل بيت من بيوت الحوش تساهم في غسيل ملابس المواليد الذين وفدوا.

كان الحوش أشبه بأسرة كبيرة متماسكة، يحزن الجميع لحزن أي بيت ويفرح كل واحد منا بفرح الآخر.

لطالما شعرت بالأسى لموت عجوز أو عجوزة من هنا وهناك، ولطالما سعدت أيضًا بزفاف هذه أو تلك من بنات الحوش الصغير.

بيتنا رغم وقوعه في حوش التاجوري إلا أنه يطل ببعض نوافذه على طريق سيل أبو جيده، وعلى مقربة من بيتنا كانت شجرة نبق كبيرة تمتد فروعها حتى تصل بين نوافذ بيتنا ونوافذ البيوت الأخرى في الجهة المقابلة.

عندما كبرت كتبت اسمي على هذه الشجرة، شجرة الوفاء، فلطالما استمعنا إلى زقزقة العصافير والنغاري وهي تجري حرة طليقة تحط على هذا الغصن أو ذاك، تردد أنشودة حب وقصة وفاء للمكان ومن بالمكان.

كنت أقارن بيني وبين هذه الطيور فأجد أن الطيور أكثر حرية مني أنا الإنسانة التي أعيش في ظلال الحب الذي ألقاه.

ربما لأنني كنت أرى في تغريد هذه الطيور ما يسعدني ويجعلني أتمنى أن أكون مثلها ولكن هيهات.

بجوار بيتنا كان بيته، لم أكن أظن بأن الأيام سيشتد عودها فتنأى بنا عن ذلك الحي، لكني مع كل هذا كنت أحس بأن كل شيء يتغير.

ثريا أختي التي تكبرني والتي ذهبت لكتّاب البنات قبلي كانت تحدثني كثيرًا، لم أكن أفهم من حديثها شيئًا لكني وبعد أن أخذت طريقي أنا الأخرى إلى الكتّاب بدأت أفهم.

سارة ابنة جارنا وأخت فريد والتي قضينا طفولتنا معًا هي الأخرى كانت تشاركنا مشوار الصباح من حوش التاجوري إلى الساحة، فقد كنا ندرس معًا في كتاب خوجه هانم، أما فريد فقد أخذ طريقه إلى المدرسة الناصرية، بعد أن كبر فريد وسافر إلى مكة ليستكمل تعليمه شعرت بأن شيئًا قد فقد مني، لا أكذب إذا قلت بأنني لم أكن أحب فريدًا منذ طفولتي، ولكني حتمًا أكذب إذا قلت لكم بأنني قد عرفت بمعنى إحساسي بجمال رفقة فريد ورغبتي في اللعب معه ما يعني على أنني أحبه.

عندما غاب عن بيتنا بدأت أقلق، أحسست بأن من واجبي أن أصمت فقد كانت ثريا أختي هي الأخرى قلقة لغياب فريد.

وبدأت أكتب رسائلي إليه ثم أمزقها، حتى ذلك اليوم الذي التقيت به وقد عاد في إجازة قصيرة.

لم تكن الحواجز بعد قد تصدّت لي أو له، ولذلك لم تحرمني الأيام من لقائه والحديث معه في بيته أو في بيتنا، لكن تلك الفرحة التي غمرتني تمامًا بدت لي كأنثى أهميتها لأول مرة عندما أراد أبي في أحد تلك الأيام أن يغادر المدينة إلى جدة.

ولقد خيّرني أبي في أن أبقى مع جدي وبعض أفراد العائلة في بيتنا الجديد عند باب الكومة أو الذهاب معه فاخترت الذهاب إلى جدة.

قلت له وأنا واقفة إلى جوار بركة المياه الكبيرة في بستان المصرع - ذلك الذي دعينا إليه نحن وأسرة فريد من قبل خاله: (سنذهب إلى جدة وأتمنى أن ألقاك هناك)، وقبل أن يتفوه بكلمة أخبرته أيضًا عن عزمي على إتمام تعليمي.

كان التعليم في بداية عهدنا به فقد بدأت المدارس تكثر وتنتشر وأصبح متاحًا للفتاة أن تتعلم.

وسألني باستخفاف: (وماذا تريدين أن تتعلمي)؟ وقلت في استحياء متجاهلة تلك الابتسامة

المستخفة بكلامي: (سأصبح طبيبة، طبيبة تعالج بنات جنسها في المستقبل).

نظر إلى وجهي ثم قال بجدية بعد أن لمس العزم والإصرار في صوتي: (ذاك أمر شائك ويستغرق وقتًا طويلاً فدراسة الطب تحتاج إلى سنوات وسنوات، (وما المانع؟) تساءلت.

أجاب: (الفتاة في بلادنا تحب أن تتزوج والأهل يفضلون تزويجها في سن مبكرة).

سادت لحظات صمت بيننا قطعها بصوت لا أدري كيف أصفه: (وأنت ألا تفضلين الزواج؟، أعني ألا تريدين أن تتزوجي؟).

قلت: بلى ولكن زواجي لا يمنع من أن أكمل دراستي.

قال ضاحكًا وهو يحاول إنهاء الحديث وكأن الكلام في موضوع إتمام دراستي لأصبح طبيبة ضرب من الخيال وأحلام اليقظة: (أحلامك كثيرة وأمل أن تتحقق.)

نظرت إلى وجهه أنا هذه المرة وقلت لنفسي: لماذا لا أقول له بأنه هو أيضًا من جملة أحلامي التي أتمنى أن تتحقق ويومها عرفت بأنني أريد فريدًا زوجًا وحبيبًا، ولكن...

بدأت أتابع خطواته وهو يمضي لشأنه وقبعت أنا بجانب أختي التي رأيتها تحاول أن تعرف كل الذي دار بيني وبينه، لكنني لم أشف غليلها بل تركتها حائرة لاعتقادي أن الأمر يهمني وحدي.

وعندما ألحّت علي ضحكت وقلت: (ولكن لماذا تسألين؟).

وجاء جواب أختي كالصاعقة فلقد قالت: (ألا تعرفين بأنني سأتزوجه؟).

صَمَتُّ لحظة أحاول فيها استيعاب ما تقول أختي ثم سألتها عندما وعيت تمامًا معنى ما قالت: (وكيف سيكون هذا الأمر؟).

كان السؤال بصوت خفيض حاولت معه ألا أظهر انفعالي ودهشتي وحيرتي مما أسمع، وحدثتني أختي بإسهاب عن حبها له الذي بدأ يوم علمت عن طريق الصدفة أن والدها ووالده قد اتفقا على تزوجيهما من بعض بعد أن يكبرا.

أحسست بالدوار ينتابني فهذا حلم من أحلامي ينهار قبل أن يتحقق، حلم جميل من أحلامي تلك التي وصفها فريد بأنها كثيرة وكبيرة.

وصممت أن أتماسك، وبدأت رؤيتي للحياة تأخذ مسارًا آخر شعرت معه بأنني أكره هذه الأخت ومن كل قلبي.

أحيانًا كان يذهب تفكيري إلى حد الظن بأنها ربما تكون كاذبة لكنني كنت ألوذ بالصمت

الرهيب محاولة من خلاله أن ألف الحبال حول أوهامي على أمل أن أجد الطريقة التي أستطيع بها الوصول لمعرفة الحقيقة.

لم أعدم الوسيلة لأن أتعرف على جزء من الحقيقة التي ألف وأدور حولها وأنا أحادث أخته سارة التي فاجأتني هي الأخرى قائلة وهي تبتسم: (ولماذا تسألين؟ حقًا ألا تدرين ما يجرى وراء ظهرينا؟).

أجبتها بهدوء: (لا) ولم أكن كاذبة، وبدأت الحكاية تنكشف أمامي حقيقة واضحة، عرفت من أخته أن أباه وأبي قد اتفقا على أن يتزوج فريد بأختي وأن الأمور تسير في طريقها المرسوم، إذن الكل يعرف ما عدا الصغيرة التي هي أنا، كنت أشبه بالتائهة عندما تناهى إلى سمعي صوت أخته سارة تكمل حديثها بهمس: أما هو، ثم انقطع ذلك الهمس ولم تشأ أن تكمل حديثها بل لم تعد بحاجة لأن تكمل ذلك الحديث فقد فهمت ما تعني، فريد يريدني أنا، يحبني أنا، أنا، ولكنه لا يجرؤ على الكشف عما يجول بخاطره لأحد إلا لها، أعني إلا لأخته سارة.

ومن يومها اتخذت سارة صديقة أمضي الساعات تلو الساعات أردد على مسامعها ما أكتب من أشعار تحكي لوعة ما أعاني ثم بعد ذلك ألقي بكل ما كتبت طعمًا للنيران وأنا واجفة.

لقد كنت حريصة على ألا أظهر ما بي وخصوصًا لأختي.

***



(٢)

العالم يضيق بي على رحابته، وهموم الغربة تزيدني سَأَمًا وأرقًا وتألُّمًا، وأنا في مخدعي في بيتنا الجديد في مدينة جدة على مقربة من البحر الأحمر فقد شاء والدي أن يكون بيتنا هناك.

عندما وصلت إلى مدينة جدة التي عشت فيها فيما بعد سنوات عمري اللاحقة أحسست بأنني قد وضعت سورًا بيني وبين مدينتي التي أحببت رغم أنها فقدت تباعًا كثيرًا من الأماكن التي أحببتها نتيجة للتطور والتعمير الذي واكب أيام الازدهار التي بدأت تعيشها بلادنا الحبيبة.

سارة صديقتي أخت فريد لا تزال في طيبة الطيبة ووسائل الاتصالات الحديثة منحتني الفرصة لأن أتحدث إليها يوميًّا لدرجة ضاق بعدها أبي بفواتير التليفون، ولا عجب إذ إن فواتير التليفون أصبحت جزءًا ضروريًّا في موازنة الأسرة السعودية.

أختي التي تعيش معي والتي أحبها من كل قلبي بل التي لم أستطع أن أكرهها كما اعتقدت في بداية معرفتي باتفاق الأهل على تزويجها من فريد لم تعد تتحرج في الحديث أمامي عن كل شيء، عنه. وأعني عن فريد. وهي في حديثها هذا عنه على حق؛ أليست ستصبح في القريب زوجة له؟.

في الوقت الذي كنت أغذ السير في طريق الدراسة والتحصيل العلمي انقطعت أختي عن الدراسة، أحسست بأن قلبها وعقلها قد اكتفيا بما تلقت ورضيت بالبقاء في البيت انتظارًا ليوم يأتي فيه فريد ويحملها إلى عش الزوجية.

أما أنا فقد كنت أشبه بخلية النحل بعد أن كرست كل شيء في حياتي ووضعت كل همي في أن أصبح طبيبة، ولقد علمت فيما بعد أن فريدًا أيضًا . وبوحي من كلامي معه في لقائنا الأخير في بستان المصرع . حاول أن يصبح طبيبًا إلا أنه لم يوفق لأكثر من سبب يأتي في مقدمتها أنه لم يبذل الجهد الكافي لينال العلامات التي تؤهله لدخول كلية الطب فطبعًا ليست بالأماني وحدها تتحقق الأحلام.

في بيتنا كانت الحياة مملة ورتيبة لولا هذا الصامت الأسود الذي كان يشكل همزة الوصل مع عالمي الذي بدأ يكبر.

وَلَكَم تحدثت إلى نفسي عن أختي وأحلامها وأمانيها وحاولت في كل مرة أن أعيد إلى ذهني

صور الأمس يوم كنا صغارًا هناك في حوش التاجوري ثم بعدها هنا في جدة، كان حديثي مع نفسي يملأني إحساسًا جديدًا بالحب لهذه الأخت رغم كل ذلك الذي حدث، ورغم كل ذلك الذي سوف يحدث.. ولكم حاولت أن أمنحها ثقتي وأبوح لها بِسِرِّي.. أن أقول لها كل شيء عن أحاسيسي باعتبارها الأخت الكبرى وأنها ملجئي وملاذي. بعد الله وبعد رحيل أمي عن حياتنا. ولكني لم أفعل بل على العكس كنت أطوي صفحات الضعف هذه وأكتمها في نفسي وأشجع أختي على المضي في الحديث عن أمانيها وأحلامها والتي تتركز في مجملها على فريد وحول حياتها معه، في باطن أعماقي التي تنزف كان يكمن إحساس قوي بأنني أظلم نفسي في كل هذا الذي أفعله، فأنا عندما أفكر جِدِّيًّا فيما سوف تقدم أختي عليه أجد قلبي وكأنه سينزف دمًا وأحس باختناق، ومع ذلك فهناك دائمًا شيء ما في أعماقي الحزينة يجعلني أضحي بكل شيء محاولة أن أنسى كلمات سارة ورغبة فريد.

أكذب عليكم إذا قلت بأنني لم أتحدث إلى فريد بعد أن وضح لي كل شيء وعرفت معنى أن يتزوج الإنسان مِن أخت مَن أحبَّها وأحبَّته لكن ظروف الحياة في مجتمعنا تجعله يقبل الأمر الواقع، كما علل قبوله للزواج من أختي وتجعلني أنا لا أرفض أن أبارك ما سوف يحدث في المستقبل القريب.

خفت في البداية من أن يفتضح أمري عندما يحين موعد زفاف أختي، ورأيت بعد تفكير أن من واجبي أن أنهي الأمر تمامًا بيني وبين نفسي وأن أتحدث أيضًا إلى سارة صديقتي أخت فريد، تحدثت إليها طويلاً، وحاولت أن أقطع عليها عهدًا بأن تنسى كل ما تحدثنا عنه بخصوص أخيها فريد.

قلت لها بأن حبي لأخيها ورغبتي في أن يكون زوجًا لي قد شاخت ولم يعد لها وجود في نفسي، وقلت لها أيضًا: إن ظروف الحياة في مجتمعنا تدعونا لأن ننسى أحاسيسنا الساذجة الفجة، أجابتني بعد حديثي الطويل معها قائلة: ربما أنت تستطيعين لأنك عنيدة وقادرة على المضي قدمًا في تحقيق ما ترغبين ولكن هل في مقدور أخي أن يكون مثلك؟.

قلت. وكان بودي أن أقول شيئًا آخر: لا بد وأنه هو الآخر مثلي طافت بذهنه ترهات يجب علينا أن نلفظها وأن ننساها، ثم رددت بصوت منخفض وكأنني أحدث نفسي: ثم أَنَسيتِ أنه سوف يكون زوج أختي؟

كنت أقول هذا الكلام وأنا أحس شعورًا داخليًّا يصرخ بأنني أود لو أنه سوف يصبح زوجي أنا، وأحسست بمزيد من الألم يعتصر فؤادي لكن واجبي تجاه هذا الموقف وتجاه أختي أمدّني بقوة جعلتني أقاوم وأقاوم، وأنغمس في حياتي الدراسية لا أفكر إلا بها مما جعلني أمضي أيام الدراسة متفوقة على جميع أقراني.

سألني والدي في أحد الأيام: ماذا تريدين أن تدرسي بعد تخرجك من الثانوية؟.

أجبت: أريد أن أصبح طبيبة.

ونظر أبي إليّ ضاحكًا وهو يقول: قولي غير هذا يا بنتي، ألا تعرفين بأنه لا يوجد في بلدنا كليات طب حتى الآن؟.

قلت بتصميم عجب منه أبي: أعرف لكني سأدرس الطب إذا ما وافقت يا والدي في الباكستان.

نظرت إليّ أختي التي كانت تستمتع إلى حديثنا وقالت: أَوَلا تريدين أن تتزوجي، فسنوات الطب طويلة طويلة وقد تحرمك من عريس قد يتقدم إليك لو أنك بقيت هنا في بلدك.

وبعصبية - حاسبت نفسي عليها فيما بعد - قلت: ألا يكفينا في هذا البيت أن تتزوج واحدة منا.

وضحكت أختي وهي تخرج من الغرفة وتهز أكتافها وكأن الأمر لا يعنيها من قريب أو بعيد.

أما أنا فقد أمضيت ليلة ممطرة شاب أجواءها تلال من الخوف والحزن والألم والأمل والضباب، ترى هل أستطيع أن أكون قوية كما تقول سارة فأمضى في حياتي دون أن أتحطم أو أنكسر من الداخل؟، ونمت وأنا أترك الأمر للزمن فهو الكفيل بأن ينسيني وأن يمدني بما يساعدني على تشكيل حياتي المقبلة وفق نمط يرضيني، إذ لربما يحقق طموحاتي في أن أصبح طبيبة ينشغل وقتها كله فلا يكون هناك وقت للتفكير في أمر قد أصبح ماضيًا وماضيًا بعيدًا.

ومرت الأيام حتى جاء ذلك اليوم الذي أصبح فيه فريد في بيتنا فقد اقترنت أختي به وأصبح المجال أن أراه أمامي دائمًا كبيرًا وكبيرًا جدًّا، إلا أنني كنت دائمًا وأبدًا أتهرب من رؤيته والاجتماع به حتى تلك الليلة التي لن أنساها ما حييت، دقت أختي باب غرفتي وعندما طلبت منها أن تدخل إذ كنت لا أزال في فراشي أقرأ في كتاب لأبعد الأفكار عني.

دخلت أختي ثريا الغرفة فإذا بي أصطدم بوجه مكفهر غاضب، لا بل وجه حزين عابس، لا أدري؛ المهم أن علامات الهم والحزن والغضب كانت بادية على وجهها وتختلط بشكل جعل قلبي

يتوجس خيفة.. سألتها ملهوفة عما بها فإذا بها تحدثني عن ضياع أحلامها الحلوة التي كانت تظن أنها بدت على وشك أن تصبح حقيقة بعد اقترانها بفريد.

وعرفت من أختي أشياء كثيرة ساورني معها كثير من الشك في أن فريدًا لا يبالي بأختي أو بمشاعرها.

ثارت ثائرتي على فريد فقد كان في خيالي دائمًا ذلك الرجل الشهم الذي يحترق لإسعاد الآخرين.

ولقد دفعتني ثورتي تلك لأن أواجه فريدًا وأتحدث إليه وأطلب منه أن يكون رجلاً بمعنى الكلمة فلا يحطم قلب أختي التي لا أقدر إلا أن أحبها وأضحي من أجلها بكل ما أستطيع، أَوَلَيست هي الصورة طبق الأصل من والدتي. رحمها الله. فهل أقدر إلا أن أسعى لإسعادها ومهما كان الثمن، ثم أليست هذه هي إحدى تلك المثل العليا التي نشأت عليها، أن أحب أفراد عائلتي وأبذل جهدي لإسعادهم وإدخال البهجة عليهم؟.

جاءت كلماتي لفريد قوية واضحة ومحددة.. حتى إذا ما انتهيت مما أريد قوله، سألني هو بصوت بارد هادئ وكأن الأمر لا يهمه كثيرًا. قال: وأنت؟.

قلت: ماذا تعني؟، أنا بخير، وانسحبت دون أن أكمل كلامي، فكرت أن أذهب إلى جدتي، أن ألقي برأسي على صدرها الحنون وأن أحدثها بمتاعبي، أقول لها كل شيء، لكنني وبعد تفكير رأيت من الأفضل أن لا أفتح فمي بأي كلمة حول هذا الموضوع.

أختي في غرفتها تبكي وأنا بجانبها أحاول أن أمسح دموعها وأن أسري عنها، هي تحدثني عن شقائها وحيرتها، زوجها الذي يبدو بعيدًا عنها بقلبه ومشاعره وأنا أطالبها بالصبر وأغالطها فيما تقول وأطلب منها أن تعطيه الفرصة فالأيام كفيلة بتقريبه منها والعشرة كفيلة بأن تجعله يحس بها.

هذا ما كنت أردده على مسامعها.

أختي ماضية في الحديث عنه وعن نفسها تحاول ألا تستمع لما أقول، وفهمت بعد حديث طويل ما جعلني أعرف سر اضطراب نفسها، فهمت أنها باتت تعتقد أن بُعد فريد عنها بمشاعره وإحساساته إنما نابع من أنه يحب أنثى غيرها.

وسألتها بعد أن أخذ جبيني يتصبب عرقًا: أتعنين أنه يخونك؟ وكأني بهذا السؤال أنفي تهمة

عن نفسي وألصقها بأخرى قد يخونها معها إن كانت هناك خيانة ما.

قالت: لا، لسبب بسيط هو أن مَن يحبها لا يمكن أن يخونني معها، أصابني وجوم حاولت معه أن أبدو طبيعية لذلك سألتها وأنا أصطنع اللامبالاة عن اسم تلك الحبيبة التي تبعده عن زوجته، عروسه التي لم يقترن بها إلا منذ مدة بسيطة.

ابتسمت أختي ابتسامة شاحبة وناولتني المرآة الصغيرة التي كانت بجانب سريرها الذي تجلس عليه فوجدتني أطالع بهلع شديد صورة وجهي أنا.

وقبل أن أنبس ببنت شفة عاودت حديثها معي قائلة ورنة حزن وأسى تغلف صوتها: تصوري أنه يحبك أنت.

يحبني أنا؟، غير معقول. أجبتها وأنا لا أعي ما أقول.

ومضت أختي تقول بهدوء: إنه دائمًا يقارن بيني وبينك، بل ولا يتحرج من أن يقول إنه كان يتمنى لو كنت أنت أنا وأنا أنت.

سادت لحظات صمت قاسية بيننا كنت أفكر خلالها بأن أقول شيئًا، أي شيء مهما كان حتى لا تفسر أختي سكوتي وصمتي على غير ما أشتهي، وعاودني الهدوء وأنا أسمع أختي تتابع حديثها قائلة: ربما أكون مخطئة لكني مع كل ذلك أجزم بأنه حب من طرف واحد.

ضحكت في هستيرية وكأني لا أصدق ما أسمع ووجدتني ومن واقع حبي لها أقول: إذا كان ذلك صحيحًا أو مجرد وهم في عقلك فإن عليّ أن لا أحضر إلى بيتك وأن لا أرى فريدًا أبدًا.

قاطعتني أختي لتقول: لا أنا واثقة من أختي ورجاحة عقلها كما أنني واثقة منه أيضًا، فقد كنت أمامه قبل أن يقترن بي، وكان يمكنه أن يقول كلمة في هذا الموضوع تصحح مجرى الأمور إذا كان يعتقد أن على الأمور أن تتغير.

ابتسمت وأنا أحاول أن أتفلسف معها وأثني على فكرتها هذه، ونسيت في غمرة كل هذه الفلسفة أن أخبرها أنني سأسافر قريبًا، سأبعد عن هذا البيت لأواصل تعليمي وهي فرصة بعثها الله. سبحانه وتعالى. لي لأحافظ أيضًا من خلال سفري على هدوء حياة أختي التي أحب، إذ ربما بُعدي عنه يجعله يكف عن ملاحقة أختي بعبارات المقارنة بيني وبينها والتي كانت دائمًا تنتهي لصالحي، لأنني هادئة عاقلة رزينة وهي ثرثارة عالية الصوت تحاول دائمًا أن تعكنن على عيشته. كما كان يردد على مسامعها.

وأنا ماذا عني؟، ماذا عن مشاعري؟.

نعم البُعد دواء، والمسافات الطويلة التي سوف تفصلني عن بلدي والظروف الجديدة التي سأعيش فيها سوف تساعدني بالتأكيد على نسيان وجه ذلك الطفل الذي عرفت، ومع ذلك فقد أصبحت حريصة أكثر بعد كلام أختي، أصبحت لا أزورها في بيتها إلا عندما تكون وحيدة، أما عندما تأتي لزيارتنا برفقته فقد كنت أنتحل الأعذار لأمضي أكثر وقتي في غرفتي مع كتبي وكراريسي وأحلامي التي باتت تتركز في أن أصبح طبيبة وطبيبة ماهرة تعالج الآخرين كما تعالج نفسها وروحها أيضًا.

ترى ماذا يخبئ القدر لهذه الصغيرة التي هي أنا؟.

وإلى متى سوف أظل على هذه الحال؟، وأختي.. هل يمكن لأختي أن تستعيد ثقتها بزوجها؟، هل يستطيع هو أن يزرع تلك الثقة في نفسها وهو الذي اختار أن يقترن بها عندما لم يحاول أن يقول لا.. لوالده، نعم.. أن يقول لا إنه يريد أن يقترن بغيرها؟، كان هذا كل ما يحتاجه الموقف وأنا متأكدة أن الأمور كانت ستتغير ولكن لماذا لم يفعل؟.

هل كانت تنقصه الشجاعة ليقف أمام والده ويقول مثل هذا الكلام؟، أم، لا.. لا أريد أن أفكر أنه ليس على تلك الصورة التي رسمتها له وأنه ليس ذلك الرجل الذي هو رجل بمعنى الكلمة كما كان يصوره خيالي لي.

وواصلت الأسئلة طنينها في أذني بلا رحمة ولا هوادة، هل، وهل، وهل يستطيع الزمن أن يجعلني سعيدة أنا التي أحس بشقاء العالم كله ينصب فوق رأسي؟

أسئلتي الكثيرة هذه تحتاج إجاباتها إلى صبر.

وإلى سنوات طويلة لا أظنني قادرة على اجتيازها بمفردي، هكذا وجدت نفسي أردد وأنا ساهمة شاردة أنظر إلى الأفق البعيد، إلى الشمس التي تغوص وراء البحر الأحمر الذي أراه هادئًا صافيًا من نافذة غرفتي التي أقف أمامها، هادئًا صافيًا بينما أعماقي أنا تهدر وكأنها موج عاتٍ في يوم عاصف ماطر.

هدوء البحر وصفاؤه انعكس عليّ وأعاد الهدوء إلى نفسي ووجدتني مع كل هذا الألم والحزن الذي يغلف قلبي أشعر بأنني سوف أستطيع أن أصل إلى المجهول الذي أبحث عنه.

والمجهول بنظري في تلك اللحظة كان هو العالم الجديد الذي سأنطلق إليه في رحلتي هذه المرة

مع الأمل وليس الألم فأنا.. أنا قادرة على تحمل وامتصاص الكثير من الآلام، أَوَلَم تثبت ذلك الأحداث التي مرّت بي حتى هذه الوقفة عند نافذتي أرقب غروب الشمس واختفاءها وراء البحر الأحمر لتعود من مكان آخر في صبيحة اليوم التالي متلألئة مشرقة تبعث الدفء والأمل في نفوس أمثالي.

***

تظل المرأة تعايش الأحلام طوال سنوات حياتها، ربما لأن طبيعة الحياة التي تمارسها والظروف التي تعيش فيها هي السبب، وربما لأنها جبلت هكذا، فالعاطفة جزء هام في حياة المرأة، والأحلام وسيلة من وسائل التنفيس عن الضغوط النفسية التي تحيط بقلب هذه الأنثى وجسدها، في إسلام آباد بالباكستان وفي كلية الطب لم أكن وحدي، كان معي أكثر من فتاة من بلادي، ولكم أحسست بالحب لهذه المهنة التي سأمارسها بعدما أعود إلى بلادي.

سهى واحدة من بنات بلدي ارتبطت معها بصداقة منذ أول يوم تعرفت فيه عليها.

قالت لي ونحن نأخذ طريقنا إلى غرفة النوم المشتركة: أتدرين يا رباب؟ أنت جميلة، ومع هذا تواصلين دراسة الطب، لماذا؟.

التفت إليها بكل جوارحي وقلت مستغربة مستنكرة: وهل دراسة الطب وقف على غير الجميلات.

وبهزة من رأسها قالت: نعم، ثم استطردت قائلة: انظري إلى وجهي، لو كان وجهي جميلاً لتزوجت وقبعت في بيتي هناك في مكة، لكني لا أكتمك السر بأنني بعد أن عرفت أن العلم طريق أمثالي في الحياة اخترت أن أحضر إلى هنا لألتحق بكلية الطب هذه.

فكرت كثيرًا فيما قالته سهى وأخذت أناقش نفسي بهدوء وأناقشها هي أيضًا، ولقد ناقشتها أكثر من مرة في هذا الموضوع، فأنا غير مقتنعة بفكرتها قلت لسهى في أحد الأيام: العلم نبع يمتلئ منه الإنسان إلى أن يرتوي، قد ترتوي إحداهن بالقليل وتفضل أن تقطع دراستها وتتزوج وقد لا تفعل أخرى ذلك وتبقى المسألة مسألة اقتناع بغض النظر عن جمال الوجه والقوام، ثم إن الجمال شيء نسبي فما قد يجده أحدهم جمالاً قد لا يجده الآخر كذلك، والعكس صحيح وهذا بحد ذاته ينفي أن يكون هناك إنسانة جميلة تمامًا وأخرى غير جميلة على الإطلاق، إذ تبقى هنا أيضًا المسألة مسألة اقتناع لتلعب بعدها القسمة والنصيب دورها في ربط هذا بتلك التي تبدو في

نظره جميلة والتي قد لا تبدو كذلك في عينيك أنت يا سهى أو في عيني سواك، وأعتقد أنني بمناقشتي هذه أقنعت سهى فقد كفّت عن الخوض في هذا الموضوع تمامًا بعدها.

نعم أقنعتها ولكني لم أقتنع أنا بما روته لي، فهي وإن لم تكن جميلة فهي مقبولة ولا بد أن تجد من يتقدم للزواج منها، لذلك سألتها مرة ونحن حول مائدة الطعام: أو أحببت يا سهى؟.

وصمتت سهى ولم تجب لكنني رأيت دمعتين تنحدران بهدوء على خديها فاحترمت حزنها ولم أكمل، إلا أنها وبعد أن استجمعت نفسها حدثتني بكل قصتها، قالت بأنها أحبت ابن الجيران وشعرت وهي صغيرة بأنه فارسها وأنه سوف يخطبها، ولكن بعد أن كبرا خطب صديقة لها وتركها تجتر أحزانها، وتبكي حلمًا لم يتحقق أبدًا.

سألتها: هل قلت له شيئًا؟، هل عرف بإحساسك نحوه؟.

أجابت بحزن: لا فأنت أعرف بطبيعة المجتمع الذي نعايش، ثم صمتت، لم أتركها لصمتها هذه المرة بل واصلت حديثي معها قائلة: أو تحبينه حتى بعد أن تزوج؟.

ابتسمت بهدوء ثم قالت: مشكلتنا نحن الحرائر هي أن أحلامنا تظل تواصل رحلتها معنا حتى عندما نفقدها.

اكتفيت بهذه الإجابة التي تؤكد إخلاص المرأة لحبها عندما تحب بصدق، وانخرطت في النوم لأجد نفسي مرة أخرى في حوش التاجوري الذي ضاع.

وصحوت من نومي لأتسلم رسالة من سارة صديقتي أخت فريد، وأخذت أقرأ الرسالة، ستستغربون مثلي كل ما قرأت، حاولت أن أنسى كل ما جاء في تلك الرسالة ولكن بلا جدوى.

أتدرون ما قالته سارة صديقتي وأخت فريد في رسالتها؟ لقد قرر أبوها أن يزفها إلى أبي وهي راضية بهذا القرار.

أبي لم يكتب لي ولكني وجدت أن من المناسب وبعد أن زالت الدهشة والاستغراب من نفسي أن أبعث إليه برسالة أشعره فيها بحقه في الزواج بعد كل هذه السنوات التي انقضت على وفاة أمي، بالطبع لم أذكر برسالتي تلك اسم من يمكن أن يختارها ليقترن بها، تركت ذلك له وكأني لا أعلم عن الأمر شيئًا، بل كل ما أعلمه هو أنني أريده أن يكون دائمًا سعيدًا وراضيًا.

وعلمت من أختي بعد ذلك تفاصيل ما حدث، فأبي اليوم هو من كبار الملاك، جادت عليه الحياة بالمال الوفير من خلال أعماله التي باتت تكثر وتتشعب يومًا بعد يوم، وأصبح في مقدورنا أن

نعايش الترف، حتى أنا أصبحت أعايش هذا الترف، فقد زاد أبي من كمية المال الذي يبعث به إلَيّ، ولكن هل عز علَيّ أن يتزوج أبي بعد كل هذه الأعوام ورغم تلك الرسالة التي كتبتها له؟.

نعم مثل هذه الفكرة طرأت على بالي لكنني كنت أطرحها بعيدًا عني بقوة وصلابة فأبي على حق في أن يتزوج، وحزني في أن يكون هناك أنثى أخرى تحتل مكان أمي في بيتنا وفي قلب أبي يجب أن يكون لا معنى له أبدًا.

زواج المرأة والرجل سُنة وضرورة، وبهما تكتمل مسيرة الحياة، لكن أن يتزوج أبي ويأتي بأخرى تحل محل أمي.

وأن يتزوج فتاة في عمر سارة فذلك شيء لم أستطع أن أستسيغه أبدًا وإن كنت أبدو في الظاهر أنني راضية ومقتنعة بما حدث، هكذا شاء لي القدر دائمًا أن أبدي اقتناعًا بوضع أشعر في قرارة نفسي بعكسه تمامًا.

وتوالت رسائل أختي، وعرفت منها كم تغير أبي بعد زواجه من سارة، لقد استطاعت هذه الفتاة أن تصنع منه رجلاً آخر ولدرجة خفت معها على أبي، فتغيير الظروف الحياتية لأي إنسان في مثل عمر أبي وفجأة ـ كما حدث مع أبي ـ أمر لا يطمئن الإنسان إليه أبدًا.

سارة أخيرًا كتبت لي رسالة تقترح علَيّ أن أعود إلى جدة بعد أن تهيأت الظروف لاستكمال دراستي في كلية الطب التي كان قد تم إنشاؤها في جدة منذ مدة وأنه بذلك لا معنى لاغترابي.

نعم لقد تغيرت أحوال الحياة في بلادنا، وساد التعليم كل ركن من قرانا ومدننا، وأصبح التعليم الجامعي بكل تخصصاته متيسر لكل من يريد، وسولت لي نفسي أن أرفض العودة لكن حبي لأرضي ومجتمعي وللحياة فيها ـ وإن بدت أنها أثقل على نفس أنثى مثلي ولها مثل ظروفي إلا أنها بشكل عام أجمل وأحب وأحلى.

جمعت ملابسي واتخذت كافة السبل والترتيبات الخاصة للعودة إلى الوطن في بداية الإجازة السنوية.

أمضيت فترة من الزمن أشترى من أسواق مدينة إسلام آباد التي أعيش فيها بعض الهدايا.

لكنني على كثرة ما رأيت لم أجد شيئًا يمكن أن أشتريه وأقدمه هدية لأبي، فكرت كثيرًا ثم عزمت على أن اختار له بعض العطور، عطور الورد والعود التي يحبها أَوَلَيس أبي الآن عريسًا يقضي معظم وقته مع زوجته سارة في الأسواق ينتقي الثياب الجديدة لها وله ويشتري من

العطور الشيء الكثير. كما أخبرتني أختي في إحدى رسائلها؟.

وجاء يوم السفر، حملت أغراضي مع شوقي وحنيني إلى الوطن وإلى بيتنا وغرفتي المطلة على البحر وركبت الطائرة وأفكاري تأخذني هنا وهناك، ترى ما شكل الحياة التي سوف أحياها مع أبي وزوجته سارة.

لا.. إن سارة طيبة وهي صديقتي ولا بد أن الأمور سوف تسير على ما يرام بيننا، هكذا كنت أحدث نفسي لأجد بعض الطمأنينة في أن أبي لم يتغير وفي أن مشاعره لي ولأختي سوف تستمر قوية دافئة كعهدها دائمًا.

في المطار الذي كدت لا أعرفه، كانت سارة وأبي في انتظاري، فلقد وجدت أشياء كثيرة إلى جانب المطار قد تغيرت في بلادنا بفعل التطور والازدهار الذي رافق الحياة في تلك الآونة، حتى أبي تغير، فقد وجدته قد أصبح ناعم الملبس، ينتقي حديثه مع الجميع بعناية، وكأنه يفاخر بأنه يعرف كيف يعيش حياته بسعادة وهناء.

عندما قدمت لأبي وسارة الهدايا التي أحضرتها لها، ضحكت سارة وقالت: لقد أصبح أبوك لا يستعمل مثل هذه العطور، إنه يفضل البروت والجفنشي والعطور الأخرى الباريسية.

نظرت إلى أبي فرأيته وكأنه يؤمّن على قولها فلم أمتعض.

ربما لأن عقلي الباطن كان يخمن أنه لا بد وأن يحدث تغيير جذري في حياة أبي عندما يتزوج ويدخل امرأة أخرى إلى بيتنا.

رحت أتحين الفرصة التي يمكن لي معها أن أتحدث إلى سارة على انفراد.

وبالفعل حانت تلك الفرصة بعد أيام من وصولي.

سألتها عن زواجها وحياتها مع أبي فلم تبخل عليّ بأدق التفاصيل.

قالت لي: إنها قد رحبت بمثل هذا الزواج الذي يتيح لها حياة رغدة هانئة.

وقالت عن أبي إنه زوج رائع لكنه غيور وأنها حاولت ولا تزال تحاول تهذيب غيرته هذه.

نظرت إليها وكأني أسألها سؤالاً لم أجرؤ على أن أقوله بصوتي، فقالت مجيبة: صدقيني لم أقل له أي شيء مما أعرفه عن حبك لفريد أخي، ذلك الحب الذي أعتقد أنه ذوى ومات.

هززت رأسي مؤمّنة على كلامها وأخذت طريقي إلى غرفتي وأنا أفكر.

ترى أيمكن للمرأة أن تتغير هكذا فجأة؟، سارة لم تكن كذلك أبدًا، لم تكن تجري وراء الزوج

الغني، فهذه الصديقة كانت تحلم بشاب مفتول العضلات يأتي على حصان أبيض من الأفق البعيد حاملاً الحب والعاطفة المتأججة، ما بالها لم تعد تفكر بأحلامها تلك والتي كانت جزءًا من حياتها وهي طفلة وعلى أعتاب الصبا والشباب في حوش التاجوري حيث كنا نجتمع بالساعات تحكي كل منا عن أحلامها وآمالها والحياة التي تتمناها في المستقبل ويوم تصبح امرأة ناضجة تكافح مع رجلها وتبني أسرتها السعيدة طوبة طوبة، ما بالها قد نسيت كل ذلك واختارت الحياة الهينة اللينة أسلوبًا لها تعيشه في هذه الدنيا؟.

شعرت بأنني أكاد لا أفهم هذه المرأة، أهي صادقة فيما تقول عن أبي؟، أهي ممثلة؟، ماذا تريد حقًّا وإلى ماذا ترمي من هذا الزواج؟.

أسئلة خفت أن أجيب عليها بكلمة واحدة كانت ترن في أذني: المال.. إنها تزوجت المال ولا يهم من يملك هذا المال، لا، لا أريد أن أصدق، لا يمكن أن يكون الوضع كذلك أبدًا، سارة أحبت والدي، رأت فيه الحنان والحب والعطف ولذلك تزوجته، تزوجته كي تضع رأسها على كتف رجل يستطيع أن يحميها، أفكار أخذت تتضارب في عقلي ولم تترك لي فرصة لأرتاح وأستكين، لقد قدر لي أن أكون دائمًا هكذا مشتتة الذهن مشغولة الفكر بسعادة أولئك الذين حولي، الشيء الذي لم يترك مجالاً لي كي أفكر بنفسي، وتنهدت وأنا أغلق نافذة غرفتي فنحن في فصل الشتاء وأنا أشعر ببرودة غريبة تدب في كياني وعقلي وقلبي.

أما أبي فقد تغيرت نظرته للحياة، لقد أصبح أكثر تفاؤلاً خصوصًا بعد أن حملت سارة، لقد أحس برغبة شديدة في أن يصبح أبًا لطفل جديد وأصبح يتحدث إلَيّ وإلى أختي ثريا أكثر من ذي قبل، كان يطلب منا ومن كل من يعرفه أن ندعو له الله كي ينجب ولدًا.

كان أبي يتوق لهذا الولد منذ كنا صغارًا وحتى قبل وفاة أمي، لكنه نسي هذا الأمر مع الزمن وخصوصًا بعد وفاة أمي، وقال عني في أكثر من مناسبة بأنني أنا التي سوف تغنيه عن هذا الولد الذي لم يأت.

أما اليوم فأبي إنسان آخر، سارة تضحك من لهفة أبي على الطفل حتى إذا مرت الأيام وأنجبت أراد الله لها ولأبي حظًا كبيرًا فقد أنجبت سارة توأمًا (ولدين) معًا.

أضافا على البيت لمسة حب جديدة ولمسة انتعاش سرت وتغلغلت لا في نفس أبي وحده؛ بل وفي نفسي أنا أيضًا.

ترى لماذا يتلهف الآباء والأمهات على إنجاب الأولاد؟، وهل هذا يعني أن الولد في رأي كل هؤلاء أهمّ وأفضل من البنت؟.

أفكار كثيرة من هذا القبيل أخذت تحاصر مخيلتي، أنا التي بودها أن تعرف كل شيء وأن تصل إلى أعماق كل شيء.

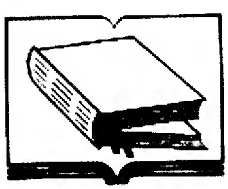
أختي هي الأخرى أصبحت شيئًا مغايرًا للأمس.

لكنها وبعد عودتي أحسست بأنها تحمل بين جنبات قلبها همًّا ثقيلاً لا تريد أن تفضي به إلى أحد حتى أنا.

أما أنا فقد عقدت العزم على أن أنسى طفولتي وذكرياتها وكل شيء عنها، ولقد شغلتني دراستي عن كل هذه الأفكار والذكريات، نعم شغلتني دراستي التي أخذت تسد علَيّ جميع منافذ التفكير في الماضي، أنا التي كانت أفكاري تشاغلني باستمرار، لقد انخرطت في دراستي وأنا مشوقة لأن أصل إلى الغاية التي أريد وَكُلّي أمل في أن أعاود التجوال في ظروف الحياة التي نمارسها على أرض هذا العالم بعد أن أصبح طبيبة.

طبيبة يشار إليها بالبنان.

***



(٣)

أختي تعود إلي بيتنا هذه المرة لتستقر نهائيًا فيه.

لقد قطعت شعرة معاوية مع زوجها الذي اختار أن يبقى نائيًا عنها.

منذ وصول أختي إلى البيت وسارة تنظر إلَيّ نظرات جانبية وددت لو أؤدبها عليها، لكنها لم تعاود الكرة منذ أن رأت تلك النظرة في عيني والتي تنبئ عما أنا عازمة عليه، ولقد أصبح شغلي الشاغل سهري وصبري على أختي التي أحست بحبي الكبير لها وإيثاري لها في كل شيء لدرجة جعلتها تتحدث إلَيّ طويلاً وتفضي إلَيّ بكل الذي كان بينها وبين زوجها، حاولت أن أصرفها عن هذا الحديث ولكنها كانت تصر على أن أستمع إليها، ولقد هالني كل الذي قالته أختي عن زوجها وما كان يحاول أن يدخل به في روعها عن حبه لي وحبي له، وأنه إنما تزوج بها إنفاذًا لرغبة أبوين، أبوه وأبي، كانت المسكينة أختي تستمع إلى كل ما يقوله زوجها ثم تنسى كل ما كان يقول، كان يساعدها دائمًا على النسيان معرفتها بي وبصدقي معها حتى إذا ما طفح الكيل طلبت منه أن يطلقها ويتزوجني وهي تعرف أن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يتم، ولا تدري منذ متى ساءت أخلاقه أكثر وأكثر، أو ربما كانت أخلاقه سيئة أصلاً، وإنها بدأت تتكشف لها مع الأيام وبمرور الزمن، المهم أنه كان يوجه لها ليلاً ونهارًا تلك العبارات التي تدل على عدم اقتناعه بها، وعلى حسرته على أيامه التي سوف يقضيها مرغمًا معها إنفاذًا لرغبة والده، وفجأة وبينما كانت تقص علَيّ أخبارها من زوجها التفتت إلَيّ وسألتني بجدية: أَوَتتزوجين هذا الغادر لو كان الأمر ممكنا؟ وبلا وعي أجبتها: لا وألف لا، ومن كل قلبي، وأحسست بعدها بالراحة فجأة، فعلاً أحسست أنني لا أعرف هذا الإنسان الأناني الذي يقضي وقته في اللهو بعيدًا عن مسؤولية بيته وزوجته، لا أعرف هذا الإنسان الذي هو أبعد ما يكون عن ذلك الرجل الذي كنت أحلم به وأنا صغيرة وأصنع منه مثالاً لكل الرجال، وجاء دوري أسأل: أَوَلاتزالين تحبينه؟، صمتت أختي بشكل يوحي أنها بالفعل ما زالت تحبه.

عدت أسأل: رغم كل ما كان يقول وما كان يفعل؟ صمتت مرة أخرى بشكل جعلني أتبع ذلك السؤال بسؤال آخر، قلت: أَوَتَوَدّين أن تعودي إليه؟، قالت: لا.

لماذا؟، تساءلت وأنا متلهفة أن أسبر أغوار أفكار أختي التي فاجأتني وأدهشتني في نفس الوقت.

أجابت: لأنه لا يستحق أعود إليه برغم حبي له؛ حبي الصادق الذي بدأ يوم عرفت أنه سوف يكون من قسمتي ونصيبي.

نظرت إلى وجه أختي وقلت: على أي حال أنت لا تزالين صغيرة والمستقبل أمامك فلماذا لا تصنعين ما أصنع؟

ضحكت أختي وقالت: تريدينني أن أعود للدراسة لأصبح مثلك؟.

وما المانع؟، قلت وأنا أعني كل كلمة أقولها.

عندها وجدت أختي أن لا مناص لها إلا أن تجيب بعبارة: دعيني أفكر، قلت: فكري جيدًا فربما بالتعليم تستطيعين الخروج من الحيرة التي تعيشين فيها فتعرفين تمامًا ماذا تريدين وكيف تصلين إلى ما تريدين. قالت ـ وهي تبدو شبه مقتنعة: لا بأس ولكن مشواري سوف يكون كما ترين طويلاً.

لم أعقب على كلامها وتركت ذلك لحديث آخر في مرة أخرى وانسحبت إلى غرفتي وأنا أفكر في كل ما سمعت.

ترى هل يمكن لأختي أن تنساه إذا ما عاودت رحلتها مع العلم؟ إذا ما انغمست بين الكتب والمراجع؟.

وفي يوم تخرجي من كلية الطب فاجأتني أختي برغبتها وعزمها على العودة إلى مقاعد الدراسة، لم أصدّق في أول الأمر فالموضوع قد ناقشناه أكثر من مرّة وكانت في كل مرة تبدو شبه مقتنعة ولكن الأيام تمر بعدها فلا أراها تقدم خطوة واحدة في طريق تنفيذ هذا الأمر.

أعادت علَيّ أختي كلماتها متمهلة وكأنها كانت تظن أنني لم أسمعها وأنني مشغولة عنها بالفرحة الغامرة التي شاعت في أرجاء نفسي وفي أرجاء بيتنا الكبير بمناسبة تخرجي وابتداء كوني بالفعل أصبحت طبيبة بعد أن كان الجميع ينادونني بلقب الدكتورة رباب باعتبار ما سيكون.

وسمعت أختي تقول: ألا تساعدينني سوف أعود إلى مقاعد الدراسة.

أجبتها بفرحة غامرة تضاف إلى فرحتي بتخرجي: بالطبع سوف أساعدك وأقف إلى جانبك

كما فعلت دائمًا، غدًا ومنذ الصباح الباكر سوف نزور صديقتي سوسن التي تعمل في مكتب الشؤون التعليمية لتقدم أوراقك ونرى من أين يمكن أن تبتدئي مرة أخرى.

أثبتت الأيام صدق أختي في رغبتها في المضي قُدُمًا في رحلة العلم الطويلة، مضت جادة تختار طريقها بصلابة لا تقلّ عن صلابتي في اختيار طريق حياتي تاركة وراءها أيامًا لا تريد أن تتذكرها ـ على حد تعبيرها.

ولقد كنت أرمقها وأنا في رضى تام عن نفسي، فلقد نفذت واجبي نحوها بدقة، وأخذت بيدها لكي تصل إلى شط الأمان، ولم أعد قلقة عليها البتة، ولا عجب فهذه هي أنا، الإنسانة التي كان ولا يزال جُلّ همها أن تكون إنسانة تملك في يدها وعقلها وقلبها ما يساعدها على أن تمنح السعادة لمن حولها ولمن يطلبها منها.

وفي أعماقي كنت أشعر أن عملي كطبيبة سوف يمنحني قدرة أكبر على تنفيذ مثل هذا الأمر.

وانصرفت بادئ الأمر إلى تحقيق هذه الرغبة في إسعاد الآخرين وبأكبر شكل ممكن إلى أن أحسست في أحد الأيام وبعد حديث طويل مع أبي أن علَيّ أن أفكر في حياتي الخاصة، أفكر في نفسي فالأيام تجري وعلَيّ ـ كما يقول أبي أن اقتنص سعادتي الشخصية قبل أن يفوت الأوان، نظرت يومها إلى وجهي في المرآة.

نظرت طويلاً إليه فرأيته لا يزال ذلك الوجه الطفولي رغم سنوات عمري التي باتت تقترب من الحلقة الثالثة.

يقولون إن المرأة تشعر بالعنوسة عندما تتعدى سنوات عمرها الثلاثين فهل كان أبي يخاف علَيّ من العنوسة عندما طلب مني الالتفات إلى حياتي الخاصة والاهتمام بها، وهل أنا شخصيًا أخشى هذه العنوسة؟، لا وألف لا، أنا لا أفكر في شيء من هذا، عالمي اليوم هو بيتنا، أبي وزوجته وأخَوَيّ وأختي، وأنا جدًّا سعيدة بهذا العالم.

أبي أصبح أكثر حاجة لي كطبيبة منه لي كابنة، لقد أصيب قلبه الذي لا يعرف إلا الحب بشيء غير يسير من المرض.

لن أقول لكم ماذا أصاب قلب أبي فأنتم في غير حاجة لهذه التعبيرات الطبية التي نستعملها، يكفي أن أقول إن خلطًا شارك دقات قلبه فمزق ذلك الخلط قلبي أنا ابنته الطبيبة.

كنت أنظر إليه وأنظر إلى زوجته سارة فأخاف عليه أكثر وأكثر عندما أراه يزداد كبرًا وذبولاً،

وتزداد هي إشراقة وفتنة، ولقد أحسست بانصرافها عنه وعن رعايته بعد أن ازداد المرض عليه رغم أنه هو شخصياً لم يكن يشكو أبدًا، وربما لأنه أحس بالخطأ لزواجه بها، إلا أنه يظهر أن مثل هذه الفكرة كانت تختفي تمامًا عندما تلتقي عيناه بعيني ولديه بدر وبندر، لأنني كنت أحس عندها وكأن سعادة العالم كله تبدو واضحة على وجهه المتغضن ذي الابتسامة التي تشع عطفًا وحنانًا.

ترى أَوَيُمكن أن يتمسك الإنسان بالحياة هكذا مثل والدي وعن طريق أن يخلف وراءه من يحمل اسمه من أولاده، ثم أن يتشبث بالحياة أكثر وأكثر ليرى من يحمل اسمه شابًا قويًا يستطيع تسيير حياته بنفسه؟.

نعم هكذا كان والدي.

ذات مرة قال لي والأسى يعلو وجهه: كنت أظن أنني سوف أعيش لأرى بدرًا وبندرًا رجلين يعتمد عليهما فأطلب منهما رعايتك أنت وأختك بعدما أموت، لكن المرض يشتد علَيّ ويظهر أنه لن يمهلني طويلاً حتى يتحقق لي مثل هذا الأمر، هل لي يا بنيتي أن أطلب منك أنت رعايتهما إذا ما أغمضت عيني في القريب العاجل؟.

ابتسمت ابتسامة حزينة وأنا كطبيبة أعرف تمامًا صدق ما يقول عن اشتداد المرض عليه ولكن بصوت حاولت أن أبدو فيه مرحة متفائلة قلت. كما يقول الناس عادة في مثل هذه الأحوال: بعيد الشر عنك يا والدي.

وكنت أتمنى لو أنه بالفعل يحدث شيء ما يرد لأبي صحته ويجعله يعيش طويلاً، يعيش ليرى بدرًا وبندرًا رجلين كما يرغب ويتمنى.

تابع أبي كلامه قائلاً: لم أعد أخاف عليك أو على أختك ولكني أخاف على هذين الصغيرين من هذه المرأة التي لا تؤتمن عليهما وكان بالطبع يعني زوجته سارة.

قال ذلك أبي بحسرة، ورغم إيماني بما كان يقوله عن سارة التي غدت امرأة لعوبًا لا تهتم إلا براحتها وسفرها وانبساطها. إلا أني حاولت أن أطيّب خاطره وأن أرجوه ألا ينفعل لأن الانفعال يزيد المرض ولا يساعد أبدًا على الشفاء منه.

أبي صورة مشرقة للحياة الحلوة، فهو رغم مرضه إلا أن مرحه معي ومع أختي وولديه يكاد لا ينتهي، أما بالنسبة لسارة فقد تغيرت نظرته لها بعد أن رأى انشغالها الأكيد عنه.

قال لي مرة وأنا أجلس إلى جانبه على حافة سريره: ألم تعتقدي في يوم من الأيام أنني قد

أخطأت بزواجي ثانية بعد أمك ـ رحمها الله؟.

نظرت إليه نظرة حانية وقلت لأول مرة معاتبة: ربما لو تزوجت بغيرها لما خطر على بالك أن تفكر في هذا الذي تقوله الآن.

عقب على كلامي قائلاً: لا أكتمك القول، لقد قلت هذا الكلام لنفسي مرارًا وتكرارًا بعدما أحسست أنني أخطأت بزواجي من سارة ولكن ما العمل؟، كنت في يوم من الأيام لا أفكر إلا بأن أرى لي ولدًا على هذه الأرض وكانت أيامها سارة أمامي وأبوها صديقي فلم أر نفسي إلا وأنا أتزوجها، قال ذلك وهو ينظر إليها وهي تدخل الغرفة.

حاولت سارة أن تعرف ماذا كان يقول أبي عنها حيث التقطت أذناها وهي تدخل الغرفة اسمها ينسل همسًا من بين شفتي أبي، ولكن أبي لم يفصح لها عن أي شيء مما كان يقوله، عندها انفجرت غاضبة وراحت تقول بصوت عال بل زعيق يسمعه كل من في البيت: طبعًا يحق لك أن تخفي كل ما كنت تقوله عني، فأنا لست قريبة منك وإن كنت زوجتك.

لم يجب أبي على ذلك الصراخ، وأنا بدوري لم أقل شيئًا، آثرنا الصمت حتى لا تغضب أكثر فينال أبي من سياط لسانها ما عودته عليه في الأيام الأخيرة وما كان يبرهن على أنها لم تعد سارة صديقتي القديمة التي كانت من العقل والرزانة بحيث إنني كنت أبوح لها بأدق أسراري.

خرجت سارة من غرفة أبي بعد سيل من اللوم والعتاب والكلام القارص، ودخلت أختي بعدها لترى ماذا يحدث، وماذا يغضب تلك القطة المتوحشة التي باتت (تخربش) كل من يعترض طريقها.. إلا أن أبي عاود حديثه معنا وكأن الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد، عاود حديثه بكل الحنان الذي تعرفه أختي عنه قبل أن أعرفه أنا، ألم أقل لكم إنها أختي وتكبرني بأعوام خمسة وإنها الصورة طبق الأصل عن أمي الأناضولية التي مضت إلى بارئها تاركة إياها وإياي في عهدة هذا الوالد الطيب الذي لم يألُ جهدًا أن يكون لنا أبًا وأمًّا في نفس الوقت.

نعم سارة أصبحت إنسانة غير تلك الصديقة التي عرفتها، وغير تلك الزوجة التي كانت عليها في أول عهدها بالزواج من والدي، كل شي فيها تغير، أصبحت لا تكلم أحدًا منا، تميل إلى الصمت دائمًا، وإذا ما تكلمت فهي تتكلم بالتليفون مع صديقات جدد لها لا أعرفهن، وإذا ما خرجت فإنها تقضي الساعات خارج بيتها، ومع هؤلاء الصديقات اللواتي كما كنت ألاحظ لا هَمّ لهن إلا الأحاديث الفارغة والكلام المنسق عن الموضة وأحدث صيحات الأزياء في العالم.

وهي بذلك تزداد بُعدًا عن أبي، وتزداد شططًا في طلباتها بعد أن دان لها كل شيء. كما كانت تعتقد. بمنح والدي بدرًا وبندرًا اللذين لم تكن لتعرف عنهما أي شيء، فهما بالفعل في رعايتي أنا، وهي في المقابل بعيدة عن أي مسؤولية في البيت، وأبي في ذلك كله لم يعد قادرًا على مجاراتها أو فرض إرادته عليها.

قالت لي يومًا: لقد زهقت من هذه الحياة التي أعيشها جاء الصيف وانقضى ولم نسافر إلى أي مكان يعيد البهجة إلى نفسي.

نظرت إليها نظرة عتب ولوم وقلت: وكيف تسافرين وزوجك على ما هو عليه؟.

قالت بعناد وإصرار: ولكني لا أزال شابة في مقتبل العمر مثلك، ويجب أن أتمتع بشبابي قبل أن يتقدم بي العمر.

(مثلي أنا؟) تساءلت بسخرية.

أجابت بتحدٍّ: نعم مثلك، ولكن لماذا تسخرين مني ومن كلامي؟.

قلت: لأنك اخترت أسهل طرق العيش وهذه هي النتيجة فتحمّليها.

بكت سارة ولكني لم أحفل بدموعها وتابعت كلامي قائلة: لو كانت لديك الشجاعة الأدبية الكافية لقلت لنا ماذا تريدين ووضعت حَدًّا لهذا الذي أنت فيه.

مسحت دموعها وقالت بحدة: وماذا تعرفين أنت عن الذي أريده والذي لا أريده؟.

قلت بهدوء: بلى أعرف، بعد أن صنعت حياتك بالأسلوب الذي تريدين تجدين الآن أنك كما تقولين في مقتبل العمر، وقد ارتبطت برجل في أواخر أيامه فلم يعد هذا يرضيك، وتابعت كلامي قائلة وأنا أقصد إيلامها: ثم إنه أصلاً لماذا رضيت به من البداية؟.

نظرت إلَيّ نظرة غريبة لم أعرف كيف أفسرها ولكنها لم تجرؤ على الكلام بل تركتني وانسحبت تدخل غرفتها وتصفق الباب وراءها وكأنها تعلن احتجاجها على كلامي هذا.

مضيت إلى أبي لأرى إذا كان يريد شيئًا قبل أن أنام لكني عندما وصلت إلى سريره صعقت وأحسست كأن السماء قد انطبقت على الأرض، يا إلهي لقد مات أبي، ودّع الدنيا منذ دقائق وأنا وأختي وولداه بعيدون عنه، وعلى دويّ صوتي وصراخي جاءت أختي لتشاركني البكاء المرير على أبٍ كان كل شيء في حياتي.

عندما دخل بدر وبندر الغرفة ثم سارة رجوتها أن تأخذهما بعيدًا، لا خوفًا عليهما وإنما لأنني

أحسست برغبة في أن أبقى لفترة مع أبي وأختي، أسرته الأولى قبل أن يمضي من الغرفة إلى مثواه البرزخي، ذهاب دون إياب ولا عودة إلى الدنيا.

امتلأ بيتنا بالأهل والأصدقاء، وجاء فريد لأول مرة منذ أن انقطعت أواصر الزواج بينه وبين أختي.

جاءنا معزيًا فلم أستطع أن أقول له شيئًا، تقبلت منه العزاء وأنا ساهمة أفكر في هذا الذي جرى وأستعرض حياتي منذ كنت طفلة وكأنه شريط سينمائي يمر أمام ناظري.

أستعرضها منذ طفولتي وحتى هذا اليوم الذي نحن فيه نتقبل العزاء بأبي الذي نحب وبعد أن ودعناه إلى قبره قبل أيام.

***

بمقدار ما تصبح الثروة نعمة بالنسبة للإنسان بمقدار ما تصبح في بعض الأحوال نقمة تزيد من هموم أصحابها ولا تمنحهم الراحة.

سارة زوجة أبي جعلت من ثروة أبي ما يشبه النقمة بالنسبة إليها، فهذه النهمة لا تريد أبدًا أن تنال حقوقها بطريق ودّي، لقد زادت شراستها بعد موت أبي وأصبحت عبئًا ثقيلاً على أسرتنا، لقد وضح هدفها وانفضحت رغباتها، إنها تريد أن تمسك بميراث ولديها إلى جانب ميراثها لتصرفه حسبما تريد وتشتهي، لكني كنت لها بالمرصاد، نعم خفت على أخويّ من هذه المرأة التي هي أمّهما مما اضطرني أن أطلب من عمي ولأول مرة أن يتدخل بيننا وبينها بعد أن تركت ولديها والتحقت بأخيها غاضبة وعلى أمل أن نرضخ لطلبها.

ولكم أحسست بالأسى وأنا أستمع إلى الأخبار التي تصلني من هنا وهناك عنها وجُلّها تشير إلى ما تريده هذه المرأة.

إنها تريد الزواج، وبالفعل تمّت خطبة سارة إلى أحد أقاربها من الشبّان والذي رأى في زواجه من أرملة ورثت كذا ألفًا هدفًا ليصل إلى حياة رغدة سهلة دون أن يتعب أو يكد في سبيل الوصول إلى مثل هذه الحياة، أي تمامًا مثلمًا فعلت هي عندما تزوجت من أبي.

إن ما تأخذه المرأة من زوجها السابق تدفعه حتمًا - وفي كثير من الأحيان لزوجها التالي - في محاولة لإرضائه خصوصًا إذا كان مثل سامر الذي (لاحَقَ سارة لا حُبًّا فيها وإنما حُبًّا بالمال الذي ورثته من أبيك) - هكذا قالت جدتي عندما علمت بقرب زفاف سارة من سامر العاطل عن

العمل والذي رأس ماله قوام رشيق وكلام أنيق منمق يرضي غرور أمثال سارة ويدفعها لأن تقول: وماذا يعني أنه لا يعمل، إن حظه سيّء بحيث إنه كلما التحق بعمل وجد فيه ما ينغص عليه عيشته فيتركه غير آسف.

ثم إنه بالمال الذي معي أستطيع أن أعيش وإياه عيشة هانئة حتى من غير أن يعمل أو ربما قد أفتح له محلاً تجاريًا ليصبح من رجال الأعمال فهو ذكي ولماح واجتماعي.

(ووصولي وانتهازي بمعني الكلمة) هذا ما وددت أن أرسل من يقوله على لساني لسارة التي أصبحت تعيش بعيدًا عنا في بيت أخيها فريد، عندما وصلني رأيها في سامر وخططها المستقبلية معه، ولكني تمالكت أعصابي ولُذت بالصمت أفكر بسارة التي باتت تنزلق رويدًا نحو حفرة خطيرة رضيت أن تحفرها لنفسها بنفسها.

أما فريد فقد حاول أكثر من مرة أن يتقرب إلَيّ وبأكثر من واسطة، لكني كنت دائمًا أصدّه وأقفل الأبواب والسبل التي كان يحاول عن طريقها أن يلج مرة ثانية إلى حياتنا.

أختي نالت شهادتها الجامعية - بكالوريوس آداب قسم علم اجتماع - ولقد سعدت كثيرًا وأنا أراها سعيدة وكأنها نسيت آلامها وحياتها الماضية، ولكن ما أسعدني أكثر هو أن الدكتور خالد أحد الأطباء العاملين معي قد تقدم لطلب يدها حتى بعدما عرف ظروف حياتها الماضية، وللعلم فإن الدكتور خالد طبيب بارع مشهود له بالتفاني والإخلاص في عمله وبالأخلاق الحميدة أيضًا.

حاولت أن أعرف رأي أختي به وبخطبته لها إلا أنها كانت تتمنع وتأبى أن تجيبني حتى تلك الليلة التي استطعت فيها النفاذ لعقلها الباطن وإقناعها، لقد كانت تخشى الزواج مرة أخرى بعد تلك التجربة الفاشلة مع فريد.

قلت لها في تلك الليلة وأنا اكتشف مخاوفها: ثريا يا عزيزتي إنك لا زلت شابة وبمقدورك أن تنسي تلك التجربة القاسية التي مرت بك فالحياة لا يمكن أن تسير على وتيرة واحدة؛ فلا بد من صعود وهبوط فيها، ولا بد من أيام عصيبة مليئة بالمشكلات وأيام سعيدة هانئة نتطلع إليها حتى ولو كنا في خضم تلك الأيام العصيبة، فكما يقولون لولا فسحة الأمل والإيمان بأن الله لا بد وأن يغير الحال بأحسن منها لما عاش الإنسان.

نظرت أختي إلى وجهي نظرة ملؤها أسى ولوعة وقالت: لقد جربت حظي يا رباب وأنت تعرفين ملابسات زواجي من فريد، فرض علينا ذلك الزواج بإرادة والدي ووالده، وعندما رضيت

بقسمتي ونصيبي وضع فريد العراقيل أمامي، فأحياناً يتمنى لو تزوج منك، وأحياناً يتمنى لو لم يتزوج على الإطلاق حتى لا تتقيد حريته في معاشرة تلك البشكة التي كان يقضي جل ليله ونهاره معها متسكعين في الطرقات تارة أو جالسين في مقهى على الطريق تارة أخرى.

قاطعتها لأقول: ماذا دهاك يا ثريا، ألم تنسَيْ ذلك الماضي؟. بل ألم نتعاهد على عدم الالتفات إلى الوراء مهما كانت الأسباب؟ كل ما عليك الآن أن تتذكري شيئًا واحدًا فقط وهو أن من جاء يخطبك اليوم وهو راغب في الاقتران بك على مستوى رفيع من الخلق والتهذيب مما يكفل لك حياة سعيدة معه ـ بإذن الله ـ من يدري ربما شاءت إرادة الله أن تَصِلِي إلى غايتك وتعيشي حياة سعيدة هانئة بعد كل تلك الاضطرابات التي مرّت بك.

قالت مترددة: ولكني لا أعرفه لدرجة أستطيع أن أقول معها إنني أحبه.

قلت بحزم: حسنًا لقد جربت الزواج عن طريق شيء اعتقدت أنه الحب فماذا لقيت؟

وهمًا كبيرًا وسرابًا عايشته طويلاً وكان صعبًا التخلص منه، فلا كان فريد هو الفارس الذي رسمته صورة في خيالك وأحببته من خلال تلك الصورة ومنذ ذلك العهد الذي عرفت أن أباك وأباه قد اتفقا على تزويجكما من بعض، ولا كانت أخلاقه أخلاق الرجال.

الآن كل ما عليك أن تحكّمي عقلك أولاً ثم قلبك وأنا واثقة من النتيجة لأنك أصبحت على درجة من الوعي والإدراك ما يكفل أن يجعلك تسيرين بالطريق الصحيح.

فكري بالأمر جيدًا فالفرص الطيبة لا تمر كثيرًا في حياة الإنسان.

وعدتني أختي أن تفكر في كل الذي قلته لها ولكنها فاجأتني ونحن نغادر غرفة الجلوس في طريقنا إلى غرفة الطعام لتناول وجبة العشاء قائلة: وأنت لماذا لا تتزوجين؟.

شعرت وكأن سؤالها مطرقة تهوي فوق أُمّ رأسي، سرحت ورحت أفكر في أمري وأمرها، في حياتنا نحن الاثنتين، إنني أشجعها على الزواج من الدكتور خالد في الوقت الذي أتهرب فيه من أي إنسان يشير من قريب أو بعيد إلى موضوع ارتباطي بالزواج من أي إنسان كان.

ترى هل كتب علَيّ أن أعالج أختي من عقدتها من الزواج في الوقت الذي يبدو وكأن عقدتي منه أكبر وأشد؟.

أختي لم تترك لي مجالاً للاستمرار في الشرود والتفكير لأنني وجدتها تهزني وتقول: (رباب، رباب لَمْ تجيبي على سؤالي.).

تمالكت أعصابي واستعدت الابتسامة التي كانت مرسومة على شفتي، بل وقلبتها إلى ضحكة مجلجلة وأنا أقول بمرح مصطنع حتى لا تلاحظ أختي شرودي واضطرابي لمجرد التفكير في موضوع ارتباطي أنا بإنسان ما بالزواج: مهلاً علَيّ يا أختي سوف أجيبك. ووجدتني بعد أن استجمعت أفكاري أردد: من قال لك إنني لا أفكر بالزواج ولكن فارسي لم يأت بعد، هل تريدنني أن أخطب لنفسي أحدهم وأطلبه عريسًا لي، طبعًا مثل هذا الأمر لا يجوز على الأقل في مجتمعاتنا الشرقية أليس كذلك؟.

ضحكنا سويًّا هذه المرة ودلفنا إلى غرفة الطعام لنتناول عشاءنا وكل منا تفكر بطريقتها الخاصة، من ناحيتي كنت واثقة تمامًا من أن موافقة أختي على زواجها من الدكتور خالد مضمونة تمامًا.

وتزوجت أختي بالفعل من خالد بعد خطبة قصيرة وانتقلت لتعيش معه في البيت الملحق في المستشفى الذي نعمل به، في السكن المخصص لأطباء المستشفى.

وقد كان يثلج صدري أنني كنت أراها سعيدة مشرقة تبدو وكأن الحظ أصبح يبتسم لها بلا حدود.

أما أنا فقد أصبحت أعيش وحدي في ذلك البيت الواسع.

بيت أبي الكبير الذي لا يضم سوى بدر وبندر أخويّ وجدتي التي أصبحت مجرد هيكل بشري أشرف على خدمته ورعايته بكل الجهد الذي أستطيعه.

نظرت مرة على جسدها المسجي على السرير بأسى فلقد هالني ما يصل إليه الإنسان في أرذل العمر، أهذه جدتي التي كانت تملأ البيت حركة ونشاط وأنسًا وبهجة؟، أهذه جدتي التي كانت تنطق بالحكمة في كل أقوالها وتصرفاتها؟ إلا أن ما عزّاني هو أنها كانت لا تزال تتعرف على بعض من يزورها وبالأخص علَيّ أنا، كنت أعرف ذلك من ابتسامتها التي كانت تكبر كلما رأتني والتي كانت أيضًا تحمل كل معاني العطف والحنان والحب، أمّا وقتها فلقد كانت تمضي معظمه في قراءة سور من القرآن الكريم بأسلوبها ولهجتها المحببة إلى نفسي.

وقد تتساءلون: وأنا؟، ماذا عني وعن حياتي وعواطفي؟

عن هذا السؤال أجيب: أنا أصبحت أعيش لأخوي بدر وبندر وكأنني الأم التي اختارها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهما بعد أن لفظتهما سارة أمهما التي ولدتهما واستتب لها الحال مع زوجها الجديد سامر...

مرت الأيام ورزقت أختي بطفل ثم طفلة أسمت الأول باسم أبي والثانية باسمي أنا، ومع أنها كانت مشغولة ترعى بيتها وأولادها وزوجها إلا أن ذلك لم يكن ليمنعها من أن تلتحق بإحدى الجمعيات الخيرية في محاولة منها للإسهام في خدمة مجتمعها وإسعاد بعض من تستطيع إسعاده، وكان بالطبع زوجها الدكتور خالد يشجعها على ذلك، ألم أقل لكم إن معدنه أصيل وإنه كريم الأصل والمنبت، رائع الخلق والمعشر، وإن أفعاله الطيبة وأخلاقه الحسنة تشهد له بذلك؟، وفي إحدى تلك الليالي وبينما كنت الطبيبة المناوبة في المستشفى الذي أعمل به سمعت جلبة وضوضاء إثر دخول سيارة الإسعاف إلى قسم الطوارئ، عرفت أن هناك أمرًا، حملت سماعتي وقبل أن أغادر مكتبي إلى قسم الطوارئ رن الهاتف ليعلن لي المناوب الليلي في قسم الطوارئ ما توقعته، قال: «هناك حادث، رجل مصاب، كان يسوق سيارته بنفسه عندما حصل الحادث، لا نعرف ملابسات ما حصل، أحضرته لنا دورية الشرطة..».

لقد جاء كلامه متقطعًا من هول ما يرى في ذلك المصاب، ولذلك أسرعت بقفل السماعة والذهاب إلى قسم الطوارئ بعد أن قلت له: «لا بأس لا بأس، أنا في طريقي إليكم».

ووصلت إلى قسم الطوارئ واقتربت من ذلك الجسم المسجى أمامي وما إن طالعني وجهه حتى أصبت بشيء من الهلع، لقد كان فريدًا، فريدًا، الذي كنت أتحاشى مقابلته أو مجرد الحديث عنه، ولكن في هذه المرة لم يكن هناك وقت للعواطف.

الأمر مختلف تمامًا، إنه إنسان مصاب وأنا الطبيبة المعالجة، لا يمكن أن أتهرب منه كما كنت أفعل كلما حاول لقائي أو الكلام معي بعدما ترك أختي، وبعد ما تزوجت أختي حيث كثرت محاولاته لاعتقاده أن زواج أختي من الدكتور خالد قد يقرب بيننا ـ بيني وبينه.

أمضيت الليل كله ساهرة عليه بدافع واجبي الإنساني فقط لا غير.

أو هكذا خيِّل إلَيّ فلأول مرة أواجهه وجهًا لوجه، ولأول مرة أشعر أنني لا أعرفه، وأنه ليس ذلك الشخص الذي عاش في خيالي وأنا على أعتاب الشباب.

يا إلهي أكان كل ذلك وهمًا نسجته أنا لنفسي بنفسي؟.

إنه أمامي ولكنه لا يحرك فيّ أي عاطفة كانت، في الصباح وعندما تحدثت أختي معي تلفونياً تذكرني بالندوة التي وعدت أن أشارك فيها في عصر ذلك اليوم في الجمعية التي تنتسب إليها أهملت ذكر فريد؛ إذ عندما سألتني: كيف كانت ليلة الأمس؟.

أجبتها بعدم اكتراث: لا شيء يذكر.

قضيت الليل أقرأ وأشرف على بعض أولئك المرضى المتواجدين في المستشفى.

لقد كان جُلّ تفكيري ينصبّ في أن أبعدها عن سماع أخبار ذلك الغادر الذي يرقد محطمًا على أحد الأسرّة على بعد قليل منها فسكن الأطباء الذي تسكن فيه كان خلف المستشفى تمامًا.

مرت شهور وفريد راقد في المستشفى ومع ذلك فلم تدر أختي شيئًا عنه حتى الدكتور خالد أثنى على إخفائي الخبر عن أختي، وأكّد أنه لا داعي لأن تعرف شيئًا فهو الآن ليس إلا أحد أولئك الذين يؤمّون المستشفى للعلاج، والذين نقوم نحن بواجبنا تجاههم بغض النظر عمن يكونون.

ألم أقل لكم إن كل الأحداث قاطبة تؤكد معدنه الأصيل وخلقه الرفيع، أخذت حالة فريد تتحسن شيئًا فشيئًا، ولكني أنا شخصيًا كنت أنأى عن الحديث إليه إلا في أضيق نطاق ممكن، وفي تلك المرة التي وجدت أن من واجبي كوني الطبيبة المعالجة أن أقول له شيئًا، خصوصًا بعد أن عرفت أن سبب الحادثة كانت أنه كان يسوق بعد أن تعاطى بعض المخدرات، وعندما كنت أحاول إفهامه الهوة السحيقة التي كان ينحدر إليها بتعاطيه مثل تلك السموم إذا به يفاجئني قائلاً: أنت السبب.

تساءلت باستنكار: كيف؟.

قال: رفضت أن تقترني بي بعد أن طلقت أختك رغم أنني تقدمت إليك بعد زواجها لعلمي أنه لم يعد هناك عقبة ما، أو أمر محرج غير مستساغ.

قلت له بغضب: ولكنك تعرف أن الأمر مستحيل فأنا أعرف أن أختي كانت يومًا ما تكن لك من الحب الشيء الكثير.

قال: ولكنها تركتني وتزوجت بغيري ونسينا الأمر تمامًا.

لماذا لم توافقي أن نبدأ من جديد رحلة حياتنا معًا خصوصًا وأن الدين يمنحنا مثل هذا الحق.

ابتسمت ابتسامة حزينة وأنا أدرك أنه حتى العواطف الإنسانية كان فريد مجردًا منها، فكل ما فكر فيه هو أنه أصبح لا يوجد عقبة بيني وبينه، أما علاقتي بأختي شقيقتي وحبي الكبير لها وتضحيتي بنفسي في سبيل إسعادها فذلك أمر لم يكن ليخطر على باله أبدًا.

لذلك كله حاولت أن أنهي الموضوع بصورة مختلفة فقلت له: صدقني يا فريد أنا لم أعد أصلح للزواج.

أجابني في ثقة وعناد: وأنا لازلت أريدك، أريدك على ما أنت عليه الآن، ثم أنسيت حديث الطفولة وتعلقك بي، إن تكوني قد نسيت فهناك من لم ينس، وكان يشير بذلك إلى أخته سارة.

سادت لحظات من الصمت بينما كنت أفكر خلالها بفريد الذي اعتقدت في يوم من الأيام أنني أحببته بالفعل ولا أدري كيف انطلقت من شفتي العبارة التالية: لماذا رضيت خطبة أختي إذا كنت لا تحبها هي بل تحبني أنا؟.

لا أدري كيف انطلق ذلك السؤال الذي ظل حبيسًا في نفسي سنوات وسنوات، سؤال كان يلحّ عليّ، صدقوني ليس لأنني كنت ألومه على زواجه من أختي، بل كانت محاولة مني لإقناع نفسي أنه لم يكن رجلاً بمعنى الكلمة، أي لم يكن ذلك الرجل الذي كنت أحلم وأتمنى أن يكونه وأنه بذلك بالفعل لا يستحق أن أفكر به لحظة واحدة.

سمعت صدى صوته وأنا أسبح بأفكاري هذه يقول: خطبت أختك بضغط من والدي وأنت تعرفين أننا لا نستطيع شيئًا حيال ما يقرره الكبار، لقد نشأنا في حوش التاجوري، وأنت أدرى الناس بحوش التاجوري، والناس الذين كانوا يعيشون في حوش التاجوري.

أعادت إلَيّ عبارة حوش التاجوري والناس الذين يعيشون في حوش التاجوري ذكريات وذكريات.

ذكريات كنت أود نسيانها ولكن هيهات فبعض الذكريات تنغرس في باطن أعماقنا لا تريد فكاكًا.

ترى ما هو شعوري نحوه الآن؟، سؤال بعد حديثي هذا مع فريد لم أعد أعرف كيف أجاوب عليه، ولم ينقذني من أفكاري سوى دخول الدكتور سمير زميلي إلى الغرفة بعد أن عرف مكاني وكان يريد أن يستشيرني في إحدى الحالات.

نظر الدكتور سمير إلى فريد وقال لي بمرح: أنت مدهشة فمريضك ولله الحمد بتحسن دائم.

ثم خاطب فريدًا قائلاً: افرح يا عم سوف تخرج بعد بضعة أيام وذلك بفضل هذه الطبيبة الماهرة.

ضحكنا أنا والدكتور سمير، أما فريد فقد قال: بعصبية: ولكني لا أريد أن أخرج حتى أعالج كليًا.

ابتسم سمير في محاولة لتهدئته وقال: ومن قال لك إنك ستخرج قبل أن ينتهي علاجك تمامًا.

بالطبع كان فريد يقصد شيئًا آخر من بقائه في المستشفى، شيئًا مغايرًا لما كان يقصده الدكتور سمير، كان يريد أن يوهمني أنه يريد البقاء في المستشفى حتى يراني أمامه باستمرار.

حاولت أنا أن أنهي المناقشة فتسللت خارجة من الغرفة وتبعني الدكتور سمير بعد أن طيب خاطر فريد.

سألني الدكتور سمير ونحن نسير في الممر الطويل باتجاه المصعد: أو تعرفين هذا المريض معرفة شخصية.

أجبته بلا اكتراث أو هكذا حاولت أن يبدو صوتي: نعم، لقد كان في يوم من الأيام زوجًا لأختي.

قال الدكتور سمير: ولكنه يبدو.

قاطعته وأنا أتمتم: ولقد كان جارنا في المدينة، في حوش التاجوري.

خرجت كلمات حوش التاجوري مرتعشة من فمي بشكل كادت أن تفضحني فأردفت قائلة وأنا أضحك: لقد كنا صغارًا وكنا نلعب معًا في تلك الحقبة من الزمن.

وعلت وجهي حمرة خفيفة وأنا أنطق بهذه العبارة وكأني طفلة صغيرة خافت أن يكشف الآخرون سرها.

* * *

(٤)

أختي وزوجها وأطفالها - فقد رزقها الله بطفل آخر بعد أحمد ورباب أسماه الدكتور خالد أسعد على اسم أبيه - في بيتنا في ضيافة طويلة.

فلقد رغبت في أن يقضوا معنا عطلة عيد الفطر المبارك الذي جاء والصيف على أشده، وصدقوني أنه مع الفرحة التي كانت تغمرنا والسعادة التي كنا نتمتع بها وقد تجمع شمل عائلتنا الصغيرة لم نشعر بقيظ الحر ولفحاته أبدًا.

ربما كان أيضًا لوسائل الراحة التي امتلأت بها بيوت أهل جدة في هذه الآونة من الزمن دخلاً هي الأخرى في إشاعة المزيد من الراحة والسعادة على قلوبنا جميعًا.

وخلال تلك العطلة وبينما كنت في المطبخ مع أختي نعد معًا الطعام الذي اشتهرت به المدينة مسقط رأسينا ومرتع طفولتنا تطرق الحديث بيننا إلى أيام الطفولة ولعبنا ومرحنا في تلك الأيام ووجدتني أسألها فجأة ودون وعي مني عن فريد.

قلت: ترى هل لا زلت تذكرين فريدًا؟.

انتفضت أختي وكأن عقربًا لسعتها فأدركت أنني أخطأت بمجرد ذكر اسمه، ولكن إدراكي لهذا الخطأ كان بعد فوات الأوان، لُذتُ بالصمت وأنا أرى سحابة حزن تكسو مُحَيًّا أختي التي قالت بعد لحظات مجيبة على سؤالي: لقد خرجت من بيته بقلب حزين كسير ولكنني لا أكتمك القول أنني عندما انغمست في طريق العلم بدأت أنساه رويدًا رويدًا، أما بعدما تزوجت وأنجبت فإنني لم أعد أرى له مكانًا في قلبي، أتصدقين لقد نسيت حياتي القاسية معه.

حقًّا إن الزمن كفيل بمداواة الجروح.

تمتمت قائلة وكأني أحدث نفسي: ولكن هل يمكن للمرأة أن تنسى أول حب في حياتها؟.

ووجدت أختي تقول بصوت هادئ رزين: الحياة يا أختاه تفرض على المرأة نسيان مثل هذا الحب خصوصًا إذا رافقته آلام وأحزان، وكان الوهم فيه أكبر من الحقيقة، لو تدرين يا أختي، لقد دخلت بيت الزوجية مع فريد وأنا أظن أنني أحبه، ولكن عندما عاشرته تبخر ذلك الحب، بل ووجدت أن ذلك الحب لم يكن سوى وهمًا من صنع خيالي، هل تتصورين أن فريدًا إنسان أبعد ما يكون عن الشرف والإيمان؟، لقد كان يتعاطى المخدرات ويقضي معظم لياليه خارج البيت.

صدقيني لقد حاولت إصلاحه ولكنني أعترف أنني فشلت، والمصيبة هي أنه كان يعايرني بك ويؤكد لي أنه لو تزوجك أنت لتركته يفعل ما يحب ويشتهي دون أن تكدري عليه أيامه بالنقاش والمجادلة والتبرم والسخط ومحاولة إرغامه على التخلي عن شيء يحبه.

ضربت بيدي على صدري وقلت باستنكار: أهو كان يقول ذلك؟.

إذن فهو لا يعرفني إطلاقًا، فلست أنا التي ترغب بأنصاف الرجال، أو ممن هم على هامش الرجال والرجولة، ولكن لماذا يا عزيزتي لم تخبريني بكل هذه الأمور في حينها؟

قالت: لا عليك لننس الأمر كليًّا فلو لم أتزوجه أنا وأقاسي منه الأمرين لكنت أنت التي سوف تقاسين، لأنه لم يكن ليتزوج بغيرك وهذا ما لا أرضاه لك أبدًا.

عانقت أختي وأنا أجدها ترد لي حبي لها بحب أكبر.

فأنا أيضًا في يوم من الأيام وعندما علمت بحبها لفريد طويت حبي له، أو ما كنت أظنه حُبًّا في قلبي، وداريته عنها بل سحقته سحقًا كي تنعم هي بحياة كنت أظنها سوف تكون سعيدة.

أما أختي فقد كانت تبتسم وهي تقول: أتدرين يا رباب.. قد تفسد بعض التقاليد الاجتماعية أحيانًا أشياء كثيرة في حياتنا.

انظري ماذا فعلت بحياتي وأنا على أعتاب الصبا.

اتفاق أبي ووالد فريد على تزويجنا من بعض كان السبب في تعاستي في تلك الفترة، أحمد الله أننا الآن بلغنا من العلم والوعي ما يجعل الكثيرات منا يقفن في وجه مثل تلك التقاليد.

ووجدتني أفكر في عالمنا الإسلامي ككل وكيف أن ما شرع للمرأة في الإسلام لهو قمة وهو يعطيها حقّها كاملاً غير منقوص، ويصونها جوهرة مكنونة في أطوار حياتها بعيدًا عن أي شيء قد يقهرها أو يسبب لها ظلمًا مهما كان ضئيلاً، بعكس المرأة هناك في الغرب فقد ظلمت في التاريخ القديم والتاريخ الحديث على السواء.

في التاريخ الماضي مثلاً ظلمت المرأة في أوروبا وأمريكا واستراليا وغيرها، كما أنها ظلمت هناك أيضًا في التاريخ الحديث وإن كانت أنواع الظلم قد تغيرت أو تبدلت، والغريب أن العلم الذي فتح لنا نحن نافذة على الوعي والإدراك وجعلنا نعرف حقوقنا وواجباتنا بصورة أوضح لم يصل بالمرأة في العالم الذي يسمّي نفسه العالم المتقدم إلى مثل هذا الأمر؛ فالمرأة هناك كانت ولا تزال أسيرة رغبات الرجال الذين يستنفذون طاقتها وكأنهم يتآمرون عليها مع العمر والزمن، وحتى

إذا ما غدت حطامًا أو تقدمت في السن لفظوها وتركوها دون هوادة ولا رحمة.

حمدًا لله فقد رسم الإسلام للمرأة عندنا نحن المسلمين طريقًا يضمن لها حسن الخاتمة والحياة الكريمة إلى أواخر أيام حياتها، بحيث تكون تحت رعاية وكنف زوجها، أو ولدها، أو أقربائها، لا يتخلون عنها مهما كانت الظروف والأحوال، بل يحترمونها ويجعلونها تحتل الصدارة في بيوتهم معززة مكرمة.

أكثر من شهور ستة مضت وسارة لم تعد بعد من رحلتها مع زوجها سامر، شهور عسل يمضونها متسكعين، في رحلة حول العالم، وطبعًا الفضل في ذلك يعود إلى المال الذي ورثته عن أبي فكلنا نعرف مدى إمكانات زوجها، وكيف أنه غير قادر حتى على إعالتها، أو تلبية أقل متطلباتها، وأنا لا يهمني بالطبع ماذا تفعل سارة أو كيف تبذر المال الذي ورثته، ولكن كل ما يهمني أنها لم تعد تسأل عن ولديها، وأنني أستطيع بذلك أن أقدم لهما الرعاية والعناية الشاملة حسب وصية أبي - رحمه الله وطيب ثراه.

طبعًا هناك أوقات تأتي يسأل فيها أحدهما عن سارة، عن أمه، وحيث إنني كنت أرغب في إبعاد الصغيرين عن المشكلات والهموم والأحزان لذلك كنت دائمًا أقول لهما مسافرة وأنها عندما تعود سوف تحمل لهما من الهدايا الشيء الكثير.

رأي أختي كان عكس رأيي، كانت تود لو نطلعهما على حقيقة ما حدث، ويظهر أن رأيها كان صائبًا هذه المرة لأنني في إحدى المرات الكثيرة التي كانا يسألان فيها عن أمهما فوجئت بقول بندر: عمتي أليس هناك من وسيلة نتصل بها أو تتصل هي بنا أم أنها تحب زوجها الجديد أكثر منا؟.

وعرفت أنهما يعرفان الحقيقة، فلقد تسربت إليهما بطريقة أو بأخرى، ولقد دفعني ذلك لأن أفكر في أن أقول لهما رأيي الحقيقي في سارة أمهما، وأن أنعتها بالاستهتار والخفة والطيش والنزق، ولكني عدت واستغفرت الله أن أفعل حتى لا تتحطم صورتها كأم في نفسيهما البريئتين، لملمت نفسي وأخذت أداعبهما قائلة: ألست أنا أُمكما الآن؟.

قالا - وفي صوت واحد: بل أنت تفضلينها يا عمتاه.

وابتسمت في سعادة فهذا وحده يجعلني في قمة السعادة أنا المرأة التي لم تتزوج ترى لها ولدين اثنين يكنّان لها كل هذا الحب، وأنا من جهتي رغم أنني لم أذق طعم الأمومة. إلا أنني كنت

أمارسها في أفضل حالاتها مع أخويّ العزيزين على قلبي بدر وبندر.

أيمكن للمرأة أن تنسى أمومتها وشوقها لهذه الأمومة؟.

أليست المرأة هي الوعاء الكبير الذي يمنح الدنيا شرايين الحياة عن طريق الأطفال الذين تلدهم ليعمروا الأرض ويضيفوا إلى أمجادها أمجادًا جديدة؟.

هذا ما كنت أفكر فيه دائمًا، ومع ذلك فقد كنت أشعر أن وظيفتي في هذه الحياة قد كملت رغم أنني لم أتزوج بعد، وذلك عن طريق رعاية وتربية أخويّ بدر وبندر.

جدّتي في فترة صحو من الفترات القليلة التي كنت أراها فيها صافية الذهن قادرة على التركيز قالت لي وهي تبتسم ابتسامة عذبة ملؤها الحب والحنان: أتدرين يا رباب لو أنك تزوجت وأنجبت يا بنيتي لما استطعت أن تمنحي أطفالك أكثر من هذا الحب الذي تمنحينه لأخويك، حقًّا إن الله لطيف بالعباد، سخّرك لهما بعد مضي أبيهما إلى بارئه وهجر والدتهما لهما، هنيئًا لك بما تصنعين وجزاك الله عما تفعلين خيرًا، بل خيرًا كبيرًا.

أما أختي ثريا فقد كان جُلّ همّها أن تراني عروسًا وقد ارتديت الطرحة البيضاء أتمخطر بها في ليلة الزفاف وسط دقات الدفوف وزغاريد الزفافات، تلك الأمنية التي تنتظر تحقيقها كل فتاة .على رأي أختي. وهي تهمس بكل هذا في أذني كلما سنحت لها الفرصة، أما أنا فقد كنت أقابل ذلك بابتسامة فقط لا غير، الشيء الذي كان يثيرها ويجعلها تردد أنها لا تمزح وأنه آن الأوان كي أفكر بالزواج وإلا، كانت تصل إلى هذا الحد من الكلام وتصمت، في إحدى المرات أردت مداعبتها فأكملت لها جملتها قائلة: وإلا فسوف يفوتني قطار الزواج وأبقى عانسًا مدى الحياة، أليس هذا الذي تودين أن تقوليه لي.

انتفضت أختي وراحت تقول بعصبية: بعيد الشر عنك يا أختي، لماذا تصبحين عانسًا وكل يوم يطرق بابك خطيب أو أكثر، كل ما عليك أن تشيري بإصبعك إلى أحدهم حتى يتقدم لك وتجدين نفسك ما بين يوم وآخر في الكوشة ترتدين الثوب الأبيض والطرحة البيضاء.

صَمَتُّ لحظة وأنا أقابل انفعالها بهدوء مما جعلها تهدأ وتعاود كلامها قائلة: رباب أريدك أن تفكري جديًّا في وضع حد لحياتك بهذا الشكل، أريد أن أراك في كنف زوج يظلل عليك ويسعدك.

قلت لها عندئذ جادة: اسمعي يا ثريا، ألست معي وبعد تجربتك الفاشلة مع فريد أن بقاء الفتاة دون زواج أرحم من أن تتزوج إنسانًا لا ترى سعادتها معه؟.

قالت: معك حق ولكن ليس كل الرجال مثل فريد.

قلت لها بلطف: إذن فنحن متفقتان؛ فإما زواج من رجل شهم يعتمد عليه وذو أخلاق حميدة وإلا فلا.

واستطعت بذلك إقناعها وقفل باب المناقشة بخصوص موضوع زواجي، سرحت بعد ذلك أفكر في أولئك اللواتي يتزوجن من أول طارق على بابهن دون رؤية أو دون اقتناع وفقط لمجرد ألا يمضي بهن قطار العمر دون زواج ولعلهن لا يدركن خطأ ما يفعلن إلا بعد فوات الأوان.

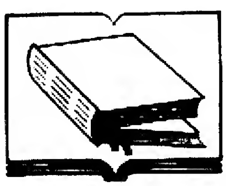
وعندما لا يجدي الندم شيئًا ولا يعيد لهن الحياة إلى الوراء.

وصممت أن أظل عند رأيي.

لا يمكن أن أغيره مهما كانت الظروف والأحوال، نعم لن أتزوج إلا من الرجل المناسب، هذا إذا وضع الله في طريقي مثل هذا الرجل، وإلا فسوف أبقى هكذا بلا زواج دون ندم ولا أسف، وأعتقد أني برأيي هذا على صواب وأن على كل فتاة أن تحذو حذوي عندما يصبح الأمر متعلقًا بمستقبلها الشخصي.

ألستم معي في رأيي هذا؟.

* * *





((٥))

دعوني أبكي فجدتي تستحق أن أبكي عليها، هذه المرأة التي وصلت إلى هذه المرحلة المتقدمة من العمر كان لها فلسفة خاصة وكبيرة، منها تعلمت الصبر، ومع الصبر تعلمت أيضًا أن أُبقي الأمل شعلة نابضة في روحي وعقلي وقلبي.

بعد أن أغمضت عينيها كل ما أحس به الآن وبعد مضي مدة على وفاتها هو ذلك الحب العارم الذي كانت تكنّه لي في صمت، لم أكن أظنها وهي المرأة الفيلسوفة قادرة على أن تحب بعمق فقد قالوا لي إنها لم تذرف دمعة واحدة، توفيت أمي رغم أنها كانت تعتبرها ابنتها ومن رائحة البلد الذي هي منه. على حد تعبيرها. أليست أمي من الأناضول هي الأخرى كجدتي تمامًا؟.

لطالما تحدثت جدتي مع أمي باللغة التركية كما كان يحدثنا أبي، ولطالما كان أبي. على حد قوله أيضًا. يخشى من حديثهما بلغة بلدهما ربما لأنه لم يكن يجيد منها سوى كلمات أضافت إليهما أمي بعض التعابير والكلمات الأخرى التي كان يحلو لها أن ترددها على مسامعه من وقت لآخر.

وربما لأنه كان يخشى أن يتفقا عليه سويًّا. أمي وجدتي. ويرغمانه على عمل قد لا يرغب هو في تنفيذه.

جدتي. كما كنت أحس. كانت تحبني كثيرًا ولقد تركت لي رسالةً عمرها أكثر من عشرين عامًا أرفقت بها سوارين وحلَقًا من الألماس كان جدي قد ابتاعها لها في ليلة عرسها، نظرت إلى هديتها بعد أن تسلمتها وقرأت كلماتها البسيطة النابضة من القلب فشعرت بأنني أحبها أكثر من ذي قبل، لا لأنها خصّتني ببعض من مجوهراتها وإنما لأنها لمست شغاف قلبي بكلماتها التي أرفقت بها الهدية والتي دلت على أنها تذكرني منذ أن كنت صغيرة، إنها تقول في رسالتها إنها تخصني بهذه الهدية لأنها ترى فِيّ إنسانة قوية يعتمد عليها، وإنها متأكدة من أنني التي. بإذن الله. سوف ترعاها عندما تكبر، وتنهي رسالتها بقولها: (لا تسألي يا رباب كيف عرفت أنك أنت التي سوف تقومين على رعايتي وخدمتي، فكما يقول المثل: المكتوب يُقرأُ من عنوانه، وأنت يا رباب من يومك. أي منذ كنت صغيرة. عاقلة تميلين إلى الجدية والهدوء، وتتصرفين برزانة لا يستطيعها الكثير من الكبار، نسيت أن أقول لكم إن جدتي الأناضولية تعلمت القراءة والكتابة هناك في بلدها، في الأستانة. موطن العلم والمتعلمين في ذلك الوقت. رحمك الله يا جدتي، إنك بعملك هذا وبرسالتك تلك تدفعيني لأن أتفانى أكثر وأكثر في رعاية مَن حولي، في رعاية أخويّ بدر وبندر، وفي رعاية أختي

وأولادها، رغم أنها في كنف رجل ولا كل الرجال، ثلاثة شهور مضت على وفاة جدتي، هالني خلالها أنني لم أكن أعرف جدتي على حقيقتها، نعم لم أكن أعرف جدتي صاحبة تلك الفلسفة الخاصة على حقيقتها حتى كانت تلك الرسالة وتلك الهدية، فإذا بي أكتشف أنني لم أكن أتعمق في حديثي معها حتى أعرفها، ليتني فعلت لكنت تعلمت حتمًا أشياء كثيرة ومن يدري فلربما كنت وفرت على نفسي مأساة أن أعيش وهمًا كبيرًا يعشعش في قلبي وروحي ويجعلني أجبن من أن أخرج للحياة.

أنطلق فيها وأفتح قلبي للربيع، للحب، لأشياء أخرى غير العمل الجاد، والعمل الجاد فقط لا غير، أما الآن وبعد أن عرفت هذه الحقيقة هل تجدني أستطيع فكاكًا من حياتي التي أقضيها على هذه الوتيرة الجادة، هل أستطيع أن أفتح قلبي للحب والربيع ولرفيق درب أمضي الحياة برفقته أبادله الإخلاص والحب، أتفانى به ويتفانى بي؟.

يكون عونًا لي وأكون عونًا له.

نساعد بعضنا بعضًا في جعل مسيرة حياتنا مسيرة خضراء وواحة عشق يحكي الأجيال قصتها؟ ثم إنه هل يوجد بالأصل مثل هذا الشخص الذي يحمل هذه الأوصاف التي أتحدث عنها، أفكار بدأت تدور بمخيلتي وتأخذ حيزًا من تفكيري بعد وفاة جدتي.

أما المفاجأة التي أذهلتني فعلاً والتي جاءت بعد وفاة جدتي بأكثر من ستة شهور - هي أنني بينما كنت أبحث في إحدى درفات خزانتها الكبيرة عن صورة قديمة لأبي كانت قد التقطت له في تركيا عندما كان برفقة جدتي في الزيارة اليتيمة التي ذهبت فيها إلى هناك لرؤية أهلها، وكانت جدتي تحرص على الاحتفاظ بها بين أشيائها الخاصة - عثرت على دفتر صغير أخضر الجلدة لم يكن أحد منا قد انتبه إليه من قبل ونحن نعيد ترتيب خزانة جدتي بعد وفاتها، حملت الدفتر وبدأت أقلّب صفحاته فإذا به يحوي مذكرات جدتي، تلك المذكرات التي لم يكن أحد يعرف عنها شيئًا.

حملت المذكرات وكأني أحمل كنزًا ثمينًا ومضيت إلى غرفتي، جلست على حافة السرير مأخوذة بما أقرأ، كانت المذكرات عبارة عن جداول وأنهار وتواريخ وكلمات رائعة سطرتها أنامل جدتي لتكون شاهدًا على أيام مضت وأمانٍ تحققت.

لقد كتبت جدّتي في يوم مولدي بأنها كانت ترجو الله أن أكون ولدًا لأنها خافت علَيّ كأنثى من صروف الحياة وظروفها وقسوتها.

وكتبت جدتي بعد شهر من مولدي بأنني سوف أكون فتاة طيبة تتحمل الكثير والكثير، ولكن لم تكتب كيف تسنى لها أن تكوّن مثل هذه الفكرة عني!! لا أدري، حقًّا لا أدري، ربما كان إلهامًا من الله، وربما كان استنتاجًا منها لحركاتي وسكناتي.

كما كتبت عن أبي بأنه وإن كان طفلها المدلل إلا أنها كانت تأمل بأن يصل إلى أرقى درجات العلم.

وقالت جدتي أشياء جميلة عن أمي، قالت إن أمي امرأة جادة وصابرة وعلى درجة كبيرة من الجمال وإنها إنسانة مؤمنة تحمل قلبًا لا يعرف إلا الحب.

ويوم تغيرت أحوال أبي المعيشية وأصبح على ما أصبح عليه قبل أن يتوفى كتبت تقول ليت (جلبهار) وتعني أمي كانت موجودة لتعيش الخير بعد الضنك والعز بعد حياة العوز والفقر والحرمان التي عاشتها مع أبي.

من مذكرات جدتي عرفت أبي وأمي أكثر وأكثر.

عرفت أحوالنا كلها في حوش التاجوري، وعرفت أشياء أخرى لم يكن ليتسنى لي أن أعرفها لولا هذه المذكرات، لقد عرفت أن عمتي سعاد التي كانت تعيش في زقاق الزرندي بالمدينة ماتت بعد أن قتلها الحزن والأسى وأسلوب زوجها الصارم في معاملتها.

لقد قرأت الكثير عن ظلم بعض الرجال لنسائهن، ولكني وحتى بعد أن قرأت عن اضطهاد زوج عمتي سعاد لها وقسوته في معاملتها لَمْ أفهم لِمَ تكون بعض النساء ضعيفات بهذا الشكل بحيث تصبر على مثل هذا الظلم؟.

ولا يزال هذا السؤال يجول بخاطري إلى يومنا هذا، وعرفت من مذكرات جدتي أيضًا أساليب العيش في الزمن الذي مضى، كيف كان الجميع يفرحون معًا، وكيف كانوا يحزنون معًا، وكيف كانت أفكارهم جميعًا تتجه نحو إسعاد بعضهم بعضًا ولا شيء غير هذا أبدًا.

حتى الخزعبلات التي كانت تشيع في مجتمع المرأة آنذاك عرفت عنها الكثير من مذكرات جدتي، جدتي تشجب جميع مظاهر هذه الخزعبلات، (كالبدوي والزار) وغير ذلك مما كان الجهل يشيعه في نفوس النساء في يوم كانت المرأة كَمًّا مُهملاً لا حول لها ولا طول في كثير من الأحيان.

وعرفت كيف كان الآباء يستقبلون مواليدهم، والأسلوب الذي يحتفون به عندما يختمون

القرآن، وكذلك شرعة المرأة وزينتها عندما تتزوج، وضحكت عندما قرأت بأن العروس عندما تزف كان يجب أن تغمض عينيها حتى لا ترى أحدًا، وأن العريس عندما يزف إلى عروسه تحاول الفتيات غرس مشابكهن في بدنه فإذا أظهر انزعاجًا فمعنى ذلك أن الزواج لا يبشر بخير، وبالطبع كان العريس لا يدري من أمر هذه الذي تجلس إلى جواره شيئًا البتة، ولا حتى صورة وجهها لأنه في العادة تكون أمه أو أخته أو عمته هي التي رأتها نيابة عنه وخطبتها له.

وعرفت من المذكرات أن أمي لم تكن الزوجة الأولى لأبي وأنه سبق وأن تزوج بأخرى قبلها عندما كان يطلب العلم في الهند، وأنه بذلك كان هو الآخر متعلمًا في الوقت الذي كانت تتفشى الأمية في المدينة المنورة.

أما زوجة أبي الأولى فقد جاء في مذكرات جدتي أنها توفيت بالهند بحمى النفاس بعد أن وضعت مولودة ماتت بعد يومين من مولدها.

عالم آخر لا أعرفه اطّلعت عليه وقرأت عنه من خلال مذكرات جدتي التي على ما يبدو كانت تكتبها يوميًا وأحيانًا أسبوعيًا، وكأن الموضوع أو الحدث الذي تريد أن تسطره هو الذي كان يملي عليها ما تكتب.

قارنت بين خطي وخط جدتي وحظي وحظها، فوجدت أن خطها وحظها أفضل من خطي وحظي، أَوَلَم تتزوج جدتي وتنجب وتؤدي رسالتها كامرأة كاملة في حين أنني محرومة من الأمومة التي لا أستطيع أن أمارسها لأنني لا أجرؤ على الزواج، نعم لا أجرؤ على الزواج خوفًا من أن أقترن بإنسان لا يكون كما أريد فيفشل زواجي، وهذا ما لا أستطيع أن أتصوره.

ولكن هل يعني ذلك أن المرأة المتزوجة دائمًا أوفر حظًا من غيرها؟ أبدًا فهناك الكثير من الزيجات التي فشلت وانتهت بالطلاق تمامًا، كما أن هناك الكثير من الزيجات التي تعتبر ناجحة، وذلك بغض النظر عن المكان والزمان فزواج جدتي ومثيلاتها في زمانها وزمان أمي قد نجح، رغم أنها كانت تجري بأسلوب لا ترى فيه المرأة زوجها ولا يراها هو أيضًا إلا ليلة الزفاف.

هل نسبة الزيجات الناجحة في زمان أمي وجدتي أكثر من تلك في زماني؟، ولماذا كنت أفكر بهذه الأمور وأنا أسمع عن نسبة الطلاق المتزايدة في زماننا الحاضر رغم ارتفاع درجة العلم والوعي عند المرأة والرجل على السواء، ترى ما هو السبب؟.

شغلت ذهني هذه الأفكار ولم أجد لها جوابًا شافيًا، وظللت أفكر وأفكر حتى إذا ما كَلَّ ذهني

وتعب فكري أنهيت تصارع هذه الأفكار في رأسي بأن هززت رأسي وقلت لنفسي: مالي ومال هذا التفكير وأنا امرأة لم تتزوج بعد، ودعوني أعترف لكم، أنني كثيرًا ما فكرت في هذه الآونة بالذات بضرورة الزواج، ولكن الشجاعة. والحق يقال. لم تواتيني رغم كثرة أولئك الذين تقدموا لخطبتي والذين كنت أرفضهم تباعًا، لا لقناعتي بأنني لا أصلح للزواج، بل لخوفي منه فقد كنت أشعر أن هناك شيئًا كبيرًا من خلال الماضي لا يزال يغلف قلبي، وأنا رومانسية التفكير رغم خطواتي العلمية وأصول دراستي وحياتي التي أعيش.

في بعض الأحيان أجد نفسي أفكر في فريد وقصته معي إذ إنه يظهر أن أول تجربة حب في حياة المرء تَحفُر ذكراها في أعماق أعماقه.

ولكني أرفض الاستمرار في هذا التفكير بل وأرفض كل صلة بيننا وبين كل من يَمُتُّ إليه بصِلة.

حتى سارة والدة أخويّ (بدر وبندر) بعد عودتها من الإجازة الطويلة، عفوًا من شهور العسل مع زوجها سامر. أدركت حالة القرف التي وصلت إليها منها ومن أخيها من قبلها لدرجة أنها أصبحت تلج بيتنا لرؤية ولديها عندما أكون أنا خارج البيت وكأنها لا تريد أن تواجهني بعد سلسلة الأخطاء التي ارتكبتها.

ولكن هل زواج سارة خطأ بالفعل، في قرارة نفسي لا أصف زواج هذه المرأة بالخطأ، ولكن الخطأ كل الخطأ في رأيي أنها اختارت شخصًا غير مناسب لها، وكذلك الخطأ كل الخطأ في الأسلوب والطريقة التي سارت عليها بعد الزواج،

كنت أفكر بسارة وأقلّب أمرها بل وأحاول تبرير فعلتها مع نفسي في إحدى تلك الليالي وأنا جالسة أراقب البحر من نافذة غرفتي عندما أعلنت خادمتي عن مجيئها.

ثم ألتفت للخادمة وأنا أُجيب ببرود: أَعلِمِي بدرًا وبندرًا بمجيئها.

فوجئت بقول الخادمة: ولكنها في هذه المرة تصر على رؤيتك أنت يا سيدتي.

ووجدتني أهز رأسي وأقول: حَسَنًا دعيها تنتظرني في الصالون الكبير.

عندما دخلت الصالون كانت سارة تتكوم على نفسها في إحدى زوايا الصالون وكأنها غريبة عنه وهي التي كانت في يوم من الأيام سيدته.

قالت سارة وفي صوتها شيء من الخنوع: هل تسمحين لي بالعودة إلى هذا البيت والعيش

معك ومع ولدَيّ؟.

تساءلت وأنا أفتح عينَيّ على آخرهما: وزوجك؟ وأتبعت ذلك قائلة في سخرية: ربما تريدين مني أن أسمح له أيضًا بالمعيشة معنا.

قالت سارة في توسُّل: أرجوك يا رباب كُفِّي عن سخريتك هذه، فلقد جئت بعد أن تطلقت من زوجي سامر.

تساءلت مستنكرة: تطلقت ولم يمض على رجوعك من شهور العسل الستة التي أمضيتها في الخارج سوى شهور مثلها؟.

قالت: نعم، نعم ولكن اعفيني من ذكر الأسباب، يكفي أن أعترف لك أنني كنت مخطئة عندما تزوجته، كان الخطأ يلفني من شعر رأسي إلى أخمص قدمي.

وأردَفَت وقد أُغرقت عيناها بالدموع: ربما كان عذري الوحيد أنني بعد وفاة والدك لم أكن أعرف بالضبط ماذا أريد.

سادت لحظات صمت تذكّرت خلالها أن سارة كانت في يوم من الأيام صديقتي الوحيدة وأنها كانت بمثابة أختي؛ بل أبوح لها بما في نفسي ولا أفعل مع أختي، ولم أعد إلى الواقع إلا على صوت سارة تقول: أرجوك يا رباب لا تحرميني نِعمة أن أكون قريبة من ولدَيّ بعد أن فقدت الزوج والمال، لقد أتى زوجي على كل المال الذي كان معي، أوهمني أنه سوف يفتح مؤسسة تجارية باسمي فعملت له توكيلاً سحب على إثره كل ما أملك وهرب بعد أن ترك لي ورقة الطلاق.

وأردفت وقد أصبحت الدموع تنحدر على خديها مدرارًا وهي تحاول حبسها بلا فائدة: لقد أخطأت، أخطأت بحق أبيك وأخطأت بحق ولدَيّ وأخطأت بحق نفسي.

وأكملَت وقد أصبحت تبكي بصوتٍ عالٍ: أنا أعرف أنني لا أستحق أن أعيش فحتى ولدَيّ عندما تكلمت معهما قبل أن أطلب مقابلتك لم يبديا أي اكتراث عندما قلت لهما إنني سأعود لأعيش معهما إلى الأبد.

قلت لها بقسوة: ذلك لأنك لم تكوني يومًا ما أُمًّا لهما، لقد أهملت شؤونهما وتركتِهما على الخدم وعلَيّ في حياة والدي، وفعلت ما هو أدهى وأمر بعد ذلك، هجرتهما وركضت وراء ملذاتك الخاصة وكأن كلا منهما ليس قطعة من فؤادك.

والآن وبعدما فقدت الزوج والمال تأتين لتقولي لي ولدَيّ وأريد أن أعيش لهما ومن أجلهما؟.

قاطعتني سارة قائلة: بالله عليك يا رباب كُفّي عن لومي وتقريعي، أنا ألوم نفسي في اليوم أكثر من ألف مرة فلا تزيدي همومي وأحزاني، أعرفك عاقلة وصاحبة قلب كبير وإلا لما قصدتك.

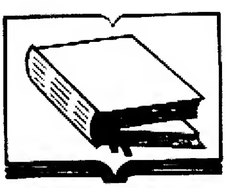
لُذتُ بالصمت وراحت هي ترجو وترجو إلى أن تحرك قلبي شفقة عليها وربما شفع لها أنني كنت ذات يوم أحبها وأعتبرها أقرب الناس إليّ فقلت لها: حسنًا سوف أتكلم مع بدر وبندر.

بعد حديث طويل مع بدر وبندر قالا لي: سامحيها يا عمتي أليست هي أُمُّنا وقد أمرنا الله أن نبرها ونحسن إليها، ثم ألم تعلمينا أنت مثل هذه المعاني؟.

ضممت الصغيرين إلى صدري ورحت أقبلهما وأنا أرى تعليمي يثمر على أفضل ما يكون.

صدقوني يوم عادت سارة لتعيش بيننا لم تكن هي التي لا تسعها الفرحة، فقد كانت فرحتي أنا أيضًا كبيرة بعودتها، وذلك لأنني كنت متأكدة من أنها سوف تكون من الآن فصاعدًا أُمًّا حقيقية لبدر وبندر اللذين أُكِنّ لهما من الحب الشيء الكثير.

***





(٦)

أستطيع أن أؤكد بعد أن أمضت سارة معنا أكثر من أربعة شهور بأن هذه السيدة التي اتهمتها بالأنانية وحب الذات والرغبة في العيش الهانئ بعيدًا عن مواطن الألم، هذه السيدة أثبتت فيما بعد أنها من أفضل الأمهات فقد استطاعت كسب ثقة ولديها وثقتي أنا بل وثقة كل المحيطين بها، أصبحت في نظري تمثل الأمومة الصافية المنبع، هذا الاكتشاف جعلني أتساءل بيني وبين نفسي: هل يمكن أن تعايش المرأة النقيضين، وهل يمكن أن تنقلب أوضاعها فجأة؟ ولم أخرج من تفكيري بشيء إلا أن أقول: سبحان الله، ما أعقد تركيب الإنسان جسديًّا وعقليًّا ونفسيًّا، وأن أقول أيضًا: حتمًا أن الإنسان يعايش الأحداث ويسايرها ويصنع منها ما يساعده على اكتساب مواقع جديدة في هذه الحياة تناسب ما يريده أو يتطلع إليه، وفي الحقيقة يبدو أننا بالفعل نعايش الأحداث ونسايرها ونصنع منها ما يساعدنا على اكتساب مواقعنا في هذه الحياة بهدوء.

افتقدت جدتي وأنا أناقش نفسي في هذا الأمر، إلا أن أختي قالت لي معقبة على الموضوع بأن أمومة المرأة تظل موجودة، وهي أشبه بالنار التي تختبئ تحت الرماد، حتى إذا ما هبت نسمة صغيرة أشعلت النار في قلب المرأة وهزت كيانها وأعادتها إلى حظيرة الأمومة حتى عندما تهرب منها لسبب من الأسباب، فهروب المرأة من أمومتها في نظر أختي هو ضد التيار، ولهذا تُصاب المرأة البعيدة عن أبنائها بالكآبة والأمراض النفسية مهما كانت الحياة التي تعايشها وتمارسها.

أخوَيّ بدر وبندر أصبحا يمارسان لعبة (الاستغمّاية) مع أمهما عندما أراهما ولكن هذه اللعبة التي كنت أضحك منها كانت تعني خوفهما من أن أشعر بأن أمهما دخلت حياتهما وأخذت جزءًا منها مني أنا التي كنت من قبل كل شيء في حياتهما، أفهمتهما بأنني سعيدة جدًّا لهذه الحب والانسجام الذي أراه ينمو بينهما وبين أمهما بعد أن استقرت معنا وكنت أردد أمامهما دائمًا أنه لا يمكن لأي إنسان مهما علا قدره وكان محل حب أن يحتل مكان الأم في نفوس أولادها.

كانا يعجبان بكل ما أقول ويشعراني بأن حبهما لي لم يتغير وكنت أمزح من كل قلبي وأنا أراهما سعيدان هانئان.

سارة أمهما قالت لي ذات ليلة:

(هل تسمحين لأخي فريد بأن يزورنا؟).

في باديء الأمر نظرت إليها بغضب وشراسة ولم أقل لها شيئًا، ولكن بعد إلحاحها وجدت نفسي أقول لها: (لا مانع على أن يتم ذلك في فترة عملي بالمستشفى ومرة كل شهر على الأكثر.).

قبلتني سارة في وجهي وقالت: (كم أنت طيبة ورائعة يا رباب.).

أما أنا فلم أر فيما قلت شيئًا يستحق هذا المديح.

أختي عندما علمت بالأمر أنبتني وقالت: (كان عليك ألا تقبلي دخوله إلى هذا البيت مرة أخرى.).

قلت لأختي بهدوء وبصوت الواثق من نفسه، ولماذا لا يدخل؟ ثم أننا أخرجناه من دائرة الضوء في نفوسنا وقلوبنا وبذلك وجوده حولنا أو قربنا أو عدمه سيان.

صمتت أختي ولكني شعرت بأنها لم تكن على رأيي أبدًا.

في إحدى تلك المرات التي كان فيها فريد يزور أخته سارة ووالديها التقيته أثناء عودتي من المستشفى خارجًا من بيتنا، لم أعرفه بادي ذي بدء لكنني عندما تمعنت في وجهه وأنا أترجل من السيارة خلت بأني أرى شبح رجل هزمته السنون وأضاعت من وجهه نضارة الحياة وبدا في نظري كإنسان نزلت بساحته النوائب.

رغم التقاء عيني بعينيه إلا أنني وجدت أن من المناسب أن أتناسى رؤيته وهو على تلك الحال التي لا تسر العدو قبل الصديق، فريد أبَى إلا أن يستوقفني وكأنه يود أن يعلمني بما آل إليه حاله من الناحية الصحية بعد خروجه من المستشفى، لم أمد له يدي للتحية؛ لا كبرًا أو استهزاء، ولكن شعورًا مني بأنني مسلمة يجب أن لا أضع يدي في يد غريب.

سألني وفي عينيه ومضة حب: كيف حالك؟.

أجبت: كما ترى على أحسن حال.

قال: وددت لو التقيت بك قبل اليوم لأشكرك على ما فعلت من أجلي، وعلى ما صنعت بعد ذلك مع أختي.

قلت: لا أعتقد بأنني صنعت شيئًا خاصًا، لقد صنعت ما يمليه الضمير على الإنسان.

قال بإعجاب: لقد كنت كريمة جدًا معها، ومعي أيضًا.

لم أنطق ببنت شفة ومضيت إلى داخل البيت وكأنني أهرب من شيء يثقل صدري ويكاد

يخنقني ولا يمنحني الشجاعة لأن أقول له ما بنفسي.

تذكرت وأنا أدلف إلى غرفتي فريد الأمس وفريد اليوم، وحاولت أن أقارن بين الاثنين فشعرت بالأسى والحزن.

تساءلت بيني وبين نفسي: ترى لماذا حاول هذا الرجل أن يستوقفني وهو يعرف رأيي فيه؟.

لم أجد جوابًا لتساؤلي فحاولت أن أتناسى الموضوع أو أن أهمله وفي داخلي إحساس بالألم، فنحن في هذه الحياة نختار ونظن أننا قادرون على حسن الاختيار، ولكن الأيام والسنين قد تفجعنا في اختيارنا وترينا كل شيء على حقيقته لنرى ما ظنَنّا أنه حُسن اختيار يبدو لنا سيئًا سيئًا، الشيء الذي يعني تجربة تضاف إلى تجاربنا في هذه الدنيا لنمضي في الحياة بعدها محاولين نسيان تلك التجربة الفاجعة، ولكن ترى هل ننسى؟، أو بالأصح: ترى هل نسيت أنا الماضي؟.

وهل يمكن للإنسان أن ينسى ذكرياته حتى ولو جارت الأيام على بعض الصور فشوّهتها كما هو الحال مع فريد الماضي البعيد غير فريد اليوم شكلاً وموضوعًا.

عندما أصبحت داخل غرفتي جاءت سارة تستأذن في الدخول علَيّ وقالت بمرح: هناك مفاجأة تنتظرك.

نظرت إليها باستنكار واستغربت أن تعتقد أن لقائي بفريد أو شيئًا من هذا القبيل هو مفاجأة لي تستحق أن تقابلها هي بذلك المرح والفرح وأحسست بشيء من الغضب، لكنها كانت أقدر على الفهم وأسرع في إزالة سوء الفهم هذا عندما رددت ضاحكة: ألا تسمعين؟، قلت لك هناك مفاجأة لك. خالك تحت جالس في الصالون الكبير.

خالي.. تمتمت وأنا أهرول وأنزل إلى الدور الأول حيث الصالون الكبير وحيث يقبع إنسان بالتأكيد عزيز على نفسي لأنني سوف أرى فيه أمي وأشم من خلاله رائحتها.

عندما دخلت الصالون وجدت رجلاً يرتدي الملابس الأفرنجية هذا رجل قريب الشبه بأمي التي أضع صورتها في إطار جميل في غرفتي، سلّمت عليه وألقيت بنفسي على صدره.

أحسست وأنا أراه لأول مرة أمامي شخصيًا بعد أن كنت أراه في بعض صوره التي نحتفظ بها في البيت وكأني أرى إنسانًا قد ضاع مني، أما عندما ألقيت برأسي على صدره فقد شعرت

وكأني ألقيت بكل همومي وأحزاني على هذا الصدر الحنون، أليس في الأثر: (الخال والد)؟.
كان خالي يجيد اللغة الإنجليزية إلى جانب لغته - أي اللغة التركية - فحمدت الله كثيرًا لأنني بذلك أستطيع التفاهم معه بسهولة وهو الذي لا يجيد العربية.

سألته معاتبة وأنا أحاول أن أتعرف على أحوال أسرته التي لا أعرف عنها شيئًا قلت: لماذا لا تكتب لنا؟ لماذا لم تزرنا قبل الآن، لماذا؟، لماذا؟.

ضحك خالي الذي كان يصر عليّ بأن اسمه حاجي مصطفى فهو قد جاء لأداء الفريضة وينتظر أن يدعى باسم حاجي كل من يعرفه عندما يعود إلى بلده، ثم قال: لك الحق في أن تنكري عليّ صمتي طوال المدة الماضية، فأنا لم أكن في استنبول طيلة السنين المنصرمة بل كنت مع أسرتي وأولادي في أمريكا، مهاجرين نعيش في أمريكا، وإن كنت لا زلت أحتفظ ببيتي في تركيا والذي كنا نأتي إليه لتمضية إجازة الصيف من وقت لآخر، ولطالما شدني الحنين لأن أراك وأرى أختك إلا إن اعتقادي أن أباكم لا بد وأن يكون قد تزوج، وأنه بذلك قد لا يكون هناك مكان لي في بيتكم كان يمنعني من القدوم إليكم.

أما الآن وقد كتب الله لي أن أحضر إلى بلدكم حاجًا فإنه من غير الممكن أن لا أبحث عنكم وأراكم.

قال ذلك خالي بلكنة تركية ذكّرتني بأمي فدمعت عيناي وانتابني شعور بالتعاسة لفقدانها وكأني فقدتها بالأمس القريب فقط، وتابع خالي كلامه بمرح قائلاً: لقد ذهبت إلى المدينة أبحث عنكم في حوش التاجوري إلا أن الناس الطيبين هناك أخبروني أنكم انتقلتم إلى جدة وأعطوني العنوان.

خلال إقامة خالي عندنا تحدثنا كثيرًا.

وأطلعنا على صور أبنائه وبناته وزوجته، عرفت أن له ابنًا يدعى لطفي وهو ابنه الأصغر المدلل لم يتزوج بعد - رغم أنه شارف على الأربعين - كما عرفت أنه طبيب مثلي درس الطب في جامعة في ألمانيا، عرفت أيضًا كل شيء عن أبنائه الآخرين وعن أولادهم وأزواجهم، بل وعن ظروف انتقالهم إلى أمريكا فهم جميعًا مهاجرون يعيشون في أمريكا في ولاية كولورادو، وهو أي خالي قد عاد هذه المرة إلى مسقط رأسه وفي نيته بعد أن حن لبلاده أن يقضي بقية حياته فيها.

طبعًا لطفي لا يزال في ألمانيا يعمل في إحدى المستشفيات، وسوف يحضر قريبًا إلى تركيا لملاقاة والده الذي لم يره من عدة سنوات.

ما أحلى أن يلتئم الشمل ويجتمع الأهل، حقًا لقد أمضينا أوقاتًا سعيدة وأمسيات ممتعة برفقة

خالي، كنا كل ليلة نجتمع معًا جميعًا أختي وزوجها وأولادها وسارة وبدر وبندر وأنا، إما في بيت أختي أو في بيتنا الكبير، لقد أحسست بخالي الذي لم أقابله سوى من مدة بسيطة يتسلل إلى قلبي في هدوء ويحتله تمامًا.

وغادر خالي جدة إلى مكة لأداء فريضة الحج حين حل موعدها بعد أن ترك لنا صور أسرته وصورة لأمي وهي صغيرة حملتها بفرحة كبيرة وكأني أحمل كنوز العالم كلها.

أقول الحق: كانت هناك صورة أخرى تشدني من بين هذه الصور التي تركها خالي في بيتنا، تلك هي صورة ولده لطفي.

عاد إلينا خالي بعد أداء الفريضة ووجدتني أسأله عن لطفي وأحواله ولماذا لم يتزوج، حدثني طويلاً عنه وعن رجولته وإنسانيته وتفانيه في عمله كطبيب، وكيف أنه عازف عن الزواج ويقول إنه يكفيه أنه متزوج من مهنته، وفجأة ودون سابق موعد وكأن فكرة ثمينة طرأت على باله قال لي بحماس: ليتك يا ابنة أختي تستطيعين إدخاله في قفص الزوجية. ضحكنا معًا للفكرة وكأنها حديث عابر إلا أنني وجدت نفسي أفكر فيها كثيرًا بعد أن رحل خالي عنا.

طبعًا لم ينس خالي أن يسألني لماذا لم أتزوج وأنا على أبواب الثلاثين. إن لم أكن قد تعديتها بقليل. قال ذلك في إحدى الليالي وهو يضحك ولكني أجبت حينها بلا مبالاة: لا أدري ربما لم يعجبني أحد من أولئك الذين تقدموا لطلب يدي، تمتم عندئذ قائلاً: أنت كأمك تمامًا، رفضت الكثير من الشبان في بلدنا ثم جاءت لتتزوج بأبيك، إنها القسمة والنصيب، كل ما أستطيع أن أقوله: لم يأت نصيبك بعد، ولم ينس أيضًا أن يدعو لي بأن يرزقني الله بابن الحلال الذي يسر خاطري وقلبي، دعوة جميلة أحببتها وهي تخرج من قلبه وبصدق تام.

صمت لحظة ثم أعاد نفس هذه الدعوة ولكن لابنه لطفي هذه المرة.

***

الليل يكاد ينتهي وأنا في غرفتي أحاول أن أهدأ، أفكاري تطبق علَيّ، تخنقني لا تمنحني الراحة ولا تمنح عيني النوم.

رأسي يكاد ينفجر، لأول مرة في تاريخ حياتي أحس بهذا الصراع النفسي الرهيب الذي يكاد يفجر عروقي.

ترى لماذا؟ ولماذا هذا الشعور القاتل بالفراغ، شعور يصرع إحساسات السعادة التي كانت

تلازمني أثناء وجود خالي بيننا، إنني أعرف أن خالي لم يأت ليبقى أو يعيش معنا إلى الأبد، إذًا لماذا كل هذه الأحاسيس التعسة تنتابني؟ إنه جاء ليقضي فريضة الحج ثم يعود، هكذا كنت أقنع نفسي وحتى أستريح وأهدأ ولكن هيهات، يظهر أن بقاءه معنا فترة من الزمن جعلتني ألتصق به وأحس أنني بدونه وبدون وجوده بيننا كريشة في مهب الريح، ذكرياتي كلها تجسد فيه وبدا وكأن الله قد أرسله إلينا ليحيل حياتي في وجوده إلى الأصفى والأحلى والأجمل.

أختي لم تفتقد خالي مثلي، هذا لا يعني أنها لم تحبه وتحب تواجده بيننا ولكنها أكثر مني منطقًا فهي تعرف أنه لن يبقى معنا إلا فترة قصيرة من عمر الزمن، باختصار أنا غير قادرة على أن أستلّ هذا الفراغ المدمر الذي أحاط بي بعد غيابه.

أتصدقون عندما أقول لكم بأن وجود خالي بيننا قد دغدغ إحساساتي كامرأة وجعلني ألتفت وأحس بأنوثتي؟، كان يدق دائمًا على الوتر الحساس في أعماق ذاتي ويطالبني بأن أبدو كأنثى، وأن أتصرف كأنثى، وأن أنظر إلى الحياة كأنثى، فأتطلع إلى الزواج من رجل أعيش برفقته وتحت كنفه، ثم إلى تكوين أسرة بنين وبنات أنجبهم وأملأ وقتي بهم ومن خلالهم.

كان يُطري جمالي دائمًا ويشيد بشبابي لدرجة أنه أفصح لأختي ذات مرة أنه يتمنى من قرارة نفسه لو أكون من نصيب لطفي ابنه.

لطفي الذي لا أعرف عنه شيئًا سوى هذه الرجولة التي تكاد تنطق بها صورته، وسوى تلك الكلمات القليلة التي تبادلتها معه عندما تحدث إليه والده عبر الهاتف من بيتنا، حيث أعطاني السماعة فجرى حديث عابر بيننا جعلني أفكر فيه وأتخيل شخصيته كمراهقة دق الحب باب قلبها فجأة ولأول مرة.

أَوَيُمكن أن أنسى كل ما مر في حياتي من أحداث لأعود مراهقة مرة أخرى أحب وأتطلع إلى رؤية الحبيب؟، هل سيقدر لي أن أقترن بلطفي؟.

تساؤلات حاولت أن أضحك وأنا أرددها، أو وهي تخطر في بالي، ثم حاولت أن أنساها فإذا بي أتناساها مؤقتًا لأنها ما فتئت تطل بين الحين والحين من بين ذاكرتي تطالبني بالجواب، وأنا لا أعرف الجواب.

ترى هل يكلم خالي لطفي عني؟، وهل يقدر لابن خالي لطفي أن ينشغل بي أو يفكر بي كما أفعل أنا؟.

هل سيرضى بما يرغب فيه أبوه أم أنه سوف يهرب كما هرب فريد في مساحات الزمن الغابر، ثم

. وهذا هو الأهم. هل أستطيع تغيير حياتي الحالية التي درجت عليها وأنا التي تعدت سن الثلاثين.

صحيح أن وجهي الطفولي لا يحمل بصمات الثلاثة والثلاثين سنة التي أحملها من عمري، ولكن هل هذا يكفي لأعود صبية تحب وتحلم من جديد؟.

لقد دعانا خالي لتمضية إجازة الصيف القادمة في تركيا بضيافته، وقال: إنها فرصة نتعرف بها على الدكتور لطفي ابنه وبقية أفراد عائلته، فقد اتفق معهم على اللقاء هناك في جزيرة الأميرات مسقط رأسه ورأس أمي، والتي تبعد بضعة أميال عن استنبول، ولقد ظل يلحّ ويلحّ عليَّ أنا بالذات حتى وعدته بأنني سوف أفعل، فهل سأفعل؟.

بدأنا نتبادل الرسائل نحن وخالي بعد عودته إلى تركيا، وقد كانت رسائل حلوة يخبر فيها كل منا الآخر بما سوف يفعل، وفي إحدى رسائله إلينا والتي وصلت قبيل الصيف والتي أيضًا جاءت حلوة ممتعة كالعادة.

قرأت خبرًا كان مثيرًا وهامًّا بالنسبة لي.

قال خالي في نهاية رسالته، لقد حضر لطفي أخيرًا من فرانكفورت في إجازة طويلة، إجازة مفتوحة فهو قد أنهى عمله في المستشفى التي كان يعمل بها هناك، ولقد تحدثت معه عنكم وعن مستوى الرقي والحضارة والثقافة التي وصلتم إليها عامة أنتم السعوديون، حتى أصبح مشوقًا لرؤيتكم ورؤية المملكة والأماكن المقدسة بشكل خاص، كذلك اقترحت عليه أن يعمل معكم في المملكة العربية السعودية بعد أن أنهى عمله في ألمانيا ولا أدري إذا كان من الممكن أن تتدبروا الأمر فيما إذا اختمرت لديه فكرة العمل عندكم وبجانبكم.

لا نزال بانتظار أن نراكم بيننا في تركيا، حاولي يا رباب الحضور إلينا ورؤية بلدنا، سترين بعينيك كيف يلتقي الشرق والغرب في مدينة استنبول، كما أنه حتمًا سوف تشعرين كم نحب نحن الأتراك قِبلتنا أرضكم رغم كل ما مر بنا وعلى أرضنا من أحداث.

ستشاهدين إذا ما حضرت إلينا مساجدنا وقصورنا وفنادقنا؛ القديم يعانق الجديد، كما سوف تتحدثين إلى جيل الشباب والجيل القديم ليتأكد لك هذا الحب الذي نُكِنّه جميعًا لكم ولدياركم.

نعم احضري إلينا ولن تندمي، ستتمتعين بالحياة هنا في كل ما يحيط حولك من جمال الطبيعة الخلابة.

أرض خضراء ومياه بحر بزرقة السماء، تعالي لتشاهدي البحر الأسود وكيف تلتقي رماله بليونة المياه وصفائها وهي تطل على أشجار الجوز واللوز والتفاح والعنب، بينما تدق موسيقى الغسق ألحانها عندما يصبح القمر بدرًا وكأن هذه المحاصيل تأبى أن تتم مراحلها وتنضج بدون أن تغتسل في مياه القمر الصافية.

احضري لتشاهدي أيضًا بنات القرى بوجوههن الصبوحة يرددن أغاني (يا لآلي آمان) بأصواتهن العذبة التي تنطق بالسعادة وهن يقطفن المحصول تمهيدًا لإرساله إلى الأسواق القريبة والبعيدة.

صور أعرف أنك مشوقة لترينها بمقدار ما أنا وأسرتي مشوقين لرؤيتكم بيننا يا ابنة أختي الغالية.

في استنبول يا عزيزتي يلتقي الفجر بأصداح زغاريد الطيور الملونة التي تركت أعشاشها مؤقتًا في رحلة البحث عن رزقها، لا فرق بينها وبين هذا الإنسان الذي اختاره الله خليفة له على أرضه.

وأخيرًا لن أطيل عليك أكثر من هذا وسأترك لك الكثير والكثير لتكتشفيه بنفسك وبحسك المرهف، ثم تعيشينه بعد ذلك حقيقة واقعة بيننا نحن الذين يملؤنا الأمل الباسم بأن نراك قريبًا وقريبًا جدًّا.

قرأت كل هذا الذي كتبه خالي أكثر من مرة فكلمات الخطاب منتقاة الألفاظ وتعبر عن الشوق العارم الذي يملأ صدر خالي والحب الكبير الذي يكنّه لنا جميعًا ولي بشكل خاص.

ليت أمي معنا فنذهب جميعًا لنرى موطن ولادتها ومسقط رأسها هي التي كانت لا تتحدث عن ذلك كثيرًا، بل تركت الحديث لخالي أخيها كي نمتلئ عن طريق حديثه شوقًا وأحلامًا.

قالت لي أختي بعد أن قرأت رسالة خالي هذه: أتدرين يا رباب أن خالي لا بد وأن يكون شاعرًا فلطالما سألت أمي عن مسقط رأسها وعن بلادها فكانت تقول: يا بنيتي العالم كله يعيش في طيبة الطيبة فلا عليك.

لن تجدي أجمل من شروق فجرها ودفء شمسها ونضارة قمرها، فالعالم كله أشرق نوره من هذه الأرض وسيظل هذا النور فيها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

أصبحت رسائل خالي سلوتي، أقرؤها مرات ومرات، وكنت في كل مرة أكتشف أشياء

جديدة وإحساسات منعشة، يكفي أن أكتشف أن هناك أناسًا يحبونني ويهتمون لأمري كثيرًا أنا الوحيدة في هذه الحياة، كانت هذه الأفكار تداعب خيالي وأنا أقف في شُرفة بيتنا المطلة على البحر أنظر حولي حيث الهدوء المسيطر فالدنيا ليل وأنا في هدأة الليل لا أهدأ عن التفكير أبدًا، كان أكثر من يعكر هذا الهدوء مرور سيارة كل بضع دقائق لتكون بمثابة تذكير لي بأنني أعيش هنا في بيتنا في جدة وأطل من شرفة منزلنا لوحدي دون أنيس ولا رفيق، ومع ذلك فقد كان الأمل يداعب خيالي.

مضت الساعات تلو الساعات حتى بدأ الفجر يبزغ فعدت إلى غرفتي وقد ملأ قلبي إحساس بأنني والربيع على موعد وأن إحساسي بالخريف في حياتي بدأ يذوي ويندثر، لقد علت نبضات قلبي وضجيج دقاته وبدأت أغني أغنية فريد الأطرش المشهورة (الحياة حلوة).

ترى هل أسافر إلى خالي؟، قلبي يحدثني أن سفري سوف يغير أشياء كثيرة في حياتي فهل أفعل أم أظل هكذا؟، هل أكتفي بالبقاء هنا في غرفتي وفي الشرفة حيث أقضي بعض وقتي، وفي المستشفى الذي يأخذ النصيب الأوفر من وقتي، أم أسافر وأنا أحس أنني سوف أنطلق إلى الحياة التي أشعر أنها بدأت تفتح لي ذراعيها باسمة مقبلة؟.

ومضت الأيام التالية حلوة باسمة فقد أصبح هناك أمل أنتظره.

هناك سفر إلى المجهول حيث سأتعرف إلى أناس جدد وأعيش آمالهم وأحلامهم ووسط ابتساماتهم التي تطل عليّ من الآن في واقعي وفي خيالي.

في إحدى الليالي كنت أناوب في المستشفى وإذا بجلبة وضوضاء تحدث في قسم أمراض النساء والولادة، أسرعت إلى هناك لأجد امرأة شابة حضرت لتضع مولودها الأول، الولادة جاءت متعسرة والدكتور عادل بذل جهدًا رهيبًا لينقذ الأم والجنين، جاءت مولودة صغيرة لا يتعدى وزنها كيلوغرامين وربع، طبعًا ظللت باقي الليل أتردد على الأم لكي أطمئن عليها وعلى حُسن إشراف ممرضات القسم عليها، وفي إحدى المرات التي دخلت عليها وجدتها تتحرك ثم تفتح عينيها وتسألني بلهفة: ماذا وضعت يا دكتورة؟.

أجبتها باسمة: طفلة، طفلة جميلة جدًا.

لم تقل الأم شيئًا وإنما أغمضت عينيها ثانية، وقد ارتسمت على محياها كل معاني السعادة، تمتمت لنفسي وأنا أخرج من الغرفة: ما أعظم حكمة الله، تنسى الأم كل آلامها وكل

متاعب حملها وولادتها مهما كانت قاسية وعنيفة بمجرد أن تهب الدنيا مولودًا، عندئذ تبدو في أجمل سويعاتها هانئة راضية وسعيدة بمولودها الذي يأخذ طريقه إلى الدنيا بأمل وحب.

وعندما كنت خارجة في الصباح الباكر وبعد انتهاء عملي كطبيبة مناوبة في المستشفى وجدت نفسي أفكر بتلك الأم السعيدة، ولأول مرة تمنيت لو أكون مكانها، ركبت السيارة وأشرت للسائق بأن يسير بي إلى البيت وأنا أتمتم بيني وبين نفسي: ترى أَوَيُمكن أن أحقق مثل هذه السعادة التي ينطق بها وجه هذه الأم الشابة، هل يقدر لي الله أن أكون أُمًّا؟.

أمنية باتت في هذه الأيام تجول بخاطري كثيرًا وكثيرًا جدًّا.

وفي اليوم التالي وما إن وصلت إلى المستشفى حتى وجدت نفسي أعود تلك الأم ودون أن يكون هناك سبب أو حاجة لزيارتي لها، قلت لها عندما رأيتها تجلس في السرير وقد اكتسب وجهها نضرة لم تكن به بالأمس بعد تلك العملية القيصرية التي أجريت لها: حمدًا لله على السلامة ومبروك الطفلة الجميلة التي وضعتها أمس.

قالت الأم بفرح: أشكرك ولكن متى أستطيع مغادرة المستشفى؟.

أجبتها بمرح: يظهر أنك تستعجلين مفارقتنا.

قالت في سعادة: لا ولكن زوجي، والد طفلتي هذه وأشارت إليها بحنان ظاهر مسافر في رحلة عمل وأحب أن أعود إلى بيتي لأكون في استقباله مع طفلتي.

صمتت لحظة ثم تابعت كلامها قائلة: أريد أن يشاركني الفرحة فهو أيضًا يتوق لأن يصبح أبًا، ولقد قمنا باختيار غرفة نوم ضيفنا القادم وأعني طفلتنا هذه مع بعضنا وكان حريصًا أن يشتري الأجمل والأحلى.

ابتسمت لها أطمئنها من كل قلبي وقلت: لا تخافي بإذن الله سوف تخرجين من المستشفى وتستقبلين زوجك أنت وهذه الصغيرة الجميلة وتمامًا كما ترغبين وتتمنين.

قالت بفرح وسعادة: أشكرك يا دكتورة رباب، إنك حقًّا لطيفة ورائعة، لقد رأيتك أمس تدخلين غرفتي، لم أكن لأستطيع أن أكلمك، أما عندما استفقت تمامًا سألت عنك فقيل لي أن عملك انتهى وأنك قد غادرت المستشفى.

سألت بدهشة: من أين عرفت اسمي وأنا لم أكن الطبيبة التي أشرفت على حملك وولادتك؟.

أجابت وابتسامتها تسبقها: يكفي أن تكوني أول من فتحت عيني ورأيته بعد تلك العملية

القيصرية التي كان لا بد منها لأضع مولودتي الحبيبة رباب.

اتسعت حدقتا عيني دهشة وقاطعتها قائلة: رباب.. أطلقت عليها اسم رباب؟.

أجابت: نعم أسميتها رباب على اسمك يا دكتورة رباب، أولاً لأني استبشرت برؤيتك خيرًا أنت التي أول من رأيت بعد أن صحوت من تأثير البنج. وثانيًا لأنني أتمنى لها أن تصبح طبيبة مثلك.

ضحكت ضحكة صافية ومن أعماقي وأنا أقول: أرجو الله أن يحقق لك أمنيتك هذه، أمّا أنا فأتمنى لها قبل كل شيء أن تصبح زوجة وأُمًّا.

وخرجت وأنا لا أدري كيف نطقت بهذه العبارة أو لماذا؟.

❊ ❊ ❊



(٧)

أنسى في غمرة انشغالي بعملي كطبيبة كل شيء حتى مشكلاتي، أتفانى في عملي قدر ما أستطيع وطبعًا السبب في ذلك يكمن في أن الطب مهنة إنسانية تحتاج لكل كفاءة وقدرات وعقل من يمارسها.

في السنة الأولى من عملي في المستشفى كنت أحلم بمستشفى أملكه أنا وأديره ولا أدري لماذا ضاع مني هذا الحلم كغيره في خضم هذه الحياة.

ولقد وجدت فيما بعد أنني أميل إلى الابتعاد عن الإدارة والملكية كي أتفرغ لممارسة العمل الذي أحببت منذ الصغر.

بالتأكيد هناك أشخاص التقيت بهم على سرير المرض حتى إذا ما تركوا المستشفى لم تنقطع صلتي بهم وخصوصًا بعض العائلات والسيدات اللواتي أصبحن صديقات عزيزات على قلبي يزرنني من آن لآخر في المستشفى ويلتقين بي، لكنه لم يقدر لي أن ألتقي بهن في بيتي أو بيوتهن ربما لأن عمل الطبيب ووقته لا يسمح بمثل هذه الزيارات.

لا أدري لماذا أتذكر جدتي وأنا أذكر الطب والأصدقاء والعمل الذي لا يسمح بعقد صداقات كثيرة، أذكر أنني في إحدى المرات التي كنت أعاين فيها جدتي، وقبل أن تلقى إلى بارئها قالت لي بصوت حنون مشفق عليّ من كثرة العمل وقلة وقت الفراغ. قالت: أنتم يا معشر الأطباء في انشغال دائم بمرضاكم وأمراضهم، تعالجون الأمراض التي تستطيعون علاجها وتقضون بقية وقتكم تنقبون وتبحثون عن علاج لتلك الأمراض التي لم تكتشفوا لها دواء بعد.

قلت يومها: معك حق يا جدتي خصوصًا إذا أضفت إلى ذلك أن علينا نحن الأطباء أن نقرأ باستمرار لنقف على أحدث ما توصل إليه الطب من أدوية وعلاجات واكتشافات، لأنه بالفعل هناك أمراض كثيرة لا يزال الطب يقف أمامها عاجزًا حتى اليوم وإن لم يفقد الأمل، وطبعًا كل ذلك مُجتمِع مسؤول تمامًا عن كون وقت الطبيب ضيقًا وضيقًا لا يترك فراغًا لممارسة الحياة الاجتماعية التي يمارسها الآخرون.

سعيدة عاملة نظافة بالمستشفى هي الأخرى لا تملك من وقت فراغها الشيء الكثير، فذلك عمل مُضْنٍ أيضًا ويأخذ كل وقت صاحبه، ومع ذلك فهي لديها من الحيوية والطاقة ما يجعلها تمارس

هذا العمل خلال ساعات عملها وخارج ساعات عملها، أي تعمل ساعات إضافية في المستشفى لتزيد من دخلها كي تعيل ابنتها الوحيدة حيث تركها لها زوجها ورحل عن هذه الدنيا والفتاة لم تبلغ الرابعة من العمر بعد، شمّرت سعيدة عن ساعديها ورفضت أن تتزوج بل صممت أن تعيل ابنتها وتربّيها بنفسها، نزلت إلى ميدان العمل وهي منذ ذلك الحين أي منذ أكثر من ثلاثة عشر عامًا تعمل في هذا المستشفى والكل يعرفها باسم العمة سعيدة، وأنا بشكل خاص أحب العمة سعيدة، وأركن إليها وكثيرًا ما تحدثنا مع بعضنا خصوصًا عندما أكون الطبيبة المناوبة في الليل وتصادف وردية عملها مع وردية عملي، كانت تحدثني عن ابنتها المتفوقة في دراستها وعن حياتها التي هي وقف على هذه الابنة التي هي (عندها بالدنيا كلها) على حد تعبير سعيدة، ولقد كنت أجد نفسي تلقائيًا منساقة للتحدث إليها عن مشكلاتي الخاصة، مشكلاتنا مع سارة عندما كانت زوجة لأبي، ومشكلاتنا معها بعد وفاة أبي وزواجها من سامر، وكذلك مشكلات إخوتي الصغار وتربيتهم التي تحمّلتها لوحدي فترة من الزمن ثم عودة سارة، إلخ.

وأشهد أنها كانت تمثل القلب الكبير الذي يلهمني الصبر والتحمل كلما ناء ظهري بالأعباء والمسؤوليات وثقل صدري بالهموم والأحزان.

في الأسبوع الماضي جاءتني سعيدة باكية تحتسب وهي تقول: ابنتي يا دكتورة رباب، ابنتي.

سألتها بلهفة وقد فجعت بمنظرها وانفطر قلبي له:

خير، خير، ماذا حصل لها؟.

قالت والدموع تملأ عينيها: لا تخافي، لا تخافي هي بخير ولكنها غاضبة علَيّ، لقد حدثت بيننا مشادة حامية، بل إننا أصبحنا نتجادل يوميًا ونشد مع بعضها منذ أن تخرجت من المدرسة الثانوية وقُبلت في كلية الطب بجامعة الملك عبدالعزيز.

قاطعتها لأقول وأنا أتعجل معرفة السبب: ماذا حدث؟ وما هذا الذي يجري بينكما، ولماذا؟.

قالت: تريدني أن أقدم استقالتي يا دكتورة، ترفض أن أبقى في وظيفتي كعاملة نظافة بعد أن أصبحت هي على أبواب دخول كلية الطب.

طلبت منها أن تتناسى طلب ابنتها وأن تستمر في عملها الأمر الذي جعل ابنتها بهية تأتي لزيارتي وتناقشني.

قالت: إنني يا دكتورة رباب أطلب من أمي أن تجلس في البيت لا لكوني أخجل من عملها، معاذ

الله، فأنا أقدر لها تضحيتها ووقف حياتها وشبابها علَيّ، وأقدر أيضا كدّها وعملها المضني في سبيل تربيتي وتعليمي وهي التي كان بإمكانها أن تتزوج وتعيش في كنف رجل يحميها ويصرف عليها ويبعدها عن الشغل الشاق الذي تقوم به من أجلي، نعم أقدر لها أن ضحّت بكل ذلك.

صمتت لحظة بعد أن اندفعت تقول كل ما قالت بحماس منقطع النظير وبصوت ملؤه الامتنان والاعتراف بالجميل، ثم أكملت كلامها بهمس وكأنها تحادث، نفسها فقالت: أنني أطلب منها اليوم أن تقدم استقالتها وتجلس في البيت لأنني أريدها أن تستريح من هذا العناء والتعب والشغل المضني.

أريدها أن تخلد إلى الراحة وتعتني بنفسها بعد أن أمضت كل حياتها لا هَمّ لها إلا أن تعتني بي وبمأكلي وملبسي ومشربي، إنني يا دكتورة رباب مستعدة لأن أعيش وإياها على مرتّب الدراسة.

ففي كلية الطب سوف يمنحونني معاشًا شهريًا سأعمل جهدي لأن يكون كافيًا لكي يسد احتياجاتي واحتياجات بيتنا إلى أن أتخرّج وأعمل فأرد لأمي بعض جميلها بأن أقدّم لها كل مرتبي حينذاك كي تنعم في بحبوحة من العيش حاولت دائمًا إيجادها لي ولو عن طريق العمل بوردية النهار والليل كما تعلمين، وعلى فكرة يا دكتورة فأنا أيضًا سوف أعمل بالمساء لأزيد من دخلي، لقد سجلت نفسي مدرّسة في إحدى مدارس محو الأمية، فما رأيك؟.

صَمَتُّ فقد أسقط بيدي وهاهي ابنة سعيدة تحاورني بمنطق لا يستطيع أحد أن يهزمها فيه، وفي الحقيقة لم أعرف مدى التضحية التي قدمتها سعيدة حتى رأيت ابنتها، رأيتها فتاة باسمة متفائلة تعتز بنفسها وبأمها وحياتها، وكأنه لا ينقصها حنان الأبوة أبدًا، لقد استطاعت سعيدة أن تكون أمًا وأبًا لهذه الفتاة بعد أن توفي الأب والوالد والمعيل، ونجحت بذلك إلى أبعد الحدود.

أعادتني ابنة سعيدة إلى الواقع بهزة من يدها وهي تقول: ها.. ما رأيك يا دكتورة، ألا تقولين شيئًا؟.

أجبت عندئذ قائلة: لقد قلت أنت كل شيء يا بنيتي، ولم تُبق لي إلا أن أقول إن مثل هذه الابنة وأعنيك أنت بالكلام طبعًا جديرة بمثل تلك الأم وأعني أمك يا عزيزتي بهية.

قالت بهية ابنة سعيدة وهي تشد على يدي: (أشكرك.. أشكرك جزيل الشكر، فرأيك هذا فيّ وفي أمّي سوف أعتز به مدى الحياة.

قلت بعدها مداعبة: بهية إذ جاء من يريد الزواج بأمك في الوقت الحاضر فهل ترضين لها أن تتزوج؟.

أجابت وشبه ابتسامة ترتسم على وجهها إذ يبدو أنها فوجئت بالسؤال، قالت: لا أكتمك الأمر، لم أفكر في مثل هذا الموضوع مطلقًا، لكن المرأة التي لم تتزوج وهي صغيرة ونذرت نفسها لتربية ابنتها لا يمكن أن تتصرف إلا بعقل وهي تدخل عتبة الأربعين من عمرها.

ضحكت لهذه الإجابة واعتبرتها رفضًا مقَنّعًا، ولكني أردت أن أمضي في مداعبتي لسعيدة وابنتها فوجهت الكلام هذه المرة لسعيدة وسألتها رأيها فيما لو تقدم لها الآن (عريس لُقْطة). كما يقولون.

ضحكت سعيدة واحمرّ وجهها وهمست: إيه يا دكتورة رباب، بعد هذا العمر؟ والآن وبعد أن رفضتُ الكثيرين.

قلت لها: كان هناك سبب لرفضك في الماضي، ولكن الآن بهية ابنتك قد كبرت - ما شاء الله - وتستطيع أن تهتم بأمور نفسها، فما رأيك الآن حيث لا حجة لك للرفض؟.

صمتت سعيدة ولكني لم أدعها تفكر بل تابعت كلامي قائلة: صحيح يا سعيدة ألم تفكري مطلقًا بالزواج ثانية بعد المرحوم.

أجابت سعيدة بهدوء: لا أكتمك بأنني عندما كانت ابنتي صغيرة لم أكن أفكر بل حتى كنت أرفض دون أن أفكر أما الآن فلا أدري.

وخرجت من غرفتي مسرعة لا تلوي على شيء.

وضح لي من خروجها السريع أن المرأة تظل هي المرأة تحلم وتفكر بالزواج حتى عندما تكبر ولا ترفضه إذا جاء بالشكل المناسب وفي الوقت المناسب.

أمضيت فترة من الوقت أناقش أمر سعيدة بيني وبين نفسي وكوني أصبحت في الرابعة والثلاثين منذ أربعة شهور الشيء الذي يعني أنني قريبًا سأصبح في الخامسة والثلاثين، ثم في السادسة، ثم في الأربعين، ثم، ثم ماذا؟ رُحت أسائل نفسي، هل معنى ذلك أنني بدأت أخاف العنوسة، أخاف أن يجري قطار العمر دون أن أتزوج وأحقق أمنيتي بأن أكون أُمًّا.

ووجدتني منساقة دون أن أدري لأن آخذ إجازة طويلة من عملي فقد كانت إجازاتي تتراكم لأني لم أكن أعرف كيف أستعملها أو لماذا آخذها.

أخذت الإجازة بعد أن قررت أن ألبي رغبة خالي وأذهب إلى تركيا في زيارة لهم ولا تسألوني لماذا.

لا تسألوني لأني أنا نفسي لا أعرف، كل ما أعرفه هو أنني أريد أن أعمل شيئًا، أن أتحرك، أن أغير حياتي، قبل أن يهزمني الزمن ويمضي بي قطار العمر، كان عندي أمل في أن ذهابي إلى خالي سوف يضعني على الطريق الصحيح، فأحيانًا الإنسان في غمرة أشغاله الروتينية يصبح غير قادر على التفكير في كيفية الخروج منها، ترى هل يستطيع خالي مساعدتي؟، خالي أم ابن خالي، الدكتور لطفي الذي حدثته على التليفون ورأيت صورته ومن ثم لمح خالي لأختي أنه يتمنى لو يراني زوجة لابنه هذا، لطفي ماذا لو لم يكن كما هو في خيالي؟.

ماذا لو لم أكن أنا تلك الفتاة التي رسمها في خياله زوجة لنفسه وهو الذي في الأربعين من عمره، رجل محنك عرك الحياة وسبر أغوارها كما يصفه خالي.

كتبت رسالة قصيرة لخالي أخبره بموافقتي على قضاء إجازتي معهم في تركيا، قلت ذلك وأنا أتعلل بإجابة واحدة أمام الجميع وربما كنت أرددها وأنا أحاول أن أقنع نفسي بها، كنت أقول لكل من يسألني: لماذا تسافرين؟.

كنت أقول: تعبت من العمل وأريد أن أخلد إلى الراحة فترة من الزمن ألا يحق لي؟.

وبينما كان الجميع يؤمّن على كلامي ويستحسن الفكرة، كنت أنا التزم الصمت خوفًا من أن يفضحني صوتي، أو يخونني التعبير فيفهم من حولي أن هناك هدفًا آخر، هو أن أرى لطفي وأتحدث إليه شخصيًّا، وأن... لا.. لا لن أقول فربما تجري الرياح بغير ما أشتهي وأحب.

قالت أختي ليلة السفر: حسنا تفعلين يا رباب يجب أن تخرجي من محيط العمل إلى شيء من الترفيه وأنت التي لا أذكر أنها أخذت إجازة طويلة في يوم من الأيام.

التزمت الصمت، فتابعت أختي كلامها قائلة: أختي رباب اسمعيني جيدًا، أنا أدرى الناس بالوحدة التي تعانين منها، والوحدة قاتلة يا أختاه، اسأليني أنا فقد عانيت منها بعد تجربة زواجي الأولى الفاشلة، حاولي قدر الإمكان أن تدرسي أخلاق لطفي فيما لو حصل ما فكرت فيه أنا وخالك، أنا متأكدة أن خالك الآن قد تكلم مع ولده لطفي عنك، وربما أنه قد أراه صورتك أيضًا، ولم يبق إلا أن تليّني دماغك قليلاً فيما لو تقدم لطفي بالفعل للزواج منك.

ووجدتني أستسلم ولا أعنف أختي كما هي عادتي عندما تفتح لي سيرة الزواج، الشيء الذي جعل أختي تتجرأ أكثر وتقول: إنني بالفعل أحلم بفارس يأتي ويأخذك منّا وسأكون أول من يشد

على يديه إعجابًا لأنه استطاع إقناعك بالزواج، استطاع أن يفك عقدتك كما كانت تقول جدتي. الله يرحمها.

كلام أختي وعقدتي من الزواج وتفكيري فيه الآن بجدية جعلني أؤمن بحقيقة واحدة وهي أن المرأة تظل امرأة تتطلع إلى الحب والزواج، وتنتظر فارسها الذي ترضى عنه، ولكنها بالطبع لا يمكن أن تمد يدها مطلقًا لمن لا يمد لها يده مهما كانت الظروف والأحوال، فكبرياء المرأة يجعلها لا تقدم على عمل كهذا.

فهي تريد أن تشعر بأنها مرغوبة وليست هي التي تجري وراء الرجل مهما كانت الظروف والأحوال، هل أمهد لنفسي وأقنعها أنه فيما لو أعجبني لطفي فعلاً ولم أعجبه أو لم يتقدم لطلب يدي؟، خاطر كان يُلِحّ عليّ ولكني كنت أرفض الجواب عليه بعناد وإصرار.

انشغلت أيامًا في ترتيب أمور السفر حتى إذا ما ركبت الطائرة ومعي أخوي بدر وبندر انفرجت أساريري، وأغمضت عيني وأنا أشعر براحة كبيرة، لقد بدا الأمر لي وكأني أنجزت عملاً كبيرًا من بداية تفكيري بأمر السفر إلى خالي وحتى لحظة ركوبي الطائرة.

طبعًا أختي لم تأت معنا هي وأولادها وزوجها فقد اعتذرت بسبب انشغال زوجها، سارة كذلك رأت أن الزيارة لخالي وأسرته عائلية، وأنه لا مكان لها فاعتذرت عن السفر معي رغم إلحاحي، بدر وبندر هما الوحيدان اللذان كانا ينتظران موعد السفر بفارغ الصبر، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يسافران فيها إلى خارج البلاد ويركبان طائرة، كما أن حنان خالي وعطفه الدائم عليهما أثناء زيارته لنا جعلهما يتعلقان به وهما اللذان فقدا الأب وعطفه وحنانه منذ أمد بعيد.

أقول أغمضت عيني وأنا أشعر براحة كبيرة ولذة عجيبة.

أشعر برغبة في الانطلاق والحب، أشعر بإقبال الربيع على حياتي، وأنا التي عشت الحياة حتى الآن خريفًا دون ربيع، أشعر باختصار وكأني عدت طفلة في حوش التاجوري، فتاة على أعتاب المراهقة تفتح ذراعيها للحياة لتَعُبّ منها سعادة، وكأن الحياة في نظرها ليست إلا موعدًا مع السعادة، والسعادة فقط بلا شقاء ولا عذاب ولا كدر، الغريب أنني أشعر بهذه الأحاسيس ولا شيء غيرها، لقد خلّفت ورائي كل أيام الشقاء والوحدة ولا أكاد أذكرها أبدًا، كل ما أذكر أنني مقبلة على الحياة، أنني أدخل حوش التاجوري بدخولي تركيا بلد أمي وخالي لأعيش حياتي من جديد، وكما أرغب وأشتهي.

في المطار استقبلني خالي، ضمني إلى صدره وكأنه يودع في هذه الضمة حبه وشوقه لأخته التي لم يرها منذ غادرت الأناضول إلى المدينة. التي شاء الله أن تصبح موطنها الثاني وإلى آخر يوم في حياتها، بدأ بعد ذلك يعرّفني على من معه في المطار، فهذه جلفدار ابنته وهؤلاء أولادها، وهذه وهذا، أقول لكم الحق، لم أكن أسمع ولا كلمة مما يقوله، كنت أنتظر أن يقول شيئًا آخر وأن أرى أمامي شخصًا آخر غير كل هؤلاء، ماذا؟، ألم يحضر لطفي وقبل أن أفكر كثيرًا رأيته أمامي رجلاً طويل القامة عريض المنكبين تبدو على محياه مسحة من الذكاء والمرح والاعتداد بالنفس، قال خالي. قبل أن يعرفني على القادم: لقد تأخرت.

تلعثم الشاب وأجاب: كنت أتكلم مع أحد أصدقائي العاملين هنا ليسهل أمر دخول ابنة عمتي مع حقائبها وإخوتها.

وعرفته، إنه لطفي، لا يمكن أن يكون غير لطفي.

فهذا هو صورة طبق الأصل عما رسمته في خيالي، نبرات صوته. قوة شخصيته البادية في كلامه وعلى تعابير وجهه، طبعًا شكلاً رأيته بالصور التي كانت مع خالي يوم زارنا، أما موضوعًا فقد رسمته بخيالي وها أنا أراه أمامي حقيقة واقعة، خيال لم يبعد عن الواقع أبدًا على ما يبدو.

هزني خالي وهو يقول: أين أنت يا رباب ألا تسلمين على لطفي ابن خالك؟.

ابتسمت وأنا أعود إلى الواقع وأمد يدي لتلتقي بيد لطفي، أمدها لأصافح لطفي، لأصافح الحياة والحب والربيع، ما هذا ألا أخجل وأنا أنساق مع إحساساتي بهذا الشكل، تصنعت الجد وأنا أقول كلمة واحدة حتى لا يفضحني صوتي.

قلت: أهلاً.

عندما ركبنا السيارة أصر خالي على أن أجلس في المقعد الأمامي وجلس هو وإخوتي اللذان كانا يعانقانه بين الحين والحين تعبيرًا عن فرحتهما بلقائه، كما جلست معهم في المقعد الخلفي زوجة ابن خالي الكبير محمود، أما زوجة ولده الآخر والتي كانت قد حضرت مع أولادها أيضًا إلى تركيا لتمضية الصيف فقد ركبت السيارة الأخرى التي كان يقودها سائق وسبقتها لتعلن عن وصولي لباقي أقارب أمي الذين حضروا لملاقاتنا وملأوا البيت فكلهم يريدون أن يتعرفوا على ابنة جلبهار، طبعًا عليّ أنا.

نسيت أن أقول إن الذي قاد السيارة التي ركبناها نحن كان لطفي، قادها بنفسه بينما تكومت

أنا على المقعد بجواره دون أن أقوى على رفع عيني إليه، ألم أقل لكم لقد عدت مراهقة من جديد؛ لا بل عدت امرأة من جديد.

ثرثرة خالي أثناء الطريق كانت مطمئنة وإن لم أفهم منها شيئًا، لقد كان يتحدث بالتركية، تمنيت عندها لو أنني تعلمت التركية من أمي، إنني لا أجيد سوى بضعة كلمات، وأنا الآن أرغب بتعلمها حتى لا تفوتني أي كلمة تقال أمامي، كان خالي يقول شيئًا يضحك أو يبتسم على أثره كل من لطفي وزوجة ولده التي ركبت معنا، كنت أسمع كلمة (جزال) تتردد كثيرًا وهذه إحدى الكلمات التي أعرف معناها، إنها تعني جميل، لطيف حلو، شيء من هذا القبيل، ترى أكان يصفني؟، ضحكت للفكرة ثم قلت لخالي بالإنجليزية وبدلال ظاهر: خالي، تكلم بالإنجليزية، أرجوك، أريد أن أفهم ما تقول.

قال خالي بهدوء: سوف تفهمين، سوف تفهمين كل شيء، ولكن لا تتعجلي الأمور.

سادت لحظات صمت كنت ألملم خلالها عيني عندما تلتقي بعيني لطفي، أتدرون لقد أحسست وكأنني أعرف هذا الشاب.

أعرفه منذ أمد طويل، طويل جدًا.

ترى هل هذا هو الحب من أول نظرة؟، ولكن ماذا عنه كيف رآني؟ وبماذا يفكر؟، إنه صامت، لو يقول شيئًا، أي شيء يجعلني أستنتج أنه فرح بلقائي، أنه أعجب بي، أنه.. أنه يبادلني الحب من أول نظرة، ولكنه، صامت، صامت كأبي الهول.

أمضينا أمسية يوم وصولي مع جميع الأقارب وتحدثت مع الجميع، وأجبت على الأسئلة الكثيرة التي وجهت إلَيّ عن بلدي وعن عائلتي وعن الحياة في بلدي وعن.. وعن، نعم تحدثت مع الجميع، إلا معه هو.

نسيت في غمرة أفكاري أن أقول إننا نزلنا في شقة ابن خالي الكبير محمود في استنبول، تلك الشقة التي اشتراها ليمضي فيها إجازة الصيف هو وأولاده، وكلما جاء من أمريكا، بالطبع في هذا الصيف لم يحضر لانشغاله ولكن زوجته وأولاده حضروا لوحدهم، ولقد اعتذرت لي زوجته نيابة عنه وأردفت قائلة: هو يبلغك تحياته ويعدك أن يرد لك الزيارة فيأتي في يوم من الأيام رأسًا من أمريكا إلى السعودية فيراكم ويكحل عينيه برؤية الأماكن المقدسة في نفس الوقت.

ابتسمت لها وأنا أقول: أرجو أن أراك أنت والأولاد معه.

أحاديث أخرى كثيرة جانبية ومن هذا النوع كانت تجرى بيني وبين الجميع إلا هو، أين هو مني؟، ألا يقول شيئًا؟، ألا يسألني؟، ألا.. ألا، وبدأ صدري ينقبض.

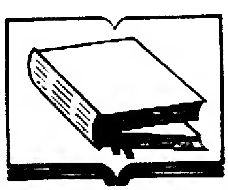
بعد أن انفض القوم من حولي وغادر الأقارب المنزل ولم يبق إلا أنا وأخواي وعائلة ابن خالي محمود و.. وهو، لطفي، وقبل أن ألبي طلب زوجة محمود بالذهاب معها لتريني غرفة نومي أنا وأخويّ.

سمعت صوته يرن بأذني وسط خيبة الأمل التي بدأت أشعر بها، كان يقول: هيا نامي جيدًا لتستعدّي للغد، إننا سوف نأخذك في جولة طويلة تزورين خلالها قصر توب كابي حيث ترين الآثار الإسلامية، وحتى تلك التي جلبت من بلدك، وترين أيضًا مسجد السلطان أحمد (المسجد الأزرق)، وقصر السلطان عبدالحميد، وسيكون غداؤنا في طرابيا المطلة على خليج رائع وعشاؤنا على ضوء القمر في...

لم أسمع بقية كلامه، فلقد كانت أفكاري مشتتة وعقلي غير قادر على الفهم وحتى الإدراك لمعاني ما يقوله.

أمضيت ليلة ساهرة ولم أنم جيدًا وعلى عكس ما طلب لطفي، لقد كنت أقلب الأمور من جميع الوجوه وأسأل نفسي: ترى ماذا يخبئ لي القدر؟، حتى إذا ما ضاع مني الجواب وضعت رأسي على مخدتي أحاول أن أنام وأن أترك كل شيء إلى الغد.. وغد لناظره قريب.

***





(٨)

أشياء كثيرة نحس بها وبجمالها وروعتها بل وفتنتها عندما نكون في قمة السعادة. في بيت خالي في جزيرة الأميرات والذي انتقلنا إليه بعد قضاء بضعة أيام في استنبول في شقة ابن خالي محمود، زرنا خلالها كل معالم استنبول واستمتعنا برؤية شمسها وروعة شواطئها وزرقة مياهها، زرنا الجزء القديم منها في آسيا حيث الدوائر الحكومية ومقر الشركات والأبنية القديمة التي تشهد على عظمتها وروعتها.

كما زرنا القسم الجديد، القسم الأوربي، بأبنيته ذات الطراز الأوروبي، والتي تعتبر مقر سكن معظم أولئك الذين يعملون في القسم الشرقي، هذا ويتصل القسم الشرقي بجسر معلق يقال إنه أكبر جسر في أوربا كلها أنجزته العقول والسواعد الألمانية واليابانية والتركية مجتمعة.

أما في جزيرة الأميرات حيث بيت خالي وحيث تحيط المياه بنا من كل جانب فقد استمتعت حقًا بالهدوء والسكينة، هناك لا تسير السيارات في أزقتها المرصوفة بل لا يزالون يستعملون العربات التي تجرها الجياد كوسيلة نقل.

وبين هذا وذاك وفي بيت خالي وبلده وبلد أمي التقيت بفجري العائد على أنغام الموج يمنحني القوة والصلابة لأن أعاود رحلة الحياة بأسلوب جديد وجميل.

في السنوات الماضية كنت أبحث عن السعادة لأسرتي كلها فردًا فردًا، أصنع لهم منها عقودًا من الياسمين، أما أنا فلم يكن نصيبي من عقود الياسمين هذه أو من السعادة التي أصنعها بنفسي إلا رؤيتي لهم جميعًا سعداء.

استيقظت على صوت عصافير الكناري وهى تغرد على الشجرة التي انحنت أغصانها حتى لامست شرفة الغرفة التي أنام فيها، بينما كان صوت خالي من الخارج يأتي مجلجلاً وهو يدق الباب ويقول: رباب هل استيقظت يا عزيزتي؟.

أجبت وأنا أقوم مسرعة لألبس الروب دي شامبر فوق قميص النوم، ثم أفتح الباب مرحبة: نعم، نعم أنا مستيقظة من بدري، من الفجر، وهل يستطيع أحد أن يغمض عينيه وينام وهو يشعر بهذا الجمال وبهذه السعادة.

قال بمرح وهو يدخل: يسرني أن أسمع أنك تستمتعين بأيامك معنا. ولكن حضرت إليك لأتحدث معك على انفراد.

فهمت ما يعنيه خالي فالأيام السابقة كانت شاهدة على بدء الانسجام بيني وبين لطفي، شخصيته تعجبني، وكذلك أفكاره وآراؤه التي كثيرًا ما كنت أراها مطابقة لأفكاري وآرائي عندما نتناقش بموضوع ما.

وبذلك أصبحت مستعدة نفسيًا لكلام على انفراد من خالي يقول فيه: لطفي يريدك زوجة له، هكذا وجدت نفسي أستبق الأحداث رغم أن خالي لم يفتح فمه بكلمة بعد.

جلس خالي على الكرسي الهزاز الموضوع بالقرب من السرير بينما جلست أنا قبالته على السرير كتلميذة تنتظر نتيجة الامتحان.

بدأ خالي كلامه بعد أن تنحنح فقال: رباب ما رأيك بلطفي ابني. قلت ـ أحاول أن أتصنع الثقل وأنا التي تنتظر بفارغ الصبر أن يكمل كلامه ويقول يريدك زوجة، هيا يا خالي هيا انطقها ولا تدعني هكذا معلقة، ولكن مع ذلك بدأت أمارس دور حواء (يتمنعن وهن الراغبات)، قلت ببطء وهدوء عجيب لا أعرف من أين جاءني: ماذا تعني يا خالي.

قال ـ وهو يتجاهل غبائي أو محاولتي لا بد وكذلك: لقد رأى صورتك معي قبل أن يراك شخصيًا ولقد تحدثت إليه عنك كثيرًا حتى إذا ما حضرت إلينا وأمضينا سويًا هذه الأيام الماضية وجد أن كلامي في محلّه بل وإنه أفصح لي ـ وهو المُضرِب عن الزواج ـ بأنه أعجب بك من أول نظرة، وزاد إعجابه حين عرفك عن قرب، وإنه يصر على سرعة الاقتران بك إذا ما وافقت.

فما رأيك؟.

وأخيرًا نطقها، أخيرًا سوف يتحقق حلمي، إن لطفي معجب بي كإعجابي به، ولكن لماذا لم يفصح لي عن ذلك بنفسه؟.

لماذا تركني بين مد وجَزْر، أرفض أن أترك العنان لعواطفي خوفًا من أن أصدم كما صدمت أول مرة في حوش التاجوري، كنت أخاف أن أجد في تركيا أحداث حوش التاجوري مرة أخرى، فهل يقدر لي أن أكون هكذا، كلما اقتربت من السعادة فلتت خيوطها وهربت مني، أفكار كانت تعربد داخلي حتى نطق أبوه، أبو لطفي، خالي، بتلك الكلمات القليلة، كنت تائهة وسط كل تلك الأفكار حين أعاد خالي السؤال عليّ قائلاً: ما رأيك؟ ما رأيك يا رباب؟.

أجبته بعد تكراره لتلك الكلمات بجملة واحدة تجيدها المرأة عندما تكون راغبة قلت: الرأي لك يا خالي.

قال الجملة التي انتظرت سماعها بعدما نطقت بهذه العبارة: إذن على خيرة الله، دعيني أرتب الأمر بمعرفتي فأنا اليوم ولي أمرك.

قلت مستدركة: ولكن ألا تأخذ رأي أختي ثريا وزوجها ورأي أخوي كذلك.

قال ضاحكًا: وهل تعتقدين أنني لم أفعل بعد؟.

قلت بسعادة: ماذا يا خالي إذن أنا آخر من يعلم.

أجاب بجدية: في مثل هذه الأمور لا بأس بذلك. ثم نظر إلى ساعته وخرج من غرفتي وهو يقول:

هيا نحن بانتظارك لنتناول طعام الإفطار.

قمت إلى الدولاب أنتقي فستانًا ولا أدري لِمَ امتدت يدي إلى ذلك الفستان الوردي، يظهر أن تفاؤلي وحبي للحياة انعكس على ذوقي، إنني على أي حال منذ وصولي إلى تركيا لم ألبس الألوان الغامقة الأسود والبني والرمادي، مطلقًا، تلك الألوان التي كان يعتقد الجميع أنني أحبها، وأنا أرتديها، هناك في جدة.

على مائدة الإفطار وجدت خالي ولطفي الذي سبقني أيضًا إليها والذي ما إن دخلت وقف مرحبًا وأشار إليّ أن أجلس على الكرسي المجاور له، إلا أن ما غاظني أنه انخرط مع أبيه في حديث بالتركية الشيء الذي جعلني أقول: اسمع يا لطفي إن لي شرطًا واحدًا للزواج بك.

انتفض لطفي وكأن أفعى لدغته، لا بد أنه أحس بطعنة توجه إليه، وممن؟ من تلك التي اختارها دون بنات الدنيا رفيقة لحياته، أهو الذي يقال له عندي شرط للزواج بك؟، وقبل أن أدعه يسترسل فيما استنتجت أنه يفكر فيه قلت بمرح: شَرطي أن تعلمني التركية حتى أفهم كل كلمة تتفوه بها ولو مع أبيك.

انفرجت أساريره عندئذ وعادت إليه البسمة وأجابني بمرح: شَرطك مقبول ولكن ما رأيك أن نتبادل مثل هذا الشرط، أنا أعلمك التركية وأنت تعلمينني العربية؟، أمسك دفة الحديث خالي هذه المرة وقال: إذن هيا لا تضيّعا الوقت، ما رأيكما أن نكمل إجراءات كتب الكتاب يوم الخميس القادم وبعدها تبدأ الدروس المكثفة حتى إذا ما غادرت يا رباب تركيا تكونا قد قطعتما شوطًا كبيرًا في هذا المجال؟.

وأضاف بعد أن قام ليغادر الغرفة: أما أنا فسوف أقوم لكي أبدأ بعمل الإجراءات المطلوبة من أجل كتب الكتاب.

أحسست وأنا جالسة مواجهة لطفي بأنني أنثى، شابة.

بل شعرت بما تشعر به الأنثى وهي على أبواب عرسها، فرح مع شيء من الاضطراب والخوف والسعادة والأمل أيضًا.

أمضيت يومًا حافلاً مع لطفي فقد أصر أن ننزل إلى استنبول لننتقي (دبل الخطوبة) وشبكة لي، في أسواق استنبول أعجبني كثيرًا السوق المغلق الذي بدا لي أشبه بسوق (جوه المدينة) الذي هدم لتصبح أرضه ضمن أروقة المسجد النبوي، كما تعلمت كلمتين مهمتين (كاشاي) ومعناها بكم هذا؟ ولقد ضحكنا طويلاً أنا ولطفي عندما كنت أحاول استعمالهما، لأني كنت أشير إلى البائع وأقول (كاشاي) فيرد عليّ ظنًّا منه بأنني أفهم التركية بجملة طويلة طويلة لا أفهم منها شيئًا ولا ينقذني من الموقف سوى تدخل لطفي ليكمل الحديث مع البائع عما نريد شراءه.

طبعا وجدتها فرصة سانحة لكي أشتري بعض الهدايا لأختي وأولادها، ولقد أصر لطفي على دفع ثمنها، شكرته وأنا أعي ما يرمز إليه بمثل هذا العمل وأكبرته فيه، لقد أصبح رَجُلي ووليّ أمري والكتف الذي أستند عليه في رحلة الحياة القادمة (وإلى آخر العمر. إن شاء الله) وجدتني أردد هذه العبارة بيني وبين نفسي، وأنا أشعر أن الدنيا بدأت تقبل عليّ وتبتسم لي، بل وتعطيني من السعادة أكثر مما كنت أتصور، أو مما كان يخطر على بالي.

ابتدأنا في اليوم التالي في تعلم اللغتين التركية والعربية، أنا أعطيه درسًا بالعربية وهو يعطيني درسًا بالتركية، أقول الحق لقد كانت أمتع دروس تلقيتها في حياتي.

وتم كتب الكتاب في موعده تمامًا كما حدد خالي.

مفاجأة أخرى كانت تنتظرني فقد أصر لطفي أن نتزوج وأن نمضي أيام عسل في تركيا قبل أن أغادرها إلى جدة، لا أدري.. الأيام تمضي مسرعة وإجازتي على وشك أن تنتهي، يا رب.. لماذا أيام السعادة هكذا تمر بسرعة، بسرعة عجيبة، تمر أسرع مما نتصور!، أمام إصرار لطفي ومباركة خالي وأخويّ الصغيرين ثم أختي وزوجها اللذين تحدثا معي بالتليفون. وافقت على إتمام الزواج قبل أن أعود إلى جدة، نزلت على رغبة الجميع. وأنا في قرارة نفسي لا أرى مانعًا يجعلنا نؤخر مثل هذا الأمر، طبعًا لم أكن أقول رأيي هذا الأحد وإنما تركت نفسي تقوله لنفسي.

على الشاطئ اللازوردي شمال استنبول في طرابيا أمضينا ثلاثة أيام عسل، طبعًا لا أدري كيف مرت، كان كل شيء على الشاطئ ولطفي يسبح كأمهر السباحين يذكّرني بأيام عمري

القادمة، ولا يدع لي فرصة للتفكير في الماضي، لم يعد حوش التاجوري في خيالي ذكرى لصدمة أليمة، بل عاد فرحة تعربد في صدري وتعيدني إلى أيام كنت أمرح وألهو فيه بكل ما في الطفولة والشباب من مرح وتفاؤل، كانت رمال الشاطئ وقاع البحر وكل شيء حولي نقيًّا صافيًا يجعلني أدعو الله أن يكون قلب زوجي لطفي هو أيضًا في مثل هذا الصفاء وتلك النقاوة.

وأصبحنا نتبادل الكلام تارة بالعربية التي بدأ يعرف بعض كلماتها وجملها، وتارة بالتركية التي بدأت أنا أيضًا أجيد بعض كلماتها وجُملها، طبعًا كنا نضحك كثيرًا عندما يخطئ أحدنا، وكان الجميع من حولنا يشاركوننا الضحك.

بدر وبندر كانا في قمة السعادة إذ كان الجميع يتنافس على تلبية طلباتهما. وأخذهما إلى هنا وهناك، طبعًا ليتركوا لي المجال كي أقضي معظم الوقت مع زوجي لطفي.

في إحدى المرات كنا نتحدث أنا ولطفي ونحن جلوس في حديقة بيت خالي في جزيرة الأميرات، طبعًا دار الحديث بالإنجليزية فلم نكن نجرؤ بعد على الحديث بالعربية أو التركية قلت: أتدري يا لطفي أن الجو هنا لطيف والنسيم عليل ربما سوف تفتقد كل هذا عندما تحضر وتعيش في جدة، فالجو في جدة حار، وأحيانًا يصاحب الحر رطوبة خانقة خصوصًا في أشهر الصيف.

قال ضاحكًا: ستلطّفين من حرارته بوجودك إلى جانبي وهذا يكفيني.

قلت هامسة وأنا في قمة السعادة: مجامل كبير.

قال: على العكس أنا إنسان لا يعرف المجاملة، إنني أقول ما أشعر به تمامًا، عندما رأيتك شعرت أنك بالفعل الإنسانة التي أرغب في تمضية بقية حياتي معها فتقدمت إليك على الفور وتزوجتك.

ابتسم ابتسامة عذبة وهو يكمل كلامه قائلاً: هل أبوح لك بسر؟

فتحت عيني على الآخر وأسرعت أتمتم: هيا أسرع قل ولا تدعني أنتظر.

قال بجدية: لقد رأيت الكثيرات في لندن وألمانيا وأمريكا وتركيا بلدي فلم تستهويني أي منهن، لم أعرف أن قدري أن أنتظر اليوم الذي أتعرف فيه على ابنة عمتي، لو كنت أدري أنك نصيبي لأتيت إليك ولو مشيًا على الأقدام.

ابتسمت بدلال وقلت: ولكن هل معقول أنه لم تعجبك امرأة ما في كل تلك البلاد؟ كنت أقولها بدلال الأنثى والتي تنتظر مزيدًا من الغزل والمديح إرضاء لكبريائها وأنوثتها.

مرت سحابة تفكير قطّب على أثرها جبهته ثم قال: في الواقع يا عزيزتي المرأة في أوروبا وأمريكا تناطح الرجل وتتسابق معه على جميع الأعمال وفي جميع المجالات، ولقد نسيت أنوثتها في غمار كل ذلك؛ فلا أصبحت رجلاً ولا بقيت امرأة، بل كما كنت أصفها لأصدقائي، المرأة هناك شبه امرأة، وأنا عندما أتزوج أريد امرأة كاملة.

قلت ـ وأنا ممعنة في دلالي: وأنا تلك المرأة الكاملة، أليس كذلك يا عزيزي لطفي؟. وضح الأمر لزوجي لطفي وتبين له أنني (أسوق الدلال عليه)، فقال مازحًا: ها.. ماذا هناك يا حواء، أتختبرين حبي لك؟. أتريدين أن أقول فيك شعرًا أو أحارب من أجلك على طريقة عنترة بن شداد، ولا يهمك أنا مستعد، هيا قولي.. ماذا ترغبين يا حبي، ما عليك إلا أن تقولي حتى أقوم بتنفيذ كل طلباتك.

ضحكنا سويًا ونحن ندخل البيت فقد أصبح الليل على الأبواب والجلوس في الحديقة وبين الورود والياسمين وحديث لطفي العذب يجعلني دائمًا أنسى نفسي وأنسى المكان والزمان.

فكرت في كل الذي قاله لي لطفي وأنا أستعد للنوم وشعرت بأن حياتي مع هذا الرجل ستكون رائعة، رائعة.

حقًّا إن الحياة حلوة، ووجدتني أفكر بحوش التاجوري مرة أخرى، إنني الآن أشعر بأن الحياة حلوة تمامًا كما كنت أشعر وأنا طفلة أعيش في حوش التاجوري، حوش التاجوري، قد تتلاقى القلوب وقد تفترق، لكنها عندما تتلاقى تصفو الحياة ويحس الإنسان بالاطمئنان وهو يتسلل إلى أعماق نفسه بهدوء لذيذ، إنني الآن أحس بهذا الاطمئنان.

أحس به إلى جانب لطفي الذي أكتشف فيه كل يوم شيئًا جديدًا يضيف إلى حسناته حسنات جديدة.

وجاء موعد سفري إلى جدة، جرت مراسم الوداع صامتة حزينة رغم أنني كنت قد اتفقت مع زوجي لطفي أن يلحق بي إلى جدة بسرعة وبمجرد أن ينهي بعض الأمور الخاصة به.

أقول: جرت مراسم الوداع صامتة حزينة عبّر عنها لطفي بقلق لم يستطع إخفاءه، وعبرت أنا عنها بدموع مسحتها قبل أن يلحظها أحد.

مسحتها وأنا أتجه إلى الطائرة ولسان حالي يقول: ليتك يا لطفي معي حتى أتجنب هذا الحزن الذي أشعر به.

أريد أن أقول للحزن وداعًا إلى الأبد وأن أفتح ذراعي للسعادة والفرح والمرح، أريد أن أشعر وكأني أدخل حوش التاجوري مرة أخرى.

أدخل إليه سعيدة مرحة فرحة تمامًا كيوم كنت أعيش فيه وأنا طفلة.

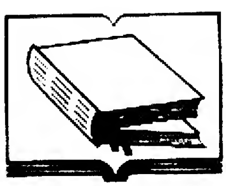
في الطائرة أسندت رأسي على جانب الطائرة أنظر من النافذة وأفكر بقلبي الذي تركته هناك في تركيا.

مع إنسان انتظرته طويلاً حتى إذا ما ألقته المقادير في طريقي وجب علَيّ أن أشكر الله - جل وعلا - فهو مقلّب القلوب وهو وحده - عز وجل - القادر على منح السعادة للناس؛ كل الناس، أشكرك يا رب، وشعرت وكأن الله يكافئني على عمل طيب عملته في أيامي الماضية.

فالعمل الطيب لا بد وأن يثمر عملاً طيبًا مثله إن لم يكن أحسن منه، وأنا على ما يظهر كوفئت على أعمالي بحب كبير.

حب ملأ علَيّ حياتي وسوف يبقى كذلك إلى آخر العمر، حب سيرافقه أسرة وبيت وأطفال يملؤونه حيوية وسعادة.

***





(٩)

كثيرًا ما انتابتني الشكوك وهزت من قناعتي في قدرتي على الزواج والاستمرار فيه على اعتبار أن السنوات التي مرت بي وظروف حياتي ومشكلاتها وإشرافي الدائم على أُسرتي - قد يحد من هذه القدرة ولا يمنحها طريق الأمل الذي بدأ يداعب جفني طوال تلك الأيام والليالي التي عرفت فيها لطفي عن كثب.

فارق البيئة التي عاش لطفي فيها والبيئة التي عشت أنا فيها؛ حياته الماضية عندما كان يدرس في ألمانيا، ثم عندما التحق بعمل في إحدى مستشفيات فرانكفورت فيها، إضرابه عن الزواج حتى شارف على الأربعين من عمره، كل هذا أيضًا بعث في قلبي ونفسي الشك في يوم من الأيام.

الشك والخوف من أن لا ننسجم أو أن لا نستطيع أن نكمل رحلة الحياة معًا.

لطفي بطبيعة الحال حاول أن يحدثني عن أيامه في ألمانيا، وأن يعترف لي بكل ما مر به من أوضاع وظروف، لكنني كنت أطلب منه دومًا أن يصمت وأن يحتفظ بكل تفاصيلها لنفسه، كنت أريده أن يبتعد عن الماضي.

أن ينساه، لأنني أنا نفسي أريد أن أنسى بعض الماضي الذي عشته في حوش التاجوري.

لا أريد أن أتذكره ولا أريد أن أحدثه عنه، فقصة تعلقي بفريد لم يعد لها وجود، وبذلك فأنا لا أجد معنى لأن أحدثه عنها.

كذلك الحال معه فهو بمجرد أن قرر واختارني شريكة لحياته فإن معنى ذلك أنه وضع حدًّا لماضٍ لا يريد أن يعيش فيه، وتطلع إلى حاضر ومستقبل أكون أنا عنوانه والجزء الهام فيه وهو إحساسي وشعوري وتفكيري.

كنت متحمسة جدًّا لمثل هذه الفكرة ولكنني في إحدى المرات وبعد أن أجهدت فكري وجدت أن من المناسب أن أخبر لطفي بقصتي مع فريد.

وهناك وعلى كرسي صغير تحت شجرة الليمون الكبيرة جلست وجلس لطفي في مواجهتي يوم وجدت في نفسي الشجاعة والميل لأن أحكي له، نعم أحكي له عن فريد، قلت بعد تردد: لطفي أريد أن أحدثك ببعض التفاصيل عن حياتي الماضية، ضحك وقال مداعبًا: ولكنني لا أرغب في سماعها.

سألت عندئذ بجدية: ولكن لماذا؟.

أجاب بمرح وابتسامة تضيء وجهه: واحدة بواحدة.

أنت ترفضين أن تستمعي إلى أي شيء عن ماضي حياتي وأنا كذلك.

قلت: ولكني امرأة وأنت الرجل؛ والمرأة عادة لا تطلب من الرجل سوى أن تكون محور اهتمامه وآخر من يعرف في حياته، وأنا حقًّا يكفيني صدقك معي منذ الآن وإلى بقية أيام حياتنا معًا حتى تصبح حياتي سعادة في سعادة.

قال: ولكن ما الفرق بين المرأة والرجل، ثم إنني أريد أن أطمئنك فأنا لم يكن في حياتي امرأة قبلك، ولن يكون فيها امرأة بعدك، فأنا أحبك، أحبك و...

قاطعته لأقول: ولكني أصر على أن أحدثك عن طفولتي وحياتي الماضية.

قال: ما دمت مصرّة فلا بأس، هاتي ما عندك وها أنا كلي آذان صاغية.

وطفقت أتحدث إليه عن كل شيء أتذكره عن حياتي.

حدثته عن يوم مولدي في المدينة المنورة كما وصفه لي أبي.

وحدثته عن كل ما مر بي وحتى تلك اللحظة التي كنت أجلس فيها معه.

لم أُخْفِ عنه حبي وتعلقي بفريد في مطلع شبابي، ثم الملابسات التي مرت بهذا الحب.

وزواج أختي من فريد. ذلك الزواج الذي كان متفقًا عليه بين أبي وأبيه دون أن أعلم. أنا الصغيرة في ذلك الوقت على مثل هذه المواضيع. كما أجابت جدّتي عندما سألتها: لماذا لم يخبرني أحد بذلك الاتفاق؟.

ووضحت له أنني منذ يومها طويت حبي في صدري وأغلقت عليه قفلاً بحيث لا يدري به أحد ولا يسمع عنه أحد، بل ولا أتحدث به ولا حتى إلى نفسي، فقد عرفت أن علَيّ أن أضحّي من أجل أختي وسعادتها، وطبعًا بعد كل ذلك تبين لنا بل ولأختي بالذات أن فريدًا لم يكن رجلاً بمعنى الكلمة، باختصار حصل بينهما طلاق كان لا بد منه، لا أدري لم اندفعت أقول لحبي لطفي كل ذلك.

ربما لأنه ليس في حياتي ما يجعلني أخجل من أن أحدثه عنه، فحياتي واضحة وخط سيري فيها هو الآخر واضح وصريح، وتجربة الحب تلك كانت. والآن أقولها وأنا مقتنعة تمامًا. من نسج خيالي، فلم يكن فريد هو فريد الذي رسمت شخصيته في خيالي، ولم تكن تصرفاته غير

المسؤولة، والتي لا تدل على الرجولة التي اعتقدتها فيه هي التصرفات التي يمكن أن أعجب بها بأي حال من الأحوال.

استمع لطفي إلى كل ما كنت أقوله بكل جوارحه ثم قال بصوت ملؤه العطف والحنان. ذلك العطف والحنان الذي كنت أمنحه لكل من حولي وأتوق أنا إليه شخصياً. قال: يزيدني كل ما قلت تمسكاً بك وحباً لك، صداقتك تجعلني أتأكد من أننا نبني حياتنا معًا على أساس متين.

ثم أردف قائلاً بمرحه المعهود: والآن جاء دوري، جاء دوري لأن أقول لك كل تفاصيل حياتي الماضية.

وضعت يدي على فمه في محاولة مني لكي أمنعه من الكلام وقلت مقاطعة إياه ومحتجة عليه: أفهمتك من البداية أنني لا أريد أن أسمع شيئًا عن حياتك الماضية، فالمرأة يا عزيزي تحب أن تكون دائمًا الأخيرة في حياة زوجها، بغض النظر عن كل الظروف والأحوال، وعلى أي حال فإذا كان لا بد وأن تتكلم فليس الآن على الأقل.

قال: حسنًا ولكن على شرط أن تستمعي إلَيّ في جلسة قادمة كهذه.

فحياتنا القادمة وسعادتنا في رأيي تأبي إلا أن يتعرف كل منا على ماضي الآخر. وأردف قائلاً بجدية: وعلى أي حال ليس في حياتي الماضية ما يشين فأنا مثلك لكن هناك أشياء صغيرة لا بد وأن تعرفيها.

قلت محاولة إنهاء الكلام في هذا الموضوع: لا بأس، لا بأس ولكن ليس الآن.

ودخلنا إلى المنزل فقد بدأ الليل يزحف ويرخي سدوله على الحديقة، وكانوا من الداخل يستعجلوننا لأن موعد العشاء قد أزف.

أمضيت بعد ذلك العشاء أمسية سعيدة وسعيدة جدًا فقد كنت أشبه بطفلة صغيرة حكت لأمها عن أشياء يزعجها كتمانها، ربما لأنها كانت تخاف عقابًا من نوع ما على ما تخفيه، فابتسمت تلك الأم وهدهدتها وأفهمتها أن ما تكتمه لا يدعو أبدًا إلى أن تنزعج منه كل ذلك الانزعاج، فهو لا يمثل في نظرها شيئًا مُهمًّا.

حتى خالي في تلك الليلة لاحظ الفرحة والبشر اللذين كانا يعلوان وجهي، لاحظ ذلك وسألني وهو يبتسم عما يفرحني إلى ذلك الحد الذي يجعلني أشرد بذهني بعيد وأنا على مائدة العشاء.

حاولت أن أسرد عليه بعض ما قلته لخطيبي لطفي، وكنا آنذاك لم نتزوج بعد، إلا أن ابتسامته بدأت تكبر وتكبر وأنا أبدأ الحديث إلى أن أصبحت ضحكة عالية صافية مما جعلني أصمت قليلاً وأنا في حيرة مما يجعله يضحك، لم تطل حيرتي كثيرًا لأنه أخبرني أنه يعرف تفاصيل حياتي كلها بل وحياة أسرتنا بحالها وحتى زواج سارة من أبي، ثم زواجها من سامر وطلاقها منه... إلخ

دهشت وأنا أقول له: ولكن لم تقل لي إنك تعرف شيئًا من هذا القبيل عن حياتنا، ثم إنك لم تقل شيئًا حتى لولدك لطفي.

عادت الابتسامة تزين وجه خالي وهو يقول: رباب، يا ابنتي تأكدي أن الأمور تسير على ما يرام، ولن يكون هناك. إن شاء الله. ما ينغص عليك حياتك بعد اليوم وسوف تسعدين تمامًا كما سعدت أمك يوم تزوجت من أبيك.

ابني لطفي يحبك كثيرًا، بل أكثر مما تتصورين وإلا فلم يكن هناك ما يجبره على الاقتران بك، لقد رجوته مرارًا وتكرارًا أن ينهي حياة العزوبية ويتزوج ولكنه لم يأبه لكلامي، إلى أن ظهرتِ أنت في حياته، عندها لم يكن بي حاجة لأن أتكلم كثيرًا وأعيد مواعظي السابقة من أنه يجب أن يتزوج وأن يكون له بيت وأسرة.

وصدقيني لو لم يقتنع بك لما أقدم على الزواج منك أبدًا.

حمدت الله كثيرًا يومها، الأيام التالية أثبتت صدق خالي وصدق إحساساتي وتوقعاتي، كان كل يوم ينقضي أزداد فيه اقتناعًا وإعجابًا بلطفي ويزداد هو حبًّا وتعلقًا بي.

حقًّا إنني دخلت خانة المحظوظات من بنات حواء، ربما ساق القدر خالي ليأتي إلينا لتأدية فريضة الحج ثم ليرانا فيجلب لي معه السعادة التي كنت أفتقدها بل وأتطلع إليها بين الحين والحين وكأنها بعيدة المنال.

نعم تخيلتها في يوم من الأيام بعيدة بعد السماء عن الأرض، ولكن الله كريم غمرني بفضله، أشكرك يا إلهي، الحمد والشكر لك يا إلهي.

ينطق بها لساني وقلبي وكل خلجة ونبض يسري في عروقي.

طبعًا لا توجد هناك حاجة لأن أقول إن خالي عرف كل شيء عن حياتي من أختي والتي أخبرته أيضًا بقصتها مع فريد وأنها تعزو عزوفي عن الزواج وانصرافي عنه إلى انهيار زواجها هي

وصدمتها هي التي عاصرتها وأنا صغيرة، قالت ذلك له، عندما سألها لماذا لا تتزوج رباب وهي جميلة ومثقفة ومن أسرة محترمة؟، طبعًا أختي لم تعرف أبدًا أن عزوفي أنا عن الزواج كان سببه صدمتي أنا في فريد وليس صدمتها هي، ولقد حمدت الله كثيرًا على فهم أختي الأمر على هذه الصورة.

صور كثيرة راودت مخيلتي وأنا أعايش الفرحة في الطائرة وعندما نظرت من نافذة الطائرة وسمعت عجلاتها تضرب الأرض بنعومة تدل على مهارة كابتن الطائرة السعودي.

لا أدري لماذا تذكرت أمي وأنا أغادر الطائرة مع أخويّ بدر وبندر، ربما لأنها عاشت سنوات حياتها دون أن تسمح لها الفرصة للسفر وزيارة أهلها، حياتها في تلك الحقبة من الزمن وقبل التطور والحضارة التي وصلنا إليها بفضل الله، والتي لم تكن في زمان أمّي على هذه الحال. كانت مسؤولة إلى حد بعيد عن عدم ذهابها مع والدي في زيارة إلى بلدها تركيا مسقط رأسها.

أما وموظف الجوازات يرحب بي وأنا أقدم له جوازات السفر الخاصة بي وبإخواني فقد كنت أتذكر تلك المناقشة التي جرت بيني وبين لطفي قبل عدة أيام من زواجنا ،أي في أيام خطبتنا القصيرة.

قال يومها: أستطيع أن أقرأ ما يدور بخلدك، إنك تتساءلين عما إذا كنت أرغب فعلاً في المجيء إلى جدة والاستقرار فيها.

وعما إذا كان هذا الاستقرار مؤقتًا وأنني في يوم من الأيام سوف أطلب منك أن نعود لنعيش هنا في تركيا.

قلت بلهفة: نعم هذا ما يقض مضجعي قليلاً.

قاطعني وهو يقول: قليلاً أو كثيرًا، لا داعي للقلق أبدًا، أحب أن أطمئنك أنني قررت أن أمضي بقية حياتي على أرضك، وهذا الأمر ليس نابعًا من حبي لك فقط، وإنما جاء بعد تفكير وتفكير، ففي بلدكم من الاستقرار والازدهار ما هو مطلوب ومرغوب من قبل أي إنسان كان، عندكم سوف أكون مطمئنًا على حياة أبنائي وبناتي، فأنا أرغب في أن يشبوا في تلك البيئة المسلمة التي تحمل الخير لهم وتبعدهم عن شرور وآثام المجتمعات المفتوحة والتي عشت فيها في أمريكا وأوربا، ثم من تسنح له الفرصة لكي يعيش بالقرب من الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة ويرفض؟.

شكرته بعيني اللتين كان يملؤهما الامتنان ودون أن أفتح فِيّ بكلمة واحدة، وازداد حينها

إحساسي بحبه، ولقد بارك خالي فكرة لطفي من حيث الاستقرار نهائياً بجدة وقال: نِعم الرأي يا ولدي فأنت محظوظ، كنت أتمنى أنا نفسي لو أستطيع أن أعيش هناك بقية عمري، على بركة الله، ولكن لا تنقطعا عنّا مثلما فعلت أمك يا رباب، اكتبا لنا باستمرار ثم دعونا نراكما بين الحين و الحين في الإجازات وكلما سنحت لكما الفرصة.

ضحكنا لكلام خالي وشعرت بكثير من الأمان والاطمئنان ثم استلمت دفة الحديث لأقول: خالي تأكد أنه سوف يكون لك بيتان، بيت في تركيا أو في أمريكا إذا كنت لا تزال تريد أن تعيش مع أولادك هناك، وبيت في جدة تأتي إليه وقتما تشاء وكلما اشتقت إلينا وإلى زيارة الأماكن المقدسة.

لقد أثلج صدري أن تأتي الرياح كما تشتهي السفن، لا كما يقول بيت الشعر المشهور.

وأنا اليوم أسعد مخلوقة على ظهر الأرض، أتدرون، وقدماي تطأ الأرض السعودية؛ أرض بلادي بدأت أحس بحبي وشوقي لزوجي لطفي، بدأت أفتقده، كيف لا أفتقده وقد أصبح حياتي وسعادتي وكل شيء بالنسبة لي؟.

وتمنيت أن يلحق بي في أقرب فرصة ممكنة.

***

الأخيـر

عندما أنهيت معاملات جوازات السفر لي ولأخويّ بدر وبندر وإجراءات الجمارك وسط ابتسامات وترحيب موظفي مطار الملك عبدالعزيز الدولي وقولهم: أهلاً ومرحبًا، وخرجت من باب الخروج الخاص بقاعة الجمارك لأواجه بأختي وزوجها وأولادها الذين جاءوا ليكونوا في استقبالنا في المطار، أقول الحق: لم أعرف مدى اشتياقي لأختي إلا حين وقعت عيني عليها، كذلك لم أعرف مدى حبي وحنيني إلى بلدي بشكل عام وإلى جدة بشكل خاص إلا وأنا أراها في الليل من الطائرة عندما كان يحدثنا المضيف بأننا نطير فوق مدينة جدة وأننا على وشك الهبوط في المطار.

جدة في الليل بأنوارها المتلألئة تبدو كثريات من النجوم تناثرت فوق أديم الأرض تمنح موج البحر ألوانًا أشبه بلوحة سريالية، جدة؛ هذه المدينة أعشقها من كل قلبي بعد طيبة الطيبة، ربما لأنني أمضيت فيها معظم سنوات عمري، وربما لأنها المدينة التي تحنو على جميع سكانها فتمنحهم بحدائقها العامة وشواطئ بحرها الساحرة حياة حلوة سعيدة، ولقد التقيت بمنظرها الرائع في الليل وأنا على علو شاهق في تلك الطائرة التي أقلّتني وأخويّ من استنبول إليها.

في جدة تتداخل أشعة القمر الحانية مع اردية النجوم التي انتثرت في كل مكان من سمائها الصافية الزرقة لتعطي لياليها تلك النكهة التي تميزت بها عروس البحر الأحمر وهي تنضو عن جسدها ثيابها الثقيلة لتختار ثيابًا شفافة رقيقة تمنحها القدرة على العَدْو مع إشراقة الفجر وكأنها تستقبل شلالات غدائر الشمس في حرية وحب وحنان.

لا تسألوني لِمَ أقول كل هذا عن جدة مدينتي الحبيبة، فلقد أصبحت رومانسية بعد حبي الذي قابلته في تركيا، رومانسية وعاطفية لدرجة جعلتني أحس بأن الحياة كلها نغم حلو وأنشودة حب تستحق أن يعيشها الإنسان وينعم في ظلالها.

استقبلت الأمسية الحائرة في ليل عروس البحر الأحمر في الطائرة ونزلت بعدها لأخرج من المطار وألتقي من بعيد بوجه أختي المتلهفة على ما يبدو للقائي وكان معها ـ كما قلت ـ زوجها وأولادها

كان كل شيء في مطار الملك عبدالعزيز الدولي يضج بالحركة حين أخذ ركاب الطائرة ينسلون إلى الأبواب الرئيسية وكلهم حيوية وعشق للمدينة التي سوف تحتضنهم وتحنو عليهم كالأُم الرؤوم، وهذه حقيقة واقعة يشهد بها كل مواطن وكل مقيم فيها وحتى كل زائر.

بدأت أختي التي كانت تقف في ركن بعيد تهرول إلى لقائي، يتبعها زوجها ويسبقها أولادها الذين أخذوا يتراكضون ويتدافعون حولي وهم يقولون: خالة رباب، خالة رباب وصلت.

استقبلتني أختي بالأحضان، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة رضية شعرت خلالها وكأن أمي هي التي تستقبلني، أمسكت بيد أختي وكأني أطبق على الدنيا كلها، فأنا أحب أختي.. أحبها جدًا ولا أستطيع أن أنأى عنها كثيرًا.

قالت في ود ونحن نغادر المطار بسيارة زوجها الدكتور خالد والذي استقبلني بابتسامته الصافية وقال جملة واحدة: الحمد لله على السلامة ومبروك. وانسحب على أثرها وبعد أن شكرته ليأخذ الحقائب إلى السيارة وليتركني مع أختي فهو يعرف أن هناك أشياء كثيرة نود أن نقولها لبعضنا.

المهم، قالت أختي: شغلتك عنا تركيا أو هل أقول أهل تركيا؟ ابتسمت وأنا أفهم ما ترمي إليه وأؤكده: (بل شغلني إنسان واحد عن الدنيا كلها.) قلتها بفخر وكأني أزهو بهذا الذي شغلني.

نظرت أختي إلَيّ نظرة حانية ثم قالت: هل وصلتك برقية التهنئة؟.

قلت: نعم حملها خالي إلَيّ صبيحة يوم زفافنا، ولكن لماذا أرسلتم برقية مع أننا تكلمنا طويلاً على التليفون قبلها، وباركت لي أنت وزوجك في تلك المكالمة الطويلة؟.

قالت: خالد أصر أن يرسل البرقية لتصبح التهنئة رسمية، ولكي تحتفظي بالبرقية كذكرى جميلة ليوم جميل سعيد.

أجبت وأنا أبتسم بمرح: نعم، نعم إنني أحتفظ بها، ولكن الآن دعينا من أخباري، فأنا أعتقد أنني قلت لك كل شيء بالتليفون، كيف تم لقائي مع لطفي ثم كيف كان اتفاقنا على الزواج، ثم مراسيم الخطبة وكتب الكتاب ورحلة شهر العسل التي لم تستغرق سوى أيام لضيق الوقت.. إلخ.

قالت أختي تقاطعني: نعم، قلت لي كل شيء بالتليفون، ولكني الآن أريد أن أسمعه منك شخصيًا.

قلت: إذن دعي الأمر للغد وسوف تكون لنا جلسة طويلة أحكي لك فيها أدق التفاصيل.

سادت لحظات صمت قطعتها أنا لأقول للدكتور خالد: ما أخبار المستشفى والعمل والزملاء والزميلات؟.

أجاب: كلهم بخير ويرسلون تحياتهم وتهنئتهم لك، فلقد أخبرت الجميع بزواجك (وفرقت الشربات عليهم) على حد تعبير إخواننا المصريين.

عندها قالت أختي: هل تعلمين أن فريدًا يرقد في المستشفى وفي حالة خطيرة.

انتفضت كعصفور بلّله المطر وقلت مذعورة: كيف ولماذا؟.

أمسك عندها الدكتور خالد دفة الحديث وقال: كالعادة لم يقلع عن تعاطي ذلك السم (الهيروويين) والذي نهيناه عنه يوم دخل المستشفى في المرة السابقة رغم أنه وعد بأن يقلع عن تعاطيه، وها هو الآن يرقد في المستشفى إنسان محطم لا حول ولا قوة له، بل كما قالت أختك، وفي الواقع أنه يحتضر.

سألت: من هو الطبيب الذي يشرف على علاجه؟.

أجاب بهدوء: أنا.

قلت: رائع أنت يا دكتور خالد، فأنت تعرف أنه كان في يوم من الأيام.

قاطعني ليقول: أنا لا أتذكر شيئًا أمام الواجب الذي أجده ملقى على عاتقي.

قلت مرة أخرى: رائع، رائع أنت يا خالد. قال: وستكونين أنت أكثر روعة لو أنك وافقت على طلبه.

قلت مستنكرة: وماذا يطلب مني هذا الإنسان النذل، قال: لا تنفعلي، ألم نَقُل إنك نسيت الماضي، وعلى أي حال هو لا يطلب شيئًا، إنه فقط يريد أن يراك.

(ولماذا؟؟) سألت بحدّة ولؤم.

قال زوج أختي: لا أدري. وأضاف: لقد طلب منى أن أرجوك لكي تقومي بزيارته، وهو يقول: إنه يريدك، إنه يريدك في أمر هام.

قلت بانفعال ظاهر: إذا كنت ترى أنه لا بد من هذه الزيارة، فغدًا ـ إن شاء الله نذهب أنا وأنت وسارة أخته إليه.

قال خالد: ولكنه لا يريد أن يرى سارة، إنه يريد أن يراك أنت شخصيًا هذه المرة.

صدقوني لقد خفت من هذا الطلب وأخذت أضرب أخماسًا في أسداس، ولكن زوج أختي الذي لاحظ اضطرابي وخوفي وحيرتي قال: لا تخافي، لن تصابي بمكروه، فهو كما قلت لك يرقد في المستشفى لا حول ولا قوة له.

نظرت إليه وإلى أختي فرأيتهما يتبادلان الابتسام وكأنهما قد تعاونا علَيّ فاستسلمت عندئذ وقلت:

لا بأس سأذهب لزيارته. قلت ذلك وأنا أعود بذاكرتي إلى حوش التاجوري وإلى التمتمة بأغنية لا يزال صداها عالقًا في ذاكرتي من دنيا الطفولة، من حياتي في حوش التاجوري، لو كان فريد رجلاً بمعنى الكلمة لوفّر عليّ وعلى نفسه وعلى أختي عذاب أن يخضع لرغبة أبيه دون مناقشة ولا محاولة لإقناعه أنه بالإقدام على مثل هذا العمل، أي على الزواج من أختي فإنه سوف يحطّم أكثر من شخص، الشيء الذي حصل، خلافاته مع أختي بعد زواجها بالتأكيد لم تكن كلها لأنه أراد في يوم من الأيام أن يقترن بي أنا، فتلك أحلام قد ينساها الإنسان، والرجل بصفة خاصة في مراحل حياته التالية، وعندما تأخذه دوامة العمل، ألم تثبت التجارب أن الرجل بالنسبة للمرأة التي تحبه يشكل كل شيء في حياتها في حين أنها تشكل جزءًا من حياته؟ المهم أنه المسؤول عما حدث بينه وبين أختي، هو بشخصيته المهزوزة الضعيفة والتي استمرت تطفو على السطح لتجعل منه إنسانًا فاشلاً، وتجعل من حياة أختي معه جحيمًا لا يطاق، وها هو الآن يجني ثمار شخصيته الضعيفة تلك واستهتاره فيما بعد، ليرقد محطمًا في المستشفى.

لم أهدأ طوال ليلة وصولي إلى جدة، فقد كان لطفي يحتل الحيز الأكبر من تفكيري، وإن كان فريد يطل بين الفينة والفينة للحظات هو الآخر، ولقد فكرت فيما يمكن أن يريده مني فريد ولكني لم أفلح في معرفته فتركت الأمر إلى الصباح.

ذهبت في صباح اليوم التالي إلى المستشفى فاستقبلني الزملاء والزميلات وجميع العاملين هناك بالترحاب، وكل واحد منهم يهنئني بطريقته الخاصة، بعضهم ملأ مكتبي بباقات الورد الأبيض والزهري، وبعضهم شد على يدي مهنئًا، أما الزميلات فتلقيت منهن قبلات حارة، الكل فأينما ذهبت أو مشيت في المستشفى أجد من يقول: مبروك يا دكتورة رباب بالرفاء والبنين. شكرت الجميع على عواطفهم الجياشة تجاهي والتي تدل على مدى تعلقهم بي وتعلقي أنا بهم، ولا عجب في ذلك فهي عِشرة عُمر - كما يقولون - خصوصًا وأن عالمي كان منحصرًا في عملي وزملاء وزميلات عملي، لم تسنح لي الفرصة لأن أصبح على انفراد وأفكر بطلب فريد الذي وعدت زوج أختي بتلبيته إلا بعد ساعتين أو ثلاث من وصولي، لا أدري ربما كنت أن أؤجل تلبية ذلك الطلب لسبب أو لآخر، المهم في الساعة العاشرة والنصف توجهت إلى غرفته بعد أن اطّلعت على ملفه، من ملفّه عرفت أن حالته خطيرة بالفعل، وأنه يتأرجح بين الحياة والموت، بل هو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، الأمر الذي جعلني أسرع إلى غرفته، لا أكتمكم أني كنت أشعر وأنا متجهة إلى

غرفته بالإشفاق عليه ولا شيء غير الإشفاق، نعم كنت مشفقة عليه وأتمنى على الله ومن كل قلبي أن يمن عليه بالشفاء وهو القادر على كل شيء (يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ).

ما إن فتحت باب الغرفة ورأيته ممددًا على السرير حتى تجسد الماضي كله أمام عيني، حياتنا في حوش التاجوري، بيت سارة وفريد الذي لم يكن يبعد عن بيتنا كثيرًا.

أصدقاء الأمس وزملائي وأحبابي في الكُتّاب، كل مكان أعرفه في بلدي طيبة الطيبة بدأ يظهر أمام ناظري لثوان قصار تؤكد حقيقة وجوده في حياتي، إلا شيء واحد هو إعجابي وولهي بفريد في تلك الفترة، فترة آخر الطفولة وبداية مرحلة الشباب والمراهقة، رحت أتمتم بيني وبين نفسي: لكم يتغير الإنسان، لكم تغيره الأحداث ويعيد تشكيله الزمان على ضوء تجارب تمر به على مدى السنين والأيام التالية من حياته؟!.

أحسست أيضًا بأن أيام العمر تمضي سراعًا، وأن الإنسان العاقل هو الذي يعرف كيف يتكيف وفق الظروف ليعيش حياة سعيدة بعيدة عن الشقاء والكدر، إن الحياة التي نحاول القفز عليها لا يمكن أن تمضي وتذهب هكذا دون أن نشعر أو نحس، وإلا نكون من الزمرة التي لا تعرف كيف تستمتع بحياتها؛ أغلى ما وهبه الله لنا.

عندما دخلت غرفة فريد أحسست بإشراقة تظهر على وجهه الذي تعلوه صفرة واضحة، مد يده الكليلة وكأنه يريد أن يضع يده في يدي، لكنني تجاهلت يده الممدودة، وقلت وكأني لم أر حركة يده: ها ما الأمر؟ يبدو أنك تسوق الدلال على أختك سارة ومن يعرفك.

أشرق وجهه لدعابتي هذه وقال: أبدًا والله، إنني حقًّا أشعر بوهن كبير في جسمي، وعلى كل حال اتركي موضوع صحتي ودعينا نتكلم عنك.

(عني؟) تساءلت مذعورة.

(نعم عنك، أريد أن أهنئك على زواجك، لا بد أنه رجل رائع جذاب ذلك الذي استطاع أن يقنعك به وبشخصيته حتى قبلت به زوجًا لك)، أجاب بصوت يبدو عليه التحسر والمرارة.

قلت، ونبرات الدهشة تعلو صوتي: أشكر لك تهنئتك هذه، لكن كيف عرفت؟.

قال بهمس وكأنه يُفضي إِلَيّ بسر كبير: لا أكتمك القول، إنني أتابع أخبارك.

قلت وأنا أحاول أن أبدو طبيعية: تعني أن أختك سارة أخبرتك بنبأ زواجي؟ قاطعني ليقول: وماذا في الأمر إذا هي فعلت؟ إنها تحبني وهي تحبك أيضًا.

صمت قليلاً ثم أكمل كلامه قائلاً: ولكنك أجدر منّي بحبها، فلقد نغّصت أنا عليها حياتها، أتدرين؟ أنا الذي دفعتها لكي تتزوج من أبيك وأنا أعرف فارق السن بينهما، كان همّي في ذلك الوقت أن تفوز بنصيب كبير من مال أبيك.

وربما تقولين إننا فزنا بهذا المال والذي لم أستطع أن أفوز به عن طريق أختك، لأن كبرياءها كان يمنعها من أن تنفذ رغبتي وتطلب مالاً من أبيها، الشيء الذي عجّل بوضع حد لحياتي معها.

قلت والأسى يعلو وجهي: أشكرك على صراحتك هذه ولو أنها جاءت متأخرة.

كنت أنطق هذه الجملة وأنا أتمنى بيني وبين نفسي لو أني اكتشفت أنانيته وحبه لنفسه منذ الصغر، لكنت حتمًا هدمت تلك الشخصية التي رسمتها في خيالي له وأحببته من خلالها، ولربما أيضًا كنت أسعد حالاً بعد ذلك.

أسعد حالاً، لا أنا التي يجب أن أشكره لأن عقدتي التي حملتها بسببه من حوش التاجوري والتي تتلخص بعدم رغبتي في الارتباط بإنسان ما بالزواج كانت السبب. بمشيئة الله وقدرته - في أن ألتقي بزوجي وحبيبي لطفي، والذي أرى فيه رجلاً ولا كل الرجال. فهو حقًّا رجل بمعنى الكلمة، مستقيم عطوف صريح وواضح.

هكذا وجدت نفسي أفكر وأنا أنظر إلى فريد بشرود ذهن لاحظه وقال على أثره يخرجني من دوامة أفكاري: رباب، أعني يا دكتورة رباب أين أنت؟ يبدو أنك شردت بعيدًا عني، ولك الحق في ذلك، فأنا اليوم أظهر أمامك على حقيقتي التي لم أكن أود أن يكتشفها أحد، وصدقيني لقد حاولت أكثر من مرة أن أعترف لكم جميعًا بأخطائي التي ارتكبتها بحقكم، ولكن في كل مرة كنت أضعُف ولا أجرؤ على الإفصاح عنها خصوصًا وأنا أرى ولدي سارة يكبران يومًا بعد يوم ويصبحان على درجة من الوعي والإدراك، الأمر الذي يعني صدمة لهما وفي مَن؟ في خالهما الذي من المفروض أن يكون قدوة لهما.

قلت بمرارة وتهكم: وماذا في الأمر؟، صدمة لهما تضاف إلى الصدمات الأخرى التي سببتها لكثير من الناس.

(أرجوك يا رباب لا تجعلي من أيامي الأخيرة أيام بؤس وشقاء.)

أثارت هذه الكلمات مشاعري، فلست أنا التي تشمت بالآخرين، أو تفرح لأحزانهم ومشكلاتهم، الشيء الذي جعلني أتوقف عن التهكم عليه بل وأبتسم ابتسامة مشجعة وأنا أقول: من قال إن هذه

هي أيامك الأخيرة، يا فريد عمر الشقي بقي . كما يقولون.

لم ينبس فريد ببنت شفة إنما مد يده تحت وسادته وأخرج مظروفًا سلمه إلَيّ وقال: ما في المظروف لك وليس من حقي أن أحتفظ به.

فتحت المظروف والدهشة ممزوجة مع حب الاستطلاع ترتسم على وجهي، وإذا بي أجد صورة من صوري، صورة قديمة أفتقدتها منذ أكثر من عشرين عامًا، وأذكر يومها أنني بحثت كثيرًا عنها دون جدوى، مما جعلني أنسى أمرها تمامًا، أعادت تلك الصورة ذاكرتي إلى الوراء، إلى أيام حوش التاجوري، إلى أيام المرح واللامسؤولية، فقد أخذت تلك الصورة لي هناك في حوش التاجوري، وطبعًا قبل أن أصدم بحبي لفريد.

حبي؟، من قال إنني أحببته يومًا ما في حياتي؟، إنني الآن أكتشف أنه لم يكن حُبًّا أبدًا، كان وجهًا لشخصية ابتدعتُها في خيالي، شخصية رسمتها أنا بنفسي لفتى بحكم أننا جيران في حوش التاجوري وأننا كنا نلعب معًا ونحن صغار، وعندما كبرنا قليلاً وابتعدنا عن بعضنا بحكم العادات والتقاليد، جاءت صداقتي مع أخته لتنقل إلَيّ أخباره يومًا بيوم، وكأني لا زلت أقابله وألعب معه بالحارة، باختصار حبي لفريد كان وهمًا كبيرًا سبّب لي كثيرًا من الشقاء، فصدمتي فيه عندما قبل رغبة أبيه في أن يتزوج أختي دون أي معارضة ظلت عالقة بذهني وقلبي طوال السنين الماضية بحيث عزفت عن الزواج والحب، ربما لأنني كنت أخاف من صدمة أخرى، وربما لأنني كنت أظن أن ذلك الوهم . أي حبي لفريد . لا زال عالقًا في أعماقي.

طبعًا لم أعرف أن حبي لفريد أو حبي الأول كان وهمًا كبيرًا صنعته لنفسي بنفسي وعشت فيه سنين وسنين . إلا عندما قابلت الحب الحقيقي، فعندما قابلت لطفي وتعلقت به عرفت الحقيقة التي أسوقها اليوم لكل فتاة يحدث لها ما حدث معي في حوش التاجوري، والحب الحقيقي لا يمكن أن يكون حب مراهقين يأتي عن طريق مزج الإعجاب بالصفات التي تتمناها الواحدة منا بفتى الأحلام، صدقوني الحب يأتي من العِشرة وبعد الزواج، فحتّى لطفي مثلاً، لقد أعجبت بشخصيته وآرائه وأفكاره ولكني أحسست أن حبه تمكّن من قلبي، وتغلغل في روحي وعقلي في الفترة القصيرة التي قضيتها في تركيا زوجة له.

طال الصمت بيننا فأنا في دوامة في التفكير، أفكر في الماضي والحاضر، وهو لا أدري بماذا كان يفكر، المهم قطع هو الصمت ليقول بصوت فيه توسل واسترحام: رباب ألا تسامحيني.

(وعلام أسامحك؟) رددت بصوت ملؤه الشفقة، قال: على كل ما فعلت بك، فقد خذلتك يوم كنت صغيرة وأمعنت في إيلامك عندما كبرت تارة عن طريق تعذيب أختك التي راحت ضحية عدم استطاعتي الوقوف في وجه أبي لأقول: (لا ليست هذه التي أرغب بها زوجة لي)، وتارة عن طريق سارة وأنت أدري بما كانت سارة تفعله بكم عندما تزوجت والدك، وأخيرًا أريدك أن تسامحيني على أخذي هذه الصورة من بين حاجات أختك ودون علمك أو علمها.

قلت: لقد سامحتك يا فريد. صدقوني قلتها من كل قلبي؛ لسبب واحد وهو أن قلبي لم يعد فيه مكان للحقد أو الكره، كان يملؤه الحب ولا شيء غير الحب كان يملؤه حب لطفي، وحب الدنيا التي ابتسمت لي أخيرًا، وحب الناس كل الناس.

وتركت الغرفة وخرجت وفي يدي صورة قديمة لي، صورة أخذها لي يوم كان فريد شيئًا هامًّا في حياتي، وهاهي اليوم تعود لي وفريد لا يمثل في نفسي سوى شخص عابر، شخص عبر حياتي من خلال تجربة جعلتني أصلب عودًا وأقوى شخصية، فكان أن استطعت أن أرعى حياة كل من حولي وأن أصنع لهم السعادة عقودًا من ياسمين أطوّق بها جِيدَ كل من أعرف ومن لا أعرف. إذا قصدني في استشارة أو مساعدة أقدر عليها.

عندما وصلت البيت في مساء ذلك اليوم وبعد أن أنهيت وردية عملي في المستشفى كان التليفون يدق ليعلن المتكلم أن فريدًا قد مات، تسمّرت في مكاني وأنا أسمع الخبر، وتدحرجت دمعة كبيرة على صفحة خدي، أما سارة فقد أجهشت في البكاء فهو أولاً وأخيرًا أخوها (والدم لا يمكن أن يصبح ماء مهما حصل). كما يقولون. وعرفت أنه أيضًا اعتذر لسارة على تحطيمه لحياتها وهي في أول عمرها ودفعها للزواج بمن يكبرها بأربعين عامًا على الأقل لا لسبب إلا لكي يبتز منه ألوفًا وألوفًا من الريالات تأخذها سارة من أبي لتعطيها له كي يحيا تلك الحياة البوهيمية التي عاشها. جاءت أختي تحاول أن تمنع سارة من البكاء على إنسان لا يعرف معنى الإنسانية. على حد قولها .ولكني أشرت إليها أن تصمت وأن تدع سارة تبكي وتنتحب، فالبكاء في كثير من الأحيان يغسل القلوب ويجليها ويدمل جروحها.

بعد ثلاثة أسابيع من وصولي جاءتنا برقية تعلن عن موعد وصول خالي وزوجي لطفي، انتظرت ذلك الموعد وكأني انتظرت دهرًا لا يومين حتى إذا ما وصلا شعرت بالأمان والاطمئنان، كيف لا وقد جاء فارس أحلامي ليكون السند الذي أعتمد عليه في حياتي وليصبح رفيق دربي إلى آخر العمر.

استقبل الجميع خالي وزوجي لطفي بكثير من الحفاوة، حتى سارة التي كانت حزينة لوفاة أخيها شاركت في ذلك الاستقبال الحار.

أراد لطفي أن ننتقل أنا وهو إلى أحد الفنادق لنعيش هناك إلى أن يتم له استئجار بيت، ومن ثم تأثيثه، ولكنني عارضت واستخدمت خالي كوسيلة ضغط عليه لنعيش في بيت أبي، ذلك البيت الكبير الذي لا يوجد فيه سوى سارة وولديها، ولقد اقتنع بعد جهد جهيد وخصوصًا عندما أفهمته أنه سوف يكون سيد البيت وراعيه وسيحمل على عاتقه تربية أخويّ بدر وبندر اللذين أخذا يكبران يومًا بعد يوم، عندها أذكر أنه قال بحماس شديد: سأكون لهما نعم الأب، وقلت أنا بصوت ملؤه الثقة فيه وفي كلامه: إن شاء الله، إن شاء الله.

وأرادت أختي أن تحتفل بزفافي من جديد وأن تقيم احتفالاً كبيرًا يحضره كل معارفنا وأقربائنا وأصدقائنا، نزلت على رغبتها خصوصًا وأن الجميع كان يؤيدها في رأيها هذا، زوجها وأولادها وأخوي وكل من حولي.

جاء الاحتفال رائعًا فلقد قام الجميع بتزيين البيت بالأنوار وأنواع الزينة حتى بدا هو الآخر كعروس تتلألأ على صفحة مياه البحر الذي يطل عليه ليعكس بهجة وفرحة لا حدود لها.

ووسط الزغاريد والغناء قطعنا أنا ولطفي كيكة كبيرة من عدة طبقات أوصى عليها زوج أختي من أفخر مطعم في جدة، وجعلها مفاجأة لي، أنا التي كنت أرى أنه لا داعي لمثل هذا الحفل، وأنه يكفيني جلسة عائلية واحتفال بسيط.

عندما علمت أختي برغبتي هذه صرخت كما لو كانت أمي التي تريد أفضل شيء لي وقالت: إنها أختي الوحيدة وأريد أن أحتفل بها بحفل يذكره الجميع أطول مدة ممكنة.

وبينما أنا في الكوشة أنتظر لطفي أن ينضم إلَيّ كما هي العادة، كان فكري يسرح بعيدًا بعيدًا، لقد كنت أفكر بذلك المسكين الذي مات بلا أنيس ولا ونيس، مات لوحده ليس معه أحد سوى الوحدة والفراغ، وتمتمتُ: هو أراد لنفسه هذا المصير - رحمه الله وغفر له.

هكذا هي المرأة مجموعة من الأحاسيس المتضاربة المتباينة، وهي بعد كل ذلك وقبله من لحم ودم وأعصاب فهل يمكن أن تكون غير ذلك.

ربما وفي كثير من الأحيان تختلط الأمور وتتضارب الآراء والرؤية لمسيرة الحياة التي يعيشها الإنسان، مسيرة الحياة تلك التي يحاول بعضنا العبور ويحاول بعضنا الآخر القفز فوقها، ومع

هذا يتساقط بعضنا في أول الطريق أو منتصفه، وكأنهم على موعد مع الفشل بينما يمضي بعضنا إلى نهاية المطاف ونصب أعينهم الوصول إلى أهدافهم.

ترى من أي نوع أنا؟، أترك الحكم لكم بعد قراءة مسيرة حياتي هذه والتي كنت صادقة في كل حرف وكلمة أقولها، أترك الحكم وأنا واثقة بأن حكمكم سيكون لصالحي، على الأقل هذه المرة وإلى هذا الجزء من مسيرة حياتي، الجزء الذي أضع فيه يدي بيد زوجي لطفي لنكمل هذه المسيرة معًا في طريق يخلو من الأشواك تمامًا كما كانت حياتي يومذاك في حوش التاجوري، بل وأشعر أنني قد نسيت كل ما مر بي وأنني أبدأ حياتي من جديد، من حوش التاجوري، طفلة صغيرة تتطلع إلى الحب والانطلاق والحياة السعيدة في ظل فارس أحلام يأتي من الواقع هذه المرة وليس من نسيج الخيال.

***

كتب للمؤلف

* من بلادي، مجموعة قصصية ١٣٨٣هـ ١٩٦٣. دار النشر مطبعة المدني (القاهرة).
* البيت الكبير، الناشر شركة مطابع المطوع (الدمام).
* ذكريات لا تنسى، المكتبة الصغيرة، الرياض، طبعتان.
* ليس الحب يكفي، أربع طبعات، مجموعة قصصية، دار الآفاق اللبنانية (بيروت).
* غرباء بلا وطن، رواية، دار الآفاق ١٩٨١، طبعتان، بيروت.
* سنوات الضياع، رواية، الدار التونسية للتوزيع والنشر (تونس)، بيروت.
* الشياطين الحمر، رواية، المكتب المصري الحديث، دار الأهرام طبعة أولى، دار الآفاق طبعة ثانية، المجموعة الإعلامية للنشر طبعة ثالثة.
* ألقاك غدًا، مجموعة قصصية، دار الآفاق ببيروت ١٩٨٢.
* المسيرة الخضراء، رواية، ثلاث طبعات، دار الآفاق (بيروت) ١٩٨١م.
* واحترقت بيروت، رواية، طبعة أولى دار الآفاق (بيروت) ١٩٨٢م.
* امرأة لا بقايا، دار الآفاق (بيروت) ١٩٨٣م.
* وجوه بلا مكياج، وقلوب ملّت الترحال، روايتان، دار الآفاق (بيروت) ١٩٨٣.
* أوراق ملونة، مجموعة قصصية، دار الآفاق اللبنانية (بيروت) ١٩٨٤م.
* الضياع مجموعة قصصية، دار الآفاق اللبنانية ١٩٨٥م.
* وتقرع الطبول، مجموعة قصصية، دار الآفاق اللبنانية ١٩٨٥م.
* سنوات معه، رواية، المجموعة الإعلامية للنشر والدراسات الإعلامية (جدة) ١٤٠٧هـ.
* لا شمس فوق المدينة، رواية، دار الآفاق اللبنانية ١٩٨٩م.(بيروت)
* لا شيء يمنع الحب، رواية دار الآفاق اللبنانية ١٩٩٠. بيروت
* الطريق إلى سرايفو، رواية ٢٠٠٠ دار القلم العربي بحلب.
* وداعًا أيها الحزن، رواية ١٩٩٠، نادي المدينة المنورة الأدبي.
* حتى لا تفقد الشمس، رواية، وقصص أخرى. تحت الطبع
* زقاق الزرندي، رواية، تحت الطبع.